

أبو ديلو

مَجْزرة المقابر

رواية مستوحاه من حكايا الناس



نبيل مرعى

أَبُو بِلَلٍ

الطبعة الأولى

١٤٤٢هـ - ٢٠٢١م

كافة الحقوق محفوظة

رواية : أبو بيللو - مجزرة المقابر

المؤلف : نبيل مرعى

تصميم الغلاف والتنسيق : المؤلف

رقم الإيداع :

الترقيم الدولى :

الناشر : دار الأمة العربية للنشر والتوزيع

١٤٤٢هـ - ٢٠٢١م

الطبعة الأولى

تنبيه

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف ولا يسمح
بإعادة نشر أو إصدار هذا الكتاب ، أو أى
جزء منه أو تقليده أو تخزينه فى نطاق إعادة
المعلومات ، أو نقله بأى شكل من الأشكال
دون إذن مسبق موقع من المؤلف

الناشر

مؤسسة الأمة للنشر والتوزيع

هواتف : ٣٥٧١٢٢٣ - ٠٤٨ - ٠٠٢

المبيعات : تحويل داخلى ١٣

الفاكس : تحويل داخلى ١٤

إدارة النشر : ٠٠٢٠١١٤٢٠٢٢١٧٤

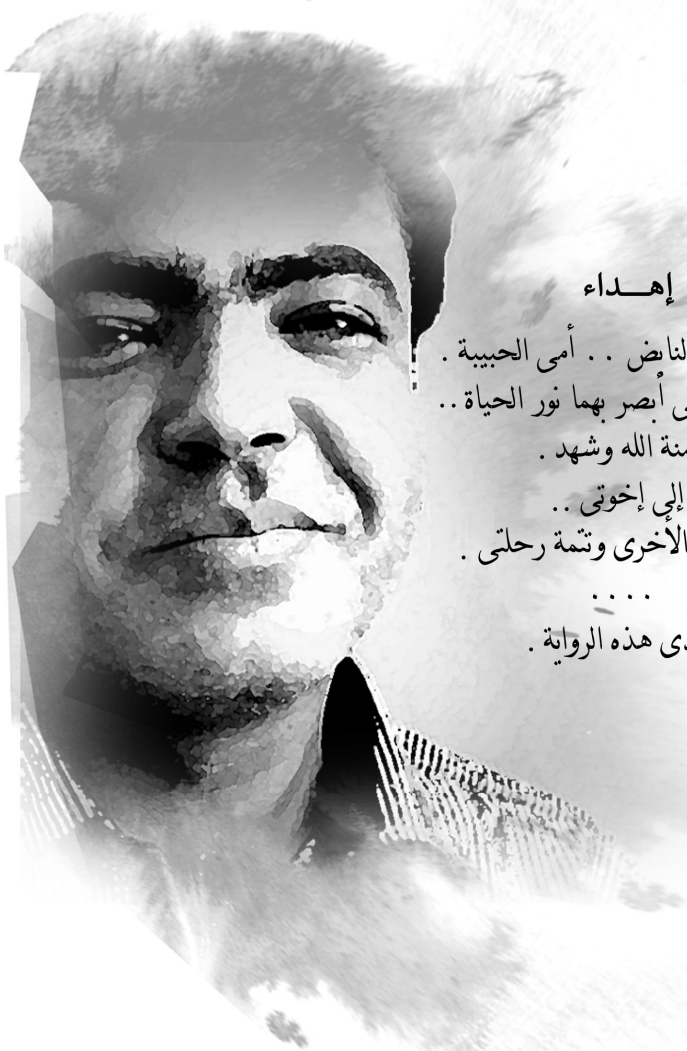
مؤسسة الأمة العربية
للنشر والتوزيع

أَبُو دِيلُو

مَجْزرة المقابر

رواية مستوحاه من حكايا الناس

تأليف
نبيل مرعى



إهداء

إلى قلبي النابض .. أمي الحبيبة .
وإلى اللاتي أبصر بهما نور الحياة ..
منة الله وشهد .

إلي إخوتي ..
فروعى الأخرى وثمة رحلتى .

.....
أهدى هذه الرواية .

أَبُو بِلَلُ

الْحِكَايَاتُ عَنْهَا تُضَارِعُ الْأَسَاطِيرَ ..
قِيلَ أَنَّهَا قَدِيمًا كَانَتْ مَدِينَةً فُرْعُونِيَّةً عَظُمَى
عَقَدَ لَهَا كَهْنُهَا رَصْدًا مَهِيًّا مُنْذُ أَرْمَانَ سَحِيقَةٍ ..
فَخُسِفَ بِهَا ..

وَمُنْذُ ذَلِكَ الْحِينِ مَا تَنَفَّكَ أَنْ تَتَغَرَّسَ قَرْيَةٌ عَلَى أَطْلَالِهَا
حَتَّى يُصِيبَهَا ذَلِكَ الرَّصْدُ الْمَخِيفُ ..
فَتَبْتَلِعَهَا الْأَرْضُ فِي جَوْفِهَا وَكَأَنَّهَا لَمْ تَكُنْ ..
وَكُلَّمَا حَاوَلَ أَحَدُهُمُ التَّحَرِّيَ دَاخِلَهَا عَنْ كُنُوزِ الْفَرَاعِينَ إِخْتِلَاسًا
يَذْهَبُ فِي غِيَاهِهَا دُونَمَا عَوْدَةٍ ..
وَكثيرًا مِنْ الْأَرْهَاصَاتِ وَالْأَضْغَاثِ تَلِكُ
تَمُوجُ عَلَى الْبَسَنَةِ النَّاسِ وَفِي عُمُقِ أَدْمِغَتِهِمْ ..
يَبْدُو أَنَّ تِلْكَ الْأَرْضَ الْمَرْصُودَةَ ..
سُتَظَلُّ شَاهِدَ عَيَانٍ عَلَى مَا حَدَثَ فِي تِلْكَ الْفَتْرَةِ ..
يَتَحَاكُونَ بِهِ الْأَهَالِي مَرَارًا وَلِسِنَوَاتٍ طَوَالَ بَعْدِهَا ..
سَيُورُ ثَوْبِيهِ أَوْلَادُهُمْ وَأَخْفَادُهُمْ ..
وَسَتَظَلُّ الْحِكَايَةُ الْأَكْثَرُ ذِيوعًا وَشَيْوعًا عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ ..

نبذة عن منطقة أبو بيللو

تدعى " بوبيللو " أو " كوم أبوللو " .. وهى كوم أثرى يطلق عليه الأهالى .. مجازا .. " ترب الأقباط " .. وهى تقع فى زمام قرية " الطرانة " .. والتى عرفت فى النصوص اليونانية بإسم " Tarenthis ثرميوثيس " .. وهو الإسم الذى حور فى العربية إلى " الطرانة " .. وتقع هذه القرية بمحافظة المنوفية ، مركز السادات ، إلى شمال بلدة " الخطاطبة " ، وإلى الشمال الغربى من مدينة منوف .

ولقد إختلف المؤرخون فى تحديد جذورها الأولى ، قيل أنها تقع فى موقع معمور منذ عصور ما قبل التاريخ ، كما يقال أن الجذور الأولى للمنطقة ترجع للعصر الفرعونى وخصوصا للأسرة " ٢٦ " .. ولقد كانت فى العصور الفرعونية مقرا لعبادة الإله " إيزيس " ، وفى العصور اليونانية _ الرومانية أصبحت حامية عسكرية ومقرا لعبادة الإله " أبوللو " ومنها جاءت التسمية " بوبيللو " والإسم الدارج لدى المحليين " أبوبيللو " .

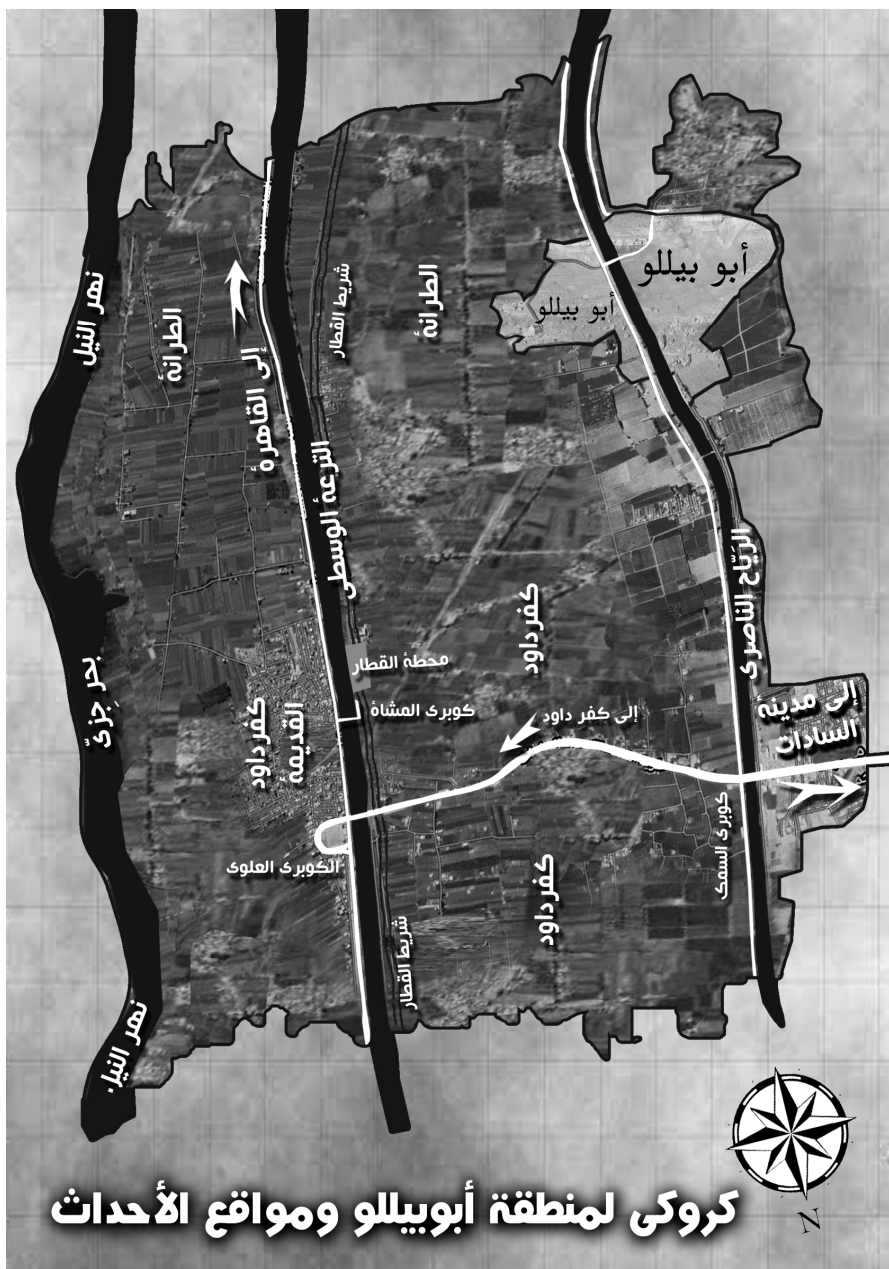
ولقد عثر فى منطقة " أبوبيللو " على العديد من المقابر الفرعونية واليونانية .. ما يقارب ٦٠٠ مقبرة أثرية ومن الملفت أن عثر فيها

على أكثر من ٥٠ هيكلا عظيما مصابة كلها بضربات البلط والسهام .

ولقد إزدهرت فى العصور القديمة وخصوصا فى القرن الثالث قبل الميلاد كمركزا لتجارة القوافل بين دلتا النيل والصحراء الليبية وذلك لأنها كانت تقع فى مفترق طرق القوافل التجارية التى تنقل البضاع من موانئ البحر المتوسط لتصل بها إلى غرب الدلتا

وإشتهرت بملح النطرون الثمين الذى كان يرد من وادى النطرون .

ومن الجدير بالذكر أنه من أهم الأعمال الأدبية الروائية الى تناولت منطقة أبوبيللو بشيئ من التدقيق والإسهاب .. رواية " حجارة بوبيللو " للروائي الكبير إدوارد الخراط .. " دار الأداب - بيروت ١٩٩٢ م " .. " دار شرقيات للنشر والتوزيع ١٩٩٣ " .. ولقد عرف إدوارد الخراط هذا الموقع الأثرى " بوبيللو " وإرتبط به وجدانيا عندما كان يعيش فى " الطرانة " قرية جدته ، فى البحيرة " إذ كانت تتبع محافظة البحيرة سابقا " منذ خمسين عاما .



عند حافة النهر .. جلست أرمق أديم المياه ذاهلا بنظرات
شاخصة .. ساهمة وشاردة .. أباشره يتمطى فى أريحية وإسترخاء
.. وصدايح بعض الطيور المائية يتواتر إلى مسامعى تذرته
وشوشات الأمواج الهادئة .. وفحيح السيارات المارقة على الجسر
الرابض بالضفة المناظرة يتردد فى جنباته بأصداء خاطفة ..

تذكرت ما حدث فى تلك الفترة البائدة والأيام المنصرمة
المشحونة .. لروح من الزمن .. وكان علة ما أنا عليه الآن .. وما
أل إليه حالى .. وإنتهى به مطافى .. أهل غير الأهل .. وناس غير
الناس .. وأرض غير الأرض .. وكأنها قد بدلت جلدى .. أو
قطنت روح أخرى ..

جالت ذاكرتى بسالف عهد تلك البقعة .. وما جرى بها ..
فكانت شاهدا عيان عليه ..

أكتوبر ٢٠٠١ ميلادية ..

كان النهار شديد القىظ .. لافح .. مختنقا بالهبوب الحارقة ..
والرمال الجبلية تنفث حرا يضارع جهنم ، أو يكاد .. ما تنفك

كل حبة رمل أن تنفر مثيلتها " إلقاء اللوح المؤلم " .. حتى
تلسعها جارتها الأخرى .. فتردعها إيلا ما وإلتياعا ..
ورغم أنه على المدى القريب يرتخى الرياح الناصرى .. ذاك النهر
العفى .. إلا أن نسائمه لم تستطع تليطف إحتقان " زمته حرارة
الجو " .. فمياهه شديدة السخونة .. تمج بدورها أنفاسا لاهبة ..
وثمة قطار مكفهر يلهث بعيدا على القضبان الملوحة بفعل حراب
الشمس المسننة .. يصدر نعيقا يملأ أذان الأفق يسراه ويمناه ..
تتناوح أصداؤه القرية والبعيدة بترديد متماوج حاد ..
وعلى بعد زهاء النصف كيلو متر تتموقع قرية كفر داود القديمة
.. تلك البلدة الحظية .. غرائبية المعالم .. فريدة القسمات والملامح
.. إذ يجسرها ثلاث مجارى مائية رحبة .. ففى أقصى الناحية
الشرقية يحدها البحر الكبير .. " كما يدعونه القريون المحليون "
.. المطل على بلدة جزى .. بينما تخترقها ترعة وسطية محاذية
لشريط القطار .. أما الرياح الناصرى .. المنعوت باسم منشئه ..
فيشطرها الى نصفين .. الشطر الشرقى ذو التربة الطينية الولادة
.. السمراء المشبعة بطمى النيل الثرى المخصب .. فتفترشها

القرية القديمة .. أما الشطر الغربى فيثقل بمحط القرية الجديدة
ذات التربة الرملية الصفراء ..

ولا عجب فى هذا التحول القطبى .. الناحى إلى العبثية ..
فقاطنى تلك المستقرات .. أدانيها وأقاصيها .. لديهم من
الأعاجيب العجائب ..

وثمة أيضا ثلاث جسور تعبر مجاريها .. فهناك ينتصب كوبرى
المشاه والكوبرى العلوى العابران للترعة الوسطية .. ليصلان
ضفافها .. وكوبرى السمك العابر لمجرى الرياح ..

وفى الجوار .. إلى الغرب من مجرى الرياح .. تقع الأحداث
المنشودة .. بمحاذاة قرية الطرانة على الضفة الأخرى .. "
المجاورة لكفر داود من الناحية الجنوبية " .. خواء شاسع من
الرمال المتحجرة ذات اللون الخشبى القاتم .. أرض قاحلة .. لم
تسق بشربة ماء واحدة منذ زمانات سحيقة .. عديمة الزرع
والانسان إلا ما ندر .. فإلى إمتداد البصر تتراص أكوام رملية
وتلال هزيلة .. وتموجات من الكثبان الناعمة تنبسط على أديمها
.. تتناوب فى الظهور والخفاء .. تلتهم لجاتها رحابة السماء بينما
تدثرها الأخرى على مرأى الأفق البعيد .. تخترقها مدقات ضيقة

مختنقة " زهيدة التعبيد " بالكاد تتسع للمشاة والمطايا أو المركبات الصغيرة ..

ولا تتمثل الحياة هنا إلا في مجموعات متناثرة من الأشجار الصحراوية كأدغال النخيل الهزيلة وأشجار الكافور والجزورين أو تكورات الهيش الجاسية المسافرة الشاردة .. وتكثر هنا بوفرة أوابد الوحش .. التى نفرت من الانس .. كالدئاب والثعالب والزواحف والهوام السامة .. وثمة تجمعات من البيوت الريفية المتناثرة .. البادية على استحياء .. يقطنها عربان البدو المتناثرين بتلك البقاع دون غيرها من محطات ومستقرات الجوار ..

هنا تبدو وتنجلي منطقة أبو يبللو الأثرية .. الساحة الغراء الأشهر .. الضاربة فى عمق التاريخ والموغلة فى الزمن .. " الإمتداد الغربى لبلدة الطرانة " .. حيث تشرئب أطلال الدور المدفونة تحت الثرى .. والتى دارت حولها الحكايا والأقاويل والخرافات .. وفى أعماقها تقبع آلاف المقابر الفرعونية .. شأنها شأن البلدة القديمة الطافية على بحر من أطلال الفراعين الميتة .. وكنوزها المنسية المفقودة ..

يتراءى بالقرب القريب .. مشهد مريب .. حادثة مروعة عند حافة أحد المدقات .. عدد من الجثث الراقدة بعشوائية .. تفترش الرمال الساخنة .. ورجال المباحث والطب الشرعى شرازم فى كل مكان يتفحصون الجثث .. ويتحرون أسباب الجريمة .. فعلى مبعدة ثمة سيارة " هيونداى " ضخمة قائمة .. متعثرة فى الرمال .. وعلى سطحها ذرات وبقع من الدماء المتخشرة .. وثلاث جثث غرقى فى الشجيج الأحمر .. يحوطها بعضا من أفراد الأمن .. وعلى بعد ما بما يناظر العشرون مترا .. سيارة أخرى " جيب سوداء " مقلوبة على أحد جوانبها .. وأثار الحادث والاحتكاك منطبعة على أديم الرمال .. وخمس جثث أخرى نافقة داخل السيارة .. وثمة حديث دائر بين أحد خبراء الطب الشرعى ومساعدته ..

- ملقيناش مع الجثث أى إثبات شخصية يا فندم ..

- خلى رجاله الإسعاف يخلو المكان ..

حمل المسعفون الجثث داخل الأكياس المعدة لهذا الغرض .. بينما كان الضابط ممدوح رئيس المباحث بمركز السادات يقتفى أثار أقدام نافرة بجوار السيارة المقلوبة .. أسهمت طبيعة التربة الرملية شديدة النعومة والإنسيابية فى إبراز محط الأقدام المغادرة

بدأت لشخص ما كان قد غادر الساحة هاربا إثر وقوع الحادث ..
إذ تتنافر وتتآزف بعشوائية لاهثة مكروبة .. صوب إتجاه مقصود
إقتاد الضابط سيارته متتبعا وكاشفا الآثار في ترو وهدوء .. كان
سيره أنقل من حبو طفل رضيع .. إلى أن تلاشت وإندرث
الآثار عند مدق فرعى مهجور .. " غير معبد " .. تتراءى على
مراميه مزارع الموز المتوغلة ومحاجر الزلط ..

هبط الضابط مترجلا يستجدي أية أثر أو شية .. ولكن دون
جدوى .. وقف حائرا مريجا .. زهيد الحيلة .. على مبعدة من
الطريق الاقليمي .. " العمومى المرصوف " .. بزهاء الكيلو متر
.. حيث ترتاده السيارات المتوجهة صوب مدينة السادات غربا
ظل شاردا واجما إلى أن لمح جشتين مسجاتين لرجلين طريحا
الأرض .. فهرع إليهما ليكتشف أنهما لخفيرين نظاميين قد عيتهما
هيئة الآثار لحراسة المنطقة .. وكان هذا باديا من بطاقات تحقيق
الشخصية .. والبنادق الرسمية ..

وبغته .. سمع الضابط صوت أزيز وصفير خافت .. إلتفت
خلفه ليجد سيارته غارقة إلى أذنيها في حيز الرمال المتحركة ..

إبتلعها على حين غفلة منه .. أصر على أسنانه يحتقن غيظا ..
وأرسل إشارة عبر الأثير من خلال جهازه اللاسلكى ..
- تعال وهات ونش معاك .. الرمل بلع العربية .. وهات
عربية إسعاف فيه جثين هنا ..
وأسقط الجهاز ضائقا .. يتسمع عواء سيارات الاسعاف مغادرة
محط الجريمة ..

فى تلك الأثناء .. كنت متعثرا تحوطنى بحور الرمال الصفراء
الجدبة .. أحمل حقيرة صيد صغيرة وتتلطخ أرديتى بالدماء ..
كنت أهروول محاولا الهروب من ذات البقعة حيث وقعت
الجريمة .. بيد أن ما كنت أحمله فى حقيتى أعاقنى وأثقل كاهلى
.. حاولت حثيثا مناهضة عثرات الرمال وعقبات أكوامها .. كلما
سرت خطوة إنغرس إحدى قدمائى .. وتوحشت الشمس
الحارقة تلهب ظهرى بكرابيجها اللافحة .. وتلتهم بصرى بسنا
إشعاعها المتكاثف .. جاهدت المسير يتصبب عرقى مدرارا ..
أنكب تارة وأنهض تارة .. حتى شارفت الطريق العمومى الممهد
.. لم يكن بإستطاعتى المضى بأى من المدقات حتى لا أكون محط
أنظار المترقيين من رجال الشرطة ..

لوحث لإحدى سيارات النقل اللاهثة على صفحة الطريق
الأسفلتى .. جيئة وذهابا .. وكنت مازلت أتلصص وأسترق
السمع خلفى .. كان الخوف يملكنى ويقبض جأشى ..
ويكتنف أنحائى .. كلما إطمأن قلبى لبرهة .. شعرت وأن

أحدهم يترصدنى .. فأعيد الكرة وأحد النظر خلفى مرتعدا خيفة أن يفتضح أمرى ..

وقفت إحدى السيارات .. وإرتقيت إلى صندوقها الخلفى حاملا حقيتى بمثاقيلها التى أرهقتنى طوال المسير .. إندفعت السيارة كالسهم المارق .. ومازلت أتحرى الطريق وراءى .. أنعم ناظرى صوب كل اتجاه .. وإلى مرامى الأبصار .. إلى أن إبتعدت السيارة تماما عن تلك البقعة المقبضة .. وأحسست أنها أننى فى مأمن نسبى بعيدا عن مراميههم ..

جسرت السيارة الكوبرى العلوى العابر من الضفة الغربية إلى تلك الشرقية للترعة الوسطى .. " التى تخترق حشا قرية كفر داود القديمة .. مرورا بشريط القطار المحاذى للمجرى المائى والمتعامد مع الكوبرى العتيق " ..

ما هى إلا دقائق .. وكنت أسفل الكوبرى مترجلا أتحرى عن سنارتى .. التى واريثها فى الغداة عند ناصية أحد الأعمدة الضخمة " التى تحمله نيرا على عاتقها " .. كنت قد خبأتها خلف أحد القوارب الراسية عند ضفة الترعة .. أبدلت ملابسى

الملطخة بالحمرة الفاقعة بأخرى كنت قد أودعتها بالقارب قبل
المضى صباحا .. "تحسبا" ..

وثقت الأردية المبقعة حول حجر صغير وأحكأت عقدها ثم
ألقيتها بمياه المجرى .. وتناولت السنارة ثم خرجت إلى الطريق
تارة أخرى .. "شبه مطمئن" ..

أحاول تنظيم هندامى .. ومحو بعض آثار الأتربة العالقة به ..
حتى لا تنجلي حالتي .. وينكشف مأربى ..

طفقت سائرا على جسر الطريق .. وشيئا من الوجل مازال
يشاغلنى ويخايل فؤادى .. ويرادنى بين الفينة وأختها .. مما
دفعنى لأحدق النظر خلفى مرارا إلى أن دثرنى الزحام ووارانى
عجيب المارة وهوجة السيارات .. فبت فى مأمن مطلق من أى
خطر محقق ومباغت ..

إنطلقت إلى عمق البلدة الريفية .. المنحوتة من طين النيل وطميه
.. تطوقها الزراعات والجبانة القديمة .. سرت أجوب حواريها
الضيقة وأزقتها المختنقة " المراوغة " قاصدا وجهتى ..

وفى جوف إحدى الحارات .. عمدت إلى بابا موارد .. كان واطئا
بهية ملفتة " يغمرك بالنفور والرغبة للوهلة الأولى " وكأنه باب

طابق تحتى .. كان البيت قديم أشبه بقبر مدفون تحت طبقات الطين والطينى الصلد .. تنبعث منه دلجة حالكة تقبض الجأش الجسور .. على غرار باقى بيوت القرية التليدة ..

طرقت الباب عدة طرقات خافتة خفيضة .. " تسمعها ولا تلحظها " .. فتحت الباب طفلة صغيرة .. " أعهدا وأعرفها حق المعرفة " .. إنها صغيرة سماح .. سماح الأرملة المعذبة صغيرة السن .. فى طور الشباب .. تلك التى ضاع عمرى فى رحاب فؤادها .. فتأتى التى أغرقتنى عشقا ولهفة .. فبات حلمى الأبقى عصى التحقق ..

إستدعت الطفلة أمها حتى وافتنى .. " مثلت أمامى من داخل الباب الموارب " .. فمددت يدى وأعطيها الحقيبة .. وقبل أن تنبوا بنت كلمة .. ناهضتها بالحديث .. رجوتها أن تستبقيا عندها ريشا أعود لها ليلا .. وأن تحببها بمكان آمن لا تمتد إليه الأيدى ..

حاولت سماح أن تتكهن حقيقة الأمر .. " طلبت منى ايضاحا " .. لكنى لم أنبس بلفظ بل خليت سبيلها مغادرا فى لهاث ولهفة .. " دون أن يسترعى التفاتى قلقها وريبتها " .. بيد أنى قبل أن أدور

من عطفة الحارة حدثتها بأنى سأعطيها تبياناً للأمر حينما نلتقى
ليلاً ..

لم تملك سماح من الأمر شيئاً سوى أن تعلق عيناها بشبحى
الغارب فى حيرة ووجل .. وترامت إلى مسامعى عباراتها المعتادة
بأنى سأوردها المهالك جريرة أفعالى .. لم أكثرث وأكملت
مسيرى ..

إختفيت عن ناظريها بين وشائج الأزقة المتشابكة بغباء وعشوائية
.. بينما ظلت سماح شاخصة عند تلك الناصية " التى ولجت
وغادرت منها " .. رمقت سماح الحقيبة فى شتات .. لهنيهة زهيدة
.. ثم دعت طفلتها إلى الدخول وأوصدت بابها تنتظر خبراً أو
مقدمى المنشود ..

طويت المسير متوجها صوب المقهى أسفل الكوبرى العلوى "
والمجاور لموقف السيارات العمومى للبلدة .. ينسبط خلفه
ملعب الكرة المطوق بدوران الكوبرى " .. ولجت إلى المقهى
قاصداً منضدة بعينها يشرف عليها شخصين .. هما فتحى صديق
عمرى ورفيق دربى ورحلتى ..

وبركات أحد هؤلاء من تربطنا بهم علاقة سطحية .. " إذ لا
تجمعنا غير الطرقات والمقاهى ..

ما إن دلفت إليهم .. حتى هلل بركات بمصطلحاته المعتادة
وظلته المرائية مدعيا لهفة اللقاء .. "وكأنك فى زفة لبغبة
الكاذبين .."

أطرقت فى صمت متجاهلا عباراته العابثة اللاهية .. "فلکم
طرقت مسامعى .." إنطرحت على أحد المقاعد متطلعا إلى تلك
الضجة الغامرة أعلى الكوبرى .. كانت سيارات الشرطة
والاسعاف لاهثة تجوب شرقا وغربا .. فإرتبكت فى إثرها حركة
التنقل والمرور ..

حاول بركات تبيان كنة الأمر .. بينما مال فتحى برأسه قرب أذنى
يحادثنى بصوت خافت ..

- إتاخرت لیه .. إوعى تكون إتورطت فى حاجة ..

أجبت والخوف والهزال يتنبانى ويكتنفانى ..

- متكلمنىش فى أى حاجة دلوقتى .. كفاية اللى أنا فيه ..

رمقنى فتحى مریجا وأحس بالخوف ینهش صدره ..

بينما نادى بركات أحد المارة محاولا إستيضاح علة تلك الجلبة
أعلى الكوبرى ..
فأجابه ..

- فيه حادثة فظيعة حصلت بأرض المقابر .. إقتل فيها أكثر
من عشر رجالة ..

فزع بركات وأحس أن تحركات ما أمنية ستدور رحاها .. وما إن
لمح إحدى سيارات الشرطة عند ناصية المقهى حتى هب متفضضا
" طارحا مقعده خاويا " وهرع هاربا ..

وشعرت أنا بدورى أن خطرا داهما يقترب شيئا فشيئا ..
فأصابنى ذعر وهلع شديدين فنفرت من محطى .. داعيا فتحى
لمغادرة المكان توا .. فبين لحظة وأخرى .. سيمتلئ المقهى برجال
الشرطة ويقتادون الحابل بالنابل .. ولكن ما إن خرجنا من باب
المقهى حتى داركنا خفيران نظاميان .. وإصطحبانا إلى سيارة
الشرطة .. تدمر فتحى محتجا على هذا النحو المتعسف .. إلا أنه
بالنهاية أذعن لإرادة الخفيرين خيفة أن يتلقى صفعاتهم الموجهة

إستشرى الخفراء داخل المقهى و جلبوا الكثير من مرتاديه المشتبه بهم .. منهم من هاج هائج .. ومنهم من مضى بهدوء وإنصياع غير آبه بمسلك الخفيرين المناهض .
وإنطلقت سيارة الشرطة بنا متجهة شطر مركز شرطة المدينة ..
ونعيق إنذارها يطن فى الأجواء مرددا صدا مخيفا ومقبضا .

صبيحة اليوم التالى .. وأمام مركز الشرطة .. خرجت أنا وفتحي من ساحة المركز بعد إنقضاء ليلة مضنية بالحجز الاجبارى وبصحبتنا بركات الذى لم يتمكن من الهروب ظهيرة أمس من قبضة الخفراء .. إذ لحق به أحدهم مترصدا ومناهضا لرغبته .. وكانت تبدو على أساريرى إشارات الغضب والتذمر .. فلم أعتاد المبيت بالتخشية .. بينما سار فتحي إلى جوارى يفرك عينيه ويتشاءب فى هدوء رتيب .. وتبلد غريب مستفز .. أما بركات فلم يحفل بالأمر مطلقا .. أشعل سيجارة وطفق ينفث دخانها غير آبه غلبتنى دمدمتى .. فخليت سبيلهم ضائقا .. " أجافى صحبتهم " .. وما لبثت أن ترجلت لخطوتين حتى باغتنيى ألونيا يناظرنى مباشرة .. وذاك أيضا أحد المتطفلين على أديم صحبتنا .. بادرنا بعباراته الساخرة المتشفية .. مدعيا الرجولة إزاء موقفنا المكفهر من قضاء ليلة واحدة بالحبس .. " ولا أخفيك خبرا فقد كان تعس الحظ من مرتادى السجون ومفترشى الأبراش " .. علاوة على عمله كمرشد سرى لدى رئيس المباحث .. الضابط ممدوح ..

ألقى تحيته السمجة على ثلاثتنا .. والتي أجبتها وفتحي على مضمض .. بينما تأبطه بركات في قبلة خاصة .. " تسمعها بوضوح .. مستوضحا عن محطه غداة اليوم الماضي ..

لم يجب ألونيا .. ووجه حديثه لى مستهزئا ..

- إنت زعلان قوى كده ليه ؟ .. أمال كنت هتعمل إيه لو رحلوك على النيابة ؟ ..

أجبتة بلهجة نافرة متوترة ..

- الحكاية مش مستحيلة رخامتك ..

وإستطرد فتحي ..

- سيبه فى حاله ..

تجاوز ألونيا عن الحديث فى ذات الأمر .. وسأل بركات ..

- هنقضى ليلنا فى النهاردة ؟ .. ياترى جبت التموين "

الحشيش والبيرة "

فتذمرت مكظوما من ذاك السليط .. بارد الحس ..

- الله يخرب بيوتكم إحنا لسة فى المركز .. هتودونا فى داهية

وأسرعت خطوى مرددا ..

- أنا غاير فى داهية .. قبل ما أروحها على ايديكم ..

فتداركنى بركات ..

- إهدى شوية .. هنروح مع بعض ..

بينما أماء بناظره إلى ألوونيا .. يدعوه للتخفيف من وطأة حديثه

الفج .. بيد أنه لم يرتدع .. واجهنى بحديثه الناحى إلى البذاءة ..

- فوق يابويا .. إنت هتصعبها علينا ليه ؟! .. الحكومة

بنفسها هى اللى بتجيب لنا حصص المخدرات .. صح

النوم ..

ثار ثائرى وتقدمت متآزفا أردد ..

- غور من وشى .. ربنا يزيدك غباوة على غباوتك

فلاحقنى وناظرنى قسرا .. ساخرا ..

- انت جبان كده ليه ؟ .. امال ليه على طول عاملى عنتر

وسيد الرجالة ؟ ..

فإبتدره بركات .. وحدثه بصوت خفيض هامس ..

- سيبك منه وقولى .. فيه حريم الليلادى ولا هقضيها وشى

فى وشك ؟ ..

أجابه ألوونيا متحذلقا ..

- اللى يسمعك بتقول كده يقول الواد مقطع السراير

- طب هاتلى واحدة دلوقتى وشوف أنا هعملك فيها ايه ..
وفى المركز .. المهم يبقى فيه ..
- مخك ده أعرج .. ودى حاجة تفوتنى ياناصح .. هو
الكيف يعلى من غير حريم ؟ ..
- يعنى فيه ؟ ..
- حرمتين على أبوهم .. وش فورة وجسم كرباج .. معايا
ولا هتفضحنى زى كل مرة ..
رد بركات فى حرارة ..
- وأنا ليا بركة غيرك .. هنتقابل فىن وإمتى ؟ ..
- ماشى ياراجل يا بركة .. فى القرية اللى فوق فى البيت إياه
.. وإيسط ياعم الحشيش والبيرة مجانا من غير كام ..
- لوى بركات رقبتة موجهها حديثه إلى فتحى فى سفور وفظاظة ..
- معانا ؟ ، ولا هتعملى فيها خضرة الشريفة زى عادتك ؟ ..
أجابه فتحى صاحبا فى ضيق ..
- الله يسود وشك .. متدخلنيش فى مشاوركم الصايعة دى
.. مليش فيها .. ثم إنى مشغول الليلا دى ..

بينما جالت بخلدى فكرة .. " محاولا مراوغة سليقة ألونيا لألهيه
عنى .. لم أرد أن أنحط تحت أنظار ذلك المرشد عديم الزمة " ..
فباغت الجميع أحدث فتحي مقتضبا فى جدية مفتعلة ..

- هنروح معاهم .. إحنا الليلادى معاكم .. يمكن نخلص
شوية من الحالة الزفت دى ..

نظرنى فتحي دهشا .. مستنكرا ردة فعلى ..

- إنت هتروح ؟! ..

لم أعيره إلتفاتا .. وتقدمت عدة خطوات للأمام ساهما .. " تراه
فتضحك .. بدا كالمخدور يهزهز رأسه .. ويردد بصوت خفيض
يوشك على الإختفاء "

- أيوة .. هنروح معاكم ..

هلل بركات كعادته على نحو مبتذل .. يقصدنى ..

- إلحقوا يارجالة .. مصطفى إنحرف .. مش هنعرف
نكلمه تانى ..

وعلى حين غرة .. واجه ألونيا ثلاثتنا .. يتقهقر بظهره للأمام
بخطو ثابت ..

- تمام ياشباب .. هسييكم دلوقتى .. عندى مصلحة ع الطاير .. روحوا ونتقابل فى القهوة فى المكان بتاعنا ..
فلحق به بركات يجذبه من ساعده ..
- كده .. خيانة عيني عينك ؟! .. إحنا ما إتفقناش على كده .. مع بعض لآخر المشوار ..
إنتزع ألونيا ذراعه بعنف .. متنصلا فى وضاعة ..
- لا ياروح أمك .. المصلحة دى تخصنى لوحدى ..
وجودكم هيبوظ الدنيا .. وبعدين متمشيش ورايا زى ضلى كده .. خطوة بخطوة زى العيال الصغيرة ..
أذعن بركات فى خنوع مقنع ..
- زى ما تشوف .. هنستاك فى القهوة لحد ما تخلص وتأبط ذراع ألونيا تارة أخرى فى حماقة وتغابى مصطنع ..
- طب ياالله نروح مشوارنا ..
فضاق ألونيا ذرعا .. وزجه بعنف متخففا .. مستهجننا مزاحة الثقيل ..
- غور من وشى .. متلرزقش فيا كده .. بطل نطاعة

بيد أن أَلْمُونيا لم يستطع الإفلات من قبضة بركات فأجل مسعاه
وسار في صحبتنا .. وظلا في سجالهما السمج طوال ممشاننا .. بينما
تعلقت عيناي فتحي بقسماتي المستعارة .. " وله الحق فموقفى
الأخير وقرارى غير المبرر .. حقا يدعو للدهش والإستغراب "
.. فقلما جمعنا بهؤلاء مسير أو تدير .. وذاك أن بركات وأَلْمُونيا
من الشخصيات الطفيلية المؤذية .. إبتلاهما الله بطلات مقية
تليق بأخلاقهم وخلقهم ..

ولا عجب فكلاهما يشبه القروود .. بركات يشبه تلك القروود
الصغيرة .. خفيفة الحركة سريعة الهروب .. " مذ أن تراك تبدأ
فورا فى المحاوره والمراوغه والإحتيال .. تلك المرائية اللاهية ..
الوصولية .. أينما وجدت الطعام واللهو وطنت .. ومضت
تتمسح وتتلزج .. مالا يملأ عينها الفارغة لا يملأ معدتها
البطيئة .. لذا فهى لا تشبع أبدا ..

بينما أَلْمُونيا .. فقد فاق كل النعوت الرذيلة والسمات المنفرة المقيئة
.. شخصية بغیضة ماکرة .. شديدة الدهاء .. فهو أشبه
بالحلايف العجيزة .. دميم الخلقة كرية السحنة .. لئيم كعجائز
اناث الذئاب .. لا يمسك لسانه عن أحد .. ولا يسلم أحدهم

من لدغاته الخائنة الغادرة .. " أحد التركيبات البشرية التى قد
توقفك حائرا .. كيف أذعنها نير الهوى كيف شاء .. وتقازفتها
الأسقام النفسية .. العدوانية منها تحديدا .. فباتت ممسوخة
مشوهة .. لا يؤمن شرها " ..

طفقنا مترجلين إلى أن ألفينا أحد " أوتوبيسات الأجرة " التى
ستنتهى بنا الى البلدة .. وما لبث ألمونيا أن إرتقى المركبة حتى
بوغتنا بصياحه الوضع .. وجلبته الفوضوية العبثية ..

فقد لمح إحداهن من اللاهيات .. " بنات الهوى وفتيات الليل " ..
كانت تجلس على الأريكة الخلفية للمركبة .. إنكب بجسده
الرخيص على جسدها الأرخص .. وإنحط يلتصق بها " شاغرا
نصفها الأيسر " .. بينما تلزج به بركات متطفلا .. وجلسنا أنا
وفتحى فى جوارهم على مقربة بذات الأريكة .. تحت أنظار
الركاب المستهجنة والمستاءة .. معظمهم من قاطنى البلدة ويعرفه
جيذا .. لذا لم يجرؤ أحدهم على ردع مسلكه البذئى .. أصابهم
الخرس الذى يطوى نفور وتأفف ..

مضت المركبة .. وثمة حديث هامس " لاهى " دائر بينه وبين
الفتاه التى كانت " بين الفينة والأخرى " تطلق ضحكة سافرة ..

إلا أنى فى غفلتى وإنشغالى مع حدىث فطحى اللوح لم أحتسب
لصعود سراح بعتة .. وبمحض الصدفة .. خلال الطرىق لترانى
على تلك الهىئة المزرىة .. فتتلاعب برأسها الظنون حول تورطى
فى تلك الصعبة المشبوهة .. " وما ظنك بشخص يلتصق بفتاة
لىل ذائع صيتها .. وتعرفها جىدا " ..

فما إن ركبت حتى انفجرت صائحة فى وجه السائق .. فتوقف
على جانب الطرىق ..
ونزلت غاضبة تستنكر فعلتى ..

لم أراها حىنها " وكأنك أعمى عىنى فلم ألم بحضورها ..
وصممت أذانى عن صياحها " ، كنت غارقا فى قىلتى مع فطحى
استأنفت المركبة سىرها .. ومال فطحى برأسه إلى " لجذب
ساعدى .. هامسا بأذنى " يستفزنى من مقعدى .. فهجعت
بصحبتة وجلسنا فى مقعدىن أمامىن .. وبادرنى قائلا ..

- إنت بتتكلم بجد .. هنروح معاهم ؟! ..

- أیوة ..

- أمرك عجىب ! .. من إمتى بتجمعنا بیهم مشاوىر ؟ ..

وبعدىن هو إحنا لىنا فى المشاوىر البایظة بتاعتهم دى ؟ ..

- بعدين هفهمك ..

ظل فتحى ينظرنى محمقا .. دهشا فاغر الفاه .. فإلى حينها لم

أجبه بإجابة صراحا ..

أطبق علينا صمت غرائبى ..

وساد الهدوء ساحتنا إلا من غنج يأتينا عبر الأثير من مذياع

المركبة ..

بينما مكث الأخران لاهيان مع فتاتهما اللعوب ..

"٤"

فى ظهيرة ذات اليوم .. إنتهى بى المسير أمام بيتى المتواضع بمنطقة التجارة " تراها إلى الغرب من الرياح الناصرى " .. كنت أقطن حد تخوم القرية الجديدة " قدر نزوحك بزهاء الكيلو متر من كفر داود القديمة " .. والملاح هنا شديدة الاختلاف فالبيوت مبنية من الطوب الجيرى ومسقوفة بأسقف خشبية .. وقلما أن تجد سقفا خرسانيا .. فمعظم القرية ذات طابع فقير يعيش على الكفاف " ولا ترى فى هذا غرابة فهذا حال جل قاطنيها " .. وهنا لا يهتم الأهالى بالتعليم قدر إهتمامهم بالعمل وجلب الرزق .. حتى لو تأتى هذا بأيدي صغارهم وسواعدهم العذراء " فالمشهد الأعم الذى تعتاده عيناك عند حافة الطريق العمومى ونواصى الشوارع المطلة عليه تجمعات الصغار جنبا إلى جنب مع الرجال والشباب النازحين فى الصباح الباكر للعمل فى مصانع المدينة أو المزارع المترامية فى كل إتجاه فى جوف البلدة أو تطوق أطرافها .. وأرجو ألا تبدى عجبا فى ذاك " ..

ورغم أن تلك البيئة كانت مناسبة نسبيا .. بعيدا عن بيوت العوائل المكتظة والضائقة بالأفواه والمتطلبات .. لإخراج جيل

جديد من المتعلمين يكسر عادات المجتمع القديم بالقرية العتيقة .. " ولا تتعجب أيضا أن تعلم أن معظم بلدان الجوار القريب والبعيد فعلتها رغم الفاقة والعود والتحديات الصعبة " .. إلا أن الأهالى هنا لم ينحون ذات النحو .. ألهتهم المعيشة ..

فداروا فى ساقية الأيام وإنحصرت طموحاتهم فى البحث عن لقمة العيش فقط .. بفيئة لحال أسوأ من مجتمع العائلة الكبيرة بالبيت الواحد ..

وقفت أمام الباب متململا .. أنظر الى أطراف الشارع الخاوى يمنية ويسرة .. أختنق بهذه البيئة الجافة المجافية .. باردة الحس .. دفعت الباب ضائقا .. وما ان ولجت حتى هب أخى الصغير " ذو الخمسة أعوام " مرتعيا بين دفتاي .. حملته وأمتعته لثمة حانية .. وأمسكت أنامله الصغيرة .. كنزة راحتي يصطحبني إلى الداخل ..

كان أبى ببهو المنزل الضيق يتوطن أسفل بقعة مشمسة .. " شيخ مسن أعيته الخطوب وهدته النوازل يهزمك أن تراه قعيد أسير مقعد متحرك " .. وما إن رآنى حتى مضى هو الآخر فى حديثه المعتاد .. بدوره .. يؤنبنى ويوبخنى ..

- كنت فين من إمبراح ؟ ..
- عند فتحي .. كنا بنخلص شوية شغل ..
- فتحي ؟! .. كل ليلة فتحي ! .. مفيش أبلد ولا أبرد من الحجاج الى بتتججج بيها .. شغل إيه ده الى بتقضوا فيه الليالى ؟! .. عمرى يعنى ما شوفتك بتصرف ع البيت حاجة .. ده أنا حتى عمرى ما لقيتك داخل علينا بكيس فاكهة ولا حتى كيس عيش .. ده إحنا عايشين مع العايشين بالعافية .. ولولا معاشى كنا لفينا نشحت من السكك أنا وأخوك .. أنا زهقت من كتر ما نصحتك .. وإنت وذن من طين وودن من عجين .. من فشل لفشل .. هتعمل فينا إيه تانى ؟ .. مش كفاية أملك الى ماتت بحسرتها عليك ؟ .. ولا أنا الى بقيت مشلول لا حول ولا قوة بسبب مصاييك وأفعالك .. مش مكفيك الى جريته علينا ؟! ..

وإبتدرت عيناه وإغرو رقت بالدموع .. إجهش بالبكاء .. بينما وقفت أنا صفر اليدين .. حائرا .. إلا أنى لم أستطع التماسك

ومغالبة فورتى وأنا أرى دموعه قد طفرت .. فإنطلقت صائحا
فى ضيق ..

- الله يسامحك .. كلامك ده هو الى بيعجزنى ويبسد الدنيا
فى وشى .. إنت سبب فشلى .. خلتنى أتعلق بالتعليم ..
أحلم أحلام كبيرة عليا .. وسيبتنى تايه وسط الطريق
مش لاقى الى يكمل معايا مشوارى .. ومصاريف الكلية
كسرت ضهرى ..

ياريتك علمتنى صنعة .. كنت هرضى وأحمد ربنا .. كنت
شتغل بيها .. دلوقتى بقيت عامل زى الى رقص على
السلم .. لا الى فوق شافوه ولا الى تحت سمعوه ..
كف أبى عن البكاء .. وتحرك صوبى بمقعده .. تلتحم عيناه
بعين ..

- يابنى .. الأرزاق بيد الله .. ياريتك كملت دراستك
وغمسناها بملح .. إنت الى مشيت ورا كلام زمايلك
الفاشلين .. متعرفش إن الخير مقطوع من طريق آخره ندم
.. بتشيلنى ذنبك ليه ؟ .. كان بإيدى إيه أعمله
ومعملتهوش ؟ .. روح يابنى وسيننا بهمنا .. يعنى كنت

هتحنن وتحنن فى حنرى .. ده إنت حتى عمرك ما فكرت
فى أخوك الصغىر .. هيعمل إيه بكرة ولا إيه الى مستنيه
؟ .. مين هيستحمله بعد أما أموت ؟ .. يابنى أيامى فى
دنيتكم الزايلة قليلة .. مش هعيش أكثر ما عشت ..
وأكثر حاجة مرعوب منها إن الدنيا تغدر بيه ..
رددت فى صلف وأنا أبذل هندامى ..

- أديك قولتها .. الأرزاق بيد الله .. لا بإيدى ولا بإيدك ..
تلفظ أبى غاضبا فى حسرة ..

- غور من وشى .. ربنا يتولانا ويعينك على حالك
خرجت نافرا .. ضائقا .. بينما وقف أخى على أعتاب الباب
يراقب ظلى وهو يخبو شيئا فشيئا إلى أن زال عن مرآه .

.....

وافت الساعة الثانية .. عندما ولجت إلى المقهى أسفل الكوبرى
.. صادفت أن قابلنى عامل المقهى يناظرنى إثر دخولى .. فطلبت
منه أن يجلب كويين من الشاى .. وإتجهت الى حيث كان يتظرنى
فتحنى وحيدا فى آخر بقعة بالمقهى .. جلست أتأوه ..
- حاسس بإرهاق شديد .. عضمى كله متكسر ..

- بسبب المشوار الزفت الى حشرتنا فيه إمبراح .. الى لا
كان على البال ولا النية
- ولا يهملك .. أهى ليلة وعدت ..
- وران علينا صمت رتيب .. إلى أن جلب لنا عامل المقهى
المشروب وغادر .. فإستهل فتحى الحديث قائلاً ..
- إنت مش ملاحظ إنك مقولتليش إيه الى حصل ؟ .. وإيه
المصايب الى سيبتوها وراكوا دى ؟ .. المركز عامل حالة
طوارئ تقلق .. وياترى إيدك إتلطخت بدم الناس الى
إتقتلت هناك دى ؟ ..
- تداركت فتحى مناهضا ..
- ممكن تهدى شوية .. ومتقعدشى ترمى الإتهامات كده
بمزاجك ..
- خلاص إحكيلى إيه الى حصل ..
- نزلت فوق راسى مصيبة معملتش ليها حساب .. بدعى
ربنا يخرجنى منها على خير والأمر تعدى بسلام ..
- أعمل إيه فيك بس .. ياترى وحلة إيه دى الى وحلت
رجليك فيها ؟ .. أنا مش حذرتك ؟ ..

- قولتلك إهدى وهقولك على اللى حصل ..

- قول ياسيدى وأنا سامعك ..

ومضيت أروى له ماحدث بشيى من الإسهاب الحذر ..

- كنا واقفين قدام البيت مباشرة .. بنحوّط مدخل المقبرة

الى كانت تحت رجلينا .. أنا والشيخ مرسى وصاحب

البيت وبقية الوسطا .. وكان العمال يشيلوا الردم عن

بلاطة باب المقبرة .. وحوالينا عربيات النقل وعريبتين

ملاكى كبيرة ..

بعد ما تتع العمال البلاطة الحجر .. إتكرنا عليها

ورفعناها بونش مخصوص .. لحد ما ظهرت قدامنا الفتحة

مضلمة قوى ..

بعدنا عنها وإستنينا شوية .. علشان محدش يشم الهوا الى

متعق من آلاف السنين ومليان جراثيم فى بطن المقبرة ..

شوية وقعد الشيخ مرسى يبخر حوالياها ويتمتم بطلاسم

غريبة ..

لحد ما إطمئن إن كل شيء تمام ..

وبعدين شاور بصبعه لواحد من العمال كان شايل كشف
منور نزل قدامنا على سلم من الحجر عشان ينور الضلمة
الى تحت .. ونزل وراه الشيخ مرسى يتمم ويمرجح فى
سبحته يمين وشمال ..

ولما وصلنا تحت إنكشف قدامنا كنز رهيب .. كانت
المقبرة لكاهن من كهنة الفراعنة .. كان واضح ده من
عصايته وأدواته الشخصية وحاجات تانية غريبة إندفنت
معا ..

" مكحلته ومرآته ، ومسبحة من العقيق الخالص ،
ومحبرته وريشته الخاصة ، ونطاق وسطه وإزاره وبعض
أرديته المنمقة والمنقوشة .. التى ظلت على حالتها رغم
تعاقب الدهور عليها ، وسوار بمدلاة ذهبية صريحة
وفردتى قرط ذهبى وحليقات وخواتم
ومجامر الطيب النحاسية ولفائف ورق البردى ذات
الرائحة المعتقة النافذة ، وعدة مشاعل معدنية خاصة ،
والكثير من تائم الأحجار الكريمة وبعض لزوميات
الكهنة والأحجيات ..

وأكثر من أنموذج مصغر لبعض ألهتهم وثمة بوق هلالى ،
والأوانى والأباريق وعبوات الخزف الملائى بالعملات
الذهبية ، والسحارات والصناديق الخشبية المطعمة
بالأحجار والذهب والفضة "

وبأمر من الشيخ قعد واحد من رجالته يصور بتليفونه
المحمول كل قطعة وتمثال لوحده فى مكانه الأصلى ..
وقعد الشيخ مرسى يرمى سبحته على راس كل تمثال
وقدامه ورقة نتيجة بتاريخ اليوم .. عشان تبان السبحة
وورقة النتيجة فى التصوير ..

وأنا والرجالة ماشين ورا الشيخ نتفرج على الكنوز ..
كنا مبهورين بعظمة الى شايفينه ..
وفى الآخر رفع العمال التماثيل والقطع الخفيفة الى قدروا
يشيلوها بالإيد ..

ووقفت أنا والرجالة نتابع كل الى بيحصل وكل واحد
مستنى نصيبه

حطوا التماثيل جوة صناديق من الخشب متعبية بقش الرز
وإتحملت على عربيات نقل عليها علامة زى علامات
شركات البترول العالمية المعروفة ..

وحطوا فوقها صناديق تانية .. كان عددها قد صناديق
التماثيل يحى مرتين أو ثلاثة .. كان جواها زيت عربيات
وشحم بتاع مكن .. كان ليها ريحة جامدة فواحة بهدف
التمويه ، يقولوا إن "الكلاب البوليسية " بتلخبط بين
روايح الممنوعات زى السلاح والمخدرات والأثار
وروايح المواد البترولية النفاذة ، وفى الوقت نفسه كان فيه
حديث داير بين ثلاثة " الشيخ وصاحب البيت والمشتري
وكان راجل شكلة غنى قوى " .. وبعدين قرب واحد
من رجالة المشتري وقاله إن الصناديق كلها إتحملت ..
فأمره إنه يجيب الشنط من عربيته الملاكى ..

جاب الراجل تلت شنط كبيرة من عربية " جيب سودا "
وحطهم قدام الى قاعدين .. وقعد المشتري يوزعهم
لتلت أقسام ..

حط شنطة قدام صاحب البيت وكانت نصيبه .. وشنطة
تانية من نصيب الشيخ ، والتالته كانت نصيب الوسطا ..
فتح صاحب البيت والشيخ مرسى شنطهم .. وكانت
مليانة ومرصوصة برزم العملة الصعبة .. أما الشنطة
التالته فأشرف علي توزيعها الشيخ مرسى بنفسه
بالتساوى بينا " الوسطا " كل واحد بنصيبه ..

وبعد شوية ركبت مع المشتري ورجالته فى العربية "
الجيب السودا " كدليل طريق لحد ما يوصلوا لأول
الطريق الإقليمى ..

كانت عربيات النقل الى شايلة الأثار سبقتنا بحوالى عشر
دقايق .. وركب بقية الوسطا فى عربية ملاكى تانية "
هيونداى " .. ومشىوا ورانا .. كان بين العربيتين مسافة
صغيرة .. أما الشيخ مرسى قرر إنه يمشى بعربيته لوحده
بعدينا إلا إنه فضل عند البيت وممشيش ورانا .. مش
عارف ليه ؟ ..

المهم الى حصل بعد كده مكانش حد يتوقعه .. فى أثناء ما
كنا ماشين بالعربيات عند مدق من المدقات المطلة على

منطقة أبو بيللو .. وكان بين العربيتين " الجيب
والهيونداى " حوالى عشرة متر .. وقفت عربية الهيونداى
الى فيها الوسطا فجأة وقطعت طريقنا .. ونزل السواق
منها شايل سلاح ألى كان خافيه جنب كرسى السواق
وفتح النار على زمائله بعشوائية لحد ما قتلهم كلهم ..
مسابش واحد منهم عايش ..

حاول سواق العربية الى كنت فيها أنا والمشتري ورجالته
إنه يفادى منطقة ضرب النار .. فلبس بعنف فى صخرة
كبيرة وإنقلبت العربية بينا على جنبها الشمال بزاوية مع
عربية الوسطا والطريق ..

وجري السواق الخاين ناحيتنا بسلاحه وفتح النار علينا
بغباء مطرح ماتروح تروح .. ساعتها كنت إستخبيت فى
أرضية الكرسى الى ورا " مقولكش عن الرعب الى دب
فى قلبى فجأة لما سمعت صوت ضرب النار العالى " ..
خدت حذرى .. كنت عارف من قبل كده إنه عادة
بتحصل خيانة للعهد فى العمليات المشبوهة الى زى دى
ولحظى الحلو إترمى فوق ضهرى واحد من رجالة

المشترى بعد ما إتقلبت العربية على طول .. وخذ رصاصة
فى صدره ومات فى الحال .. كان بالنسبة لى زى الدرع
واقى .. أما أنا ففضلت ساكت مابتحركش حاضن
شنطتى فى هدوء وكإنى ميت ..

فى الوقت ده طل واحد من رجالة المشتري براسه من
العربية وفضل يزحف على الرمل شايل مسدسه ..
وضغط على الزناد بصعوبة بيحاوليل يقاوم الألم الشديد
والنار اللى بتاكل فى جوفه .. ضرب طلقة خرمت راس
السواق الخاين ..

فضلت على حالتى شوية .. مستموت .. ولما حسيت إن
الجو هدى .. مش سامع لا صوت ولا حس حد فيهم ..
رفعت الجثة المرمية فوق ضهرى ورميتها على جنب ..
بصيت لقيت نفسى غرقان فى بحر من الدم .. فضل
أزحف لحد ما خرجت من العربية المقلوبة .. وبعيد عنك
لقيت الحتة كلها ناس مقتولة .. محدش نجى من الحرب
دى .. ورغم كده نجيت أنا من غير خدش واحد ..

فضلت أجرى أجرى مرعوب .. أجرى وأقع .. وأقوم
وأقع وأسف الرمل .. لحد ما بعدت تماما عن منطقة
الخطر العائمة بالحث والدم .. شایل شنتى على كتفى
.. وأهو أنا قدامك أهو .. حى يرزق بلطف الله ..

قال فتحى وقد إنتدى جبينه عرقا ..

- وده معقول ؟! .. أنا مش مصدق اللى بسمعه .. إنت
عرف إن ربنا نجاك من معركة كنت ميت فيها مفيش
كلام ؟!

- الحمد لله .. ربنا سترها معايا ..

فأرجأ فتحى يحدق النظر فى وجهى لبرهة ..

ثم قال ..

- إنت فاهم اللى بتقوله ولا بتتغابى ؟ ..

- فيه إيه ؟ ..

فصرخ فى وجهى بغتة .. ضجرا يحتقن غيظا ..

- ودى مصيبة إيه دى اللى وقعتنا فى حبالها دى .. يابيه إنت

غرقنا لودانا فى كل اللى حصل .. ووحلتنا مع الحكومة ..

- مش هتفلت من إيديهم عمرك .. هتسجن هتسجن ..
وهتجر رجلى معاك ..
فناهضته قبل أن يسفر سترى ..
- يخرب بيتك وطى صوتك .. هتودينا فى داهية .. مفيش
غيرنا يعرف الموضوع ده ..
 - عايز يفهمنى إن محدش شافك خالص ؟ ..
 - أنا عارف إنك غبى وهتعبنى معاك .. قلت لك هربت
بمجرد ما وقف ضرب النار .. وبعدين كنا فى مكان
مهجور مفيهوش صريخ ابن يومين .. يبقى مين
هيشوفنى هناك ياناصح ؟ ..
 - طب والشيخ مرسى ؟ ..
 - معرفش .. ما سمعتش أى خبر عنه لحد دلوقتى
 - أن خايف يكون هو الدليل اللى هيجر رجلك للجريمة
 - ما أظنش .. هو متورط زينا .. وبعدين لو كان تخمينك فى
محله كانت الدنيا هتدور بسرعة ويتفضح سرنا .. كان
زمانهم ظبطونا متلبسين بالجريمة .. إيه الحكمة من

- سكاتهم لحد ما الحكاية تبقى على كل لسان ؟ .. فكر
شوية هتلاقى كلامى صحيح ..
فإعتدل فتحى فى جلسته مناظرا لى ..
- طب قولى نصيبك قد إيه من ورا العملية دى ؟ ..
فقلت متهدجا بالكلمات .. أتبطرق فى زهو ..
- نص مليون دولار ..
- كاد الرقم أن يضرب رأسه بالخبال .. حملق فى وجهى وقد
تحجرت مقلته فاغرا فاه .. بينما أردفت مقالتي ..
- وديتهم عند سماح لحد ما تهدى نار الحكاية ..
فإحتاج فتحى فى وجهى فجأة ..
- إيه اللى إنت عملته ده ؟! .. إنت على طول أهبل وعبيط
كده .. مش خايف الفلوس تزىغ فى عنيتها وتطمع ؟ ..
- لا .. إطمن .. سماح متعملهاش ..
- ثم سرحت لبرهة وقد إعتملت الريبة بصدرى .. مرددا ..
- ما أفكرش .. تفكر تقدر ؟! .. عندها الشجاعة يعنى
تعملها ؟! ..

- وهو فيه غير كده .. حرص ولا تخون يا صاحبي .. دول
حریم .. " وإنت الأدری .. حبائل الشيطان " .. وممكن
يلعب بدماعها .. الخلاصة ودى فلوسك البنك ..
أردفته مستهجننا ..

- بنك ؟! .. إنت بتهذر ؟! .. أكيد بتهذر ! .. البنك يافالح
هيخلينى محط أنظار القريب والبعيد .. من أين لك هذا
وخذ عندك بقى وجع قلب ميتتهش .. لا طبعاً مينفعش
.. هخليهم مكانهم لحد أما ألاقى لهم متوى .. هى أصلاً
متعرفش الشنطة فيها إيه ..
ضحك فتحى ضحكة سخرية ..

- ياسلام ! .. دى زمانها فتحتها ومتعت عنيا .. وبدأت
تصرف يمين وشمال ..

- نيتك ديا سوء .. إنت هتخوفنى ليه ؟ ..
- مفيش مانع بينك وبين فلوسك .. روحلها وهتأكد
بنفسك ..

- سيبك من ده كله .. مش ده المهم دلوقتى ..

- آمال إيه المهم يافالح ؟ ..

- أنا إكتشفت سر أثناء وجودى معاهم جوه فى المقبرة ..
سر خطير جدا ..

- سر ؟! .. سر إيه ده ؟ ..

- وإحنا بنلف جوه المقبرة .. الشيخ مرسى قال إن مقابر
الكهنة فيها كنوز أكثر من اللى لقيناها .. ولا بد إن فيه
فراغ تانى فيه تماثيل قد دى يحى ميت مرة .. وكم إن لقينا
أكثر من دليل جوه مقبرة الكاهن على مقبرة تانية قريبة ..
ويمكن يكون جنب من جناب المقبرة اللى إكتشفناها جدار
فيها

نظرنى فتحى مستنكرا ومستوضحا فى آن ..

- ودى نوصلها إزاي ؟ .. بتفكر فى إيه بالظبط ؟ ..

- هقولك وركز معايا .. وأنا تحت فى القبر .. إتعترت رجلى
فى بروز حجرى وإحنا نازلين على السلم .. كان البروز
شكله ملفت شبه باب المقبرة بالظبط .. عبارة عن كتلة
حجرية مربعة .. أنا متأكد إن هو ده باب المقبرة الثانية
المطلوبة ..

وأخرجت هاتفى المحمول .. وجعلت أريه تلك اللقطات التى
تم تصويرها من داخل المقبرة .. ويتضح بها جليا تلك العثرة
التى يظن أنها مدخلا آخر ..
وواجهته قائلا ..

- إنت مش شايف إن الحجر ده مش ماشى مع السلم ..
قصدى مش شكل التدرج بتاع درجات السلم .. ده حتى
بارز عنها وواحد مساحة زيادة بشكل ملفت .. " متهيألى
الفراعة ميوقعوش فى غلطة زى دى وهما المعروف عنهم
الدقة المتناهية " .. وممكن يكون اللى بقولك عليه صح ..
مدخل لمقبرة ثانية ..

- مش عارف .. متهيألى كده برضه ..
- لأ .. ده باين زى عين الشمس .. ما تفتح عينك كويس ..
أهو باين قدامك أهو ..
- طب ياعم براحة شويه .. قولى ، هو فيه حد غيرك شافه ؟
- يا صاحبى المجزرة مخليتش حد .. ولو كان فيه حد شافه
فهو دلوقتى ميت .. لكن ..
- لكن إيه ؟ ..

- لكن مفيش غير الشيخ هو الى لسة عايش ..
- ومفيش خوف أصلا غير من الشيخ ده .. متعرفش هو شاف الباب ده ولا لأ .. إفتكر ..
- فى الحقيقة أنا مش متأكد .. لكن بخمن إنه لازم يكون على علم بيه .. ماهو مش معقولة أنا هاخذ بالى منه وهو لأ .. إنما أكثر حاجة مخوفانى إنه مجابش سيرته خالص .. معنى كده إن فى نيته حاجة .. وخصوصا والى بياكد كلامى ده .. إنه ممشيش معنا وفضل مع صاحب البيت
- طب وناوى على إيه دلوقتى ؟ ..
- لسه مارسيتش على قرار .. أنا هــــ ..
- وقبل أن أتم جملتى لمحت بركات وألونيا قادمان من بعيد عند الباب الأمامى للمقهى .. فقلت فى خلصة ..
- سييك من الحكاية دى دلوقتى .. البغلين جاينين أهم .. أنا همشى .. مش طابق أسمع رغيهم الفاضى ..
- ودلكت خفية من الباب الخلفى .. بينما تقدم بركات وألونيا وإنكبا على المقاعد .. وأعينهما صوب ذات الجهة التى غادرت منها .. وقال ألونيا مستوضحا ومتطفلا كعادته ..

- صاحبك هرب ليه كده زى الحرامية ؟ ..

أجابه فتحى ليسكت هو اجسه ..

- وراه شغل ..

أمتع ألمانيا عيناه تحديقا فى ذات الاتجاه .. ينظرنى فى ريبة مرددا

فى دهش وقد رتعت الظنون برأسه ..

- وراه شغل ؟! .. أه ..

فى جوف البلدة القديمة .. كنت أترجل ماشيا أغوص فى حشاها
المتشابك .. إلى أن دلفت من ناصية الحارة التى تتوطن بها سماح
.. كانت غاصة بالأطفال اللاهين فى جنباتها وعمقها وصوب
كل اتجاه .. وثمة إبنيتها بينهم .. ما إن رأتنى الطفلة حتى إنفلتت
من قياد جموعهم وإرتمت بين ذراعى المبسوطتان .. " تذكرنى
بأخى الصغير ونحوه لذات الفعل " .. حملتها فى حنو مقبلا
ومداعبا .. ونفحتها قطعة فضية أحدثها ..

- أملك فىن ؟ ..

- جوه ..

أنزلتها برفق وتوجهت رأسا شطر الباب بينما همجت الطفلة
وإندست فى العجيج اللاهى .. قبل عدة طرقات خفيضة ..
كانت سماح ماثلة أمامى بوجه عبوس مكفهر .. وما لبثت أن
رأتنى حتى تركتنى خاليا على عتبات الباب .. وإندوت إلى
جوف الدار ..

ولجت خلفها أناديبها .. ولكن دون مجيب .. شعرت أنه لا ريب
أن الخطب جلل .. طالعتنى أمها بصالة البيت .. " عجوز كفيفة

هرمة " .. كانت تفترش حصير متواضعة " من أعواد السمار " ..
عرفتني من صوتي .. رحبت بها لا أحفل بوجودها ..

- إزيك يا خالتي ؟ ..

- بخير يابني .. مصطفى ؟ ..

- أيوة يا خالتي ..

- عامل إيه يابني ؟ .. تعالى هنا أقعد جنبى ..

لكنى تركتها وأكملت مسيرى اختلاسا .. أتبع سماح الى غرفة
نومها .. لأستطلع الأمر .. كانت تجلس على مهادها مبهوتة
مفعمة بالغضب .. تزفر سخطا وضيقا .. جلست فى جوارها
دهش من سوء إستقبالها ..

- إيه يابنتى .. مالك ؟ ..

- إنت بتمسخر بيا ؟ .. إيه الى رجعت لعادتك القديمة
تانى ؟ .. عادتك الوسخة ..

- احفظى أدبك ونقى كلامك .. عادة إيه أنا مش فاهم
حاجة ؟ ..

- مين دى الى كانت راكبة معاك إنت وفتحي من يومين ؟
.. وأنا مش حذرتك متمشيش مع الى إسمه ألونيا ده ؟

وجالت ذاكرتها " سريعا كالبرق " كم كان ذاك الوضع ..
صديقا لزوجها المتوفى .. وأنه كان علة تلك الزيجة المشئومة ..
وإرتسم أمام ناظريها شبحه وهو يقدمه لأبيها على أنه زوجها
صالحا .. وبمرور الأيام إتضح تحايله على الحقيقة وإنجلي عكس
ما إدعى .. فدفعت هى الثمن باهظا وعانت أشد معاناة جراء
ذاك الارتباط المقيت .. إلى أن رحمها الله بموته ..

قطعت سرحتها القصيرة .. أجيب سؤاها ..

- أقسم بالله أنا ماليش أى علاقة بيها .. دى واحدة شمال
من اللى يعرفهم ألمونيا .. قبلناها بالصدفة .. ثم تعالى هنا
إنتى عرفتى إزاي بالحكاية دى ؟ ..

- شوفتكو بعينى فى العربية ..

" هنا فطنت أننا كنا تحت أعينها فى ذات السيارة التى جمعتنا
بافتاه " .. فتداركتها مناهضا ..

- سيبك من التخاريف دى .. فىن الشنطة ؟ ..

- شنطة إيه .. ده لما تشوف حلمة ودنك .. إنت وقعت فى
إيدى .. وبإيدى هظبطك .. ولعلمك أنا شوفت كل اللى
فيها ..

- كده برضه .. بالسهوة دى أهون عليكى .. ده كله ليكى
يا عبيطة ..
- ماتسرحش بيا .. مش هتقدر تلعب بقلبى تانى .. أنا
فاض كيلى منك ومن عمالك ..
- سيبك بقا من الكلام ده كله .. لازم تحبى الشنطة فى مكان
أمان .. بعيد عن الأنظار ..
- وإيه اللى بإيدى أعمله ؟ ..
- حطيتها فى متوى متدارى .. حتى لو هتدفنيها تحت التراب
.. المهم إتصرف فى إنتى هتغلبى ..
- ولسه .. إنت شوفت حاجة .. أنا مش قولتلك تبعد عن
الطريق ده ؟ ورينى بقا ياشاطر هتواجه مصايبه إزاي ؟ ..
- معلى خليكى واقفة جانبى ..
- ماشى يا آخر قدرى .. أما نشوف آخرتها ..
- آخرتها خير إن شاء الله .. وأحب أبشرك فيه رزق تانى
واسع وفايض داخلى عليه ..

- تانى ؟! .. هتلعب بالنار تانى يامصطفى .. إنت مش مكفيك اللى حصل عشان تدخلنا فى مخاطرة تانية .. أنا إحتار دليلي معاك ونفد صبرى منك ..

- إهدى شوية بس .. مش تعرفى هى إيه الأول .. ولا بتولولى مقدما ..

- قول يا عندليب .. عارفة أخرتها هزورك بعيش وحلاوة .. ده إن جرتش رجلى معاك ..

- تفى من بقك يا شيخه .. إسمعى بس اللى هقولهولك وبعدين أحكمى ..

ورحت أقص عليها ما حدث .. وأطلععتها على أمر باب المقبرة الإضافية .. فإنديهشت كثيرا مما سمعت .. إلا أنها لم تبد حماسا لما أرنو إليه .. فتغاضيت عن ردة فعلها الفاترة وأكملت حديثى ..

- بس أكثر حاجة مخوفانى إن الشيخ مرسى مضيعش وقت ويسعى لفتح الباب الإضافى .. ده إن مكانش فعلا إتفق مع صاحب البيت إنهم يفتحوه ..

- خايفة عليك يامصطفى من أخرة الحكاية دى .. واللى هتجره عليك .. الناس دى مبتهزرش ..

- إجمدى .. ربنا مش هيضيعنا إن شاء الله .. المهم تاخدى

بالك من الشنطة اللى معاكى ..

فجمحت سماح فى دلال مصطنع .. تحاول إستجداء مشاعرى ..

- شنطة ؟! .. إنت خايف على فلوسك أكثر منى .. بوريه

منك !..

فأمسكت بيديها تناظر عيناي عينيها .. أهمس بنظرات مخدورة ..

- وأنا عندى أغلى منك أخاف عليه .. يا حبيبتي إنتى مش

عارفة إنك إنتى اللى مقويانى ومديانى الشجاعة ..

ووقفك جنبى هى اللى مخليانى صابر على الدنيا ومرارها

.. بعد ده كله تقوليل أخاف على حاجة غيرك .. ده أنا

يبقى معنديش دم ومستهلش النفس اللى بتنفسه ..

نظرتنى وقد ذابت أسارى فى بحور مرآها .. تقول فى ترح

وشجن ..

- أقسم بالله من ساعة ما عزلتوا من جنبنا والبلد بقت رخمة

وملهاش معنى .. نفسى فى يوم من أيام زمان لما كنت

بصحى أشوفك قبل ما أشوف الشمس .. كانت الدنيا

كلها بتضحكى وبتنور فى عينى .. وبتنور حياتى كلها ..

ورغم إني إتجوزت بعدها بس عمرك ما غبت عني ..
كنت دياما في خيالي .. شايفاك في جوزي ومش شايفاه ..
ولا حساه .. كنت حاسة بس بحنانك وحبك .. بيحجروا
في دمي وف قلبي .. كان كلامك دياما بيهمس في ودني ..
وأقول لروحي ياريتك إنت اللي كنت جوزي ..
ودلوقتي بسأل نفسي ..

إيه حجه ؟ .. مستني إيه ؟ .. جوزي ومات .. لإمتي
هنفضل بعاد كده ؟ ..

فإنفرجت ملاحى دهشة ..

- بعاد إيه اللي بتتكلمي عليه .. ما كل يوم بشوفك
وبتشوفيني ..

فأطرقت في آسي .. ثم قالت ..

- مش كفاية .. لما كنتم جنبنا مكنتش خايفة .. كنت عارفة
إنه لو حصل حاجة .. أول إيد هتلمسني هي إيدك ..
وأول صورة هشوفها صورتك .. إنها دلوقتي أستحمل
إزاي حد غريب يلمسني .. وخصوصا في ظروف دي ..
الناس مابتطلش كلام ..

نظرت إليها مبتسما ..

- مكنتش عارف إنى غالى عندك كدة ..

فقطبت حاجبيها وإبتسمت مبهوتة ..

- وأهو إنت " كتر خيرك " بتجازينى أحسن جزاء ..

سايبنى زى البيت الوقف .. زى القارب اللى ملوش

صحاب .. بصراحة عداك العيب ..

فأمسكت يديها فى حنو ..

- يابنتى إفهمى ..

نزعت يديها .. وأدارت لى ظهرها تقول متململة ..

- مائقوليش يابنتى تانى .. كرهت الكلمة دى .. ماها

حبيبتى ؟ .. ثقيلة على لسانك ؟ ..

فنظرت إليها فى دهشة ..

- أنا مش عارف جبتي الجراءة دى منين ؟ ..

لوت عنقها .. ترمقنى بلحاظ عينها فى دلال ..

- وجودك هو اللى مجرأنى .. ولا دى كمان مستخسرها فى ..

رست يدى على كتفها .. أحاول أن أكشف وجهها الخافى فى

الجهة الأخرى .. قلت مازحا وملاطفا ..

- قد كده إنتى واثقة فىا .. ياموزتى ؟ ..
- فتلقت مزحتى بمزاج سى .. إستدارت تحدثنى فى استياء
- موزتك ؟ ! .. إنت مش هتبطل مكايده فىا ؟ ..
- إنتى زعلتى ؟ .. أنا بهزر ..
- إنت عارف إنى بكره الكلام ده ..
- وسكتت لبرهة ثم ثارت دون داع ..
- نفسى تقولى إنت شايفنى إيه بالظبط ؟ .. بتجيل كل ليلة
- ليه ؟ .. بتحبنى زى مابحبك ؟ .. ولا أنا بالنسبة لك
- واحدة بتسلى بيها وخلاص ؟ ..
- إنفلت مبتعدا عن ناظرها .. منتصبا على بعد خطوتين محتجا ..
- الله يسامحك .. بقا أنا مستحمل المزار ده كله .. وبخاطر
- بحياتى عشان أكون جدير بيكى .. وإنتى لسة مش واثقة
- فىا ؟ ! .. نفسى تقدرى وتفهمى أنا بعمل إيه عشان
- خاطرك ..
- رمقت شبحى الواقف .. تحملق فى إستنكار ..
- أفهم إيه ؟ ..

فقبضت ثائري وند صدرى زفيرا قصيرا هادئا .. ثم ربضت إلى
جوارها .. أتلمس يدها وأستجدى تفهمها ..

- تفهمى إنك إنتى المستقبل اللى ضيعت زهرة شبابى
علشان أحققه .. كل الناس تعرف إنى أجلات دراستى
علشان مصاريف الكلية .. لكن الحقيقة مش كدة ..
الحقيقة إنى مكنتش قادر أمسك قلم ولا كتاب وأنا
عارف إنك فى حضن غيرى .. عشت مستنى الفرصة
علشان أردك ليا تانى .. هتصدقى لو قولتلك إنى كنت
بطير من الفرحة لما كنت بعرف إنك سيبتى بيت جوزك
غضبانة .. كنت بحس إن الميعاد اللى هنتجمع فيه تحت
سقف واحد قرب .. لكن من غير فائدة .. كل ما أبنى
أمل كان يتهد فوق راسى ..

مالت برأسها تحدق فى وجهى المطرق ..

- ودلوقتى .. إيه اللى منعك ؟ .. الفرصة جاتلك سهلة
وتحت رجلك ؟ .. مستنى إيه ؟ ! .. مستنى لما يخلص
عمرنا ونبقى مش قادرين لا نسمع ولا نشوف بعض ..
يامصطفى العمر بيعدى .. وأنا متبهدة من الوحدة شوية

ومن كلام الناس شوية ومن رخامة صيع البلد شوية ..
نفسى يكون لى راجل يحمينى ويحمى بنتى .. يا حبيبى
عايزك راجلى .. ويكون لى منك عيل .. أفهمك إزاي
بس؟ ..

رفعت هامتى .. مقتربا منها ..

- بالله عليكى إصبرى شوية .. خلاص قربنا .. المقبرة الثانية
دى هيجينا من وراها الخير الكثير .. هيكفينا ويفيض ..
هيعيشنا بكرامة من غير ما نحتاج لحد ..
انكملت أساريها فى قنوط ..

- الله يسامحك .. ده اللى معانا يعيشنا ملوك لحد أما نموت
.. أنا اللى عملت فى نفسى كدة .. سكت لحد ما شوفتنى
لعبة وحليت فى عنيك .. ولسة مشبعتش ..

ثم تذرمت وانتصبت واقفة .. وقد حاق بها ضيقا وضجرا
- أنا خارجة قبل أمى ما تلاحظ غيابنا .. أنا مش ناقصة
فضايح ..

وتركتنى خالى الوفاض .. جالسا على مهادها .. مطأطأ الرأس ..
مطرقا أرمق الأرض مريجا بالحيرة والقنوط ..

.....

عدت إلى منزلى ليلاً " زهاء الحادية عشر مساءً " .. كان فتحى قد رافقنى الطريق إلى أن شارفنا الساحة أمام البيت لما قد رآه فى مسحتى من ترح وأسى .. سار معى يحاول التخفيف عنى .. إلا أنه أبى الدخول وأثر العودة إلى بيته متحججاً بأن الوقت قد تأخر .. بيد أنه فى حقيقة الأمر كان يهاب مواجهة أبى لما يعلمه من كنة موقفه المتعسف تجاهه .. فودعته ووقفت أراقبه حتى غادر ناصية الشارع ..

فتحت الباب فى هدوء .. " كنت غير مفيق وفى حل من ذات المواجهة " .. كان الصمت والخمود يسودان البيت .. تحركت متخففاً بخطوات رهيقة .. لأجد أبى نائماً على مقعده المتحرك بصالة البيت .. مطبقاً ذراعيه حول جسد أخى الصغير النائم بأحضانة ..

أثار المشهد مشاعرى .. وتهزله قلبى .. وشعرت حراكاً مؤلماً وتأنياً موجعاً يعتمل فى صدرى .. فتقدمت ممسكاً بساعد أخى محاولاً إفلات قبضة أبى عليه برفق .. وما إن أحس أبى الخواء بين دفتيه وحركة جسم أخى وأنا أحمله .. حتى إستفاق فزعا

مذعورا ممسكا بذراعه .. فإنحنيت برأسى أقبل هامته .. فرفع
راحته اليمنى وإستشعرت دفئها وهو يربت على وجتى بنعومة
حملت أخى بهدوء إلى غرفة النوم .. وأرقدته فى مهاده ودثرته
بغطاءه ثم لثمت وجنته فى حنو وحيّة .. ثم خرجت لأبى أقوده
إلى ذات الغرفة .. تساند بين ذراعى وإستقر مستلقيا بجوار أخى
.. جررت مقعدا وجلست قبالة وجهه الشاحب المتهدل ..
أحدثه بصوت هامس خفيض النبرة ..

- ساحنى يابا على الى قولته الصبح .. الأيام دى أنا تعبان
ومتلخبط قوى .. وماعدتش قادر أسيطر على نفسى ..
يارب تفهمنى وتعذرنى ..

- أنا مش زعلان منك .. أنا خايف الدنيا تغدربيك .. يابنى
عضمك لسة طرى مش هتستحمل .. عايزك تفوق بعد
فوات الألوان .. والدنيا مش هتستنى عليا كثير .. خايف
أموت وإنّ لسة على حالك ..

- هانت يابا .. مبقاش إلا القليل .. قريب هنرتاح كلنا بعد
سنين الفقر والعوزة .. كل الى عايزة منك تبقى فى
ضهرى وتساندننى .. وتفتكرنى فى دعواتك ..

- ربنا ييسر لك أمرك ويسهلك طريقك .. خد بالك يا بنى ..
ماعدش لينا غيرك بعد ربنا .. متوجعنيش فيك .. قلبى
داب من الألم والحسرة ..

- ربنا ما يوجعلك قلب .. إطمن يابا .. أنا واخد بالى من
كل خطوة بخطيها .. كل اللى بعمله عشان راحتك ..
عشان أعوضك سنين الشقى والعذاب .. وأضمن
لأخويا مستقبل يكفيه حوجة الدنيا وغدرها ..
- الضامن هو ربنا يا بنى .. قادر يساعدك ويحقق لك اللى
بتتمناه ..

رفعت يده وقبلتها ثم ودعته لينام .. وخرجت إلى الصلاة
وإنطرحت على إحدى الأرائك .. وما هى إلا دقائق زهيدة
أمضيتهما أحرق فى السقف حتى غصت فى نوم عميق منهوكا
مرهقا ..

"٦"

كان بركات وفتحى وألونيا ماكثين بالمقهى .. وثمة حديث دائر
حولى .. ويبدو على قسَمات فتحى علامات الإحتجاج والتذمر ..
إذ سمع ألونيا يقول ..

- ملوش فى الحريم ياعم .. وشه يتقمر عليه العيش ..
مكشر على طول وكلامه ناشف .. بالبلدى كده
مايعرفش يزوق الكلام ..

فإنفجر فتحى محتدا .. عندما وجدهم قد إستفاضوا فى وصمى
ورشقى ..

- وهو شغلِك ليه كده ؟ .. ياريت تخليك فى حالك ..
وتسيب مصطفى فى حاله ..

فى ذاك الحين .. تقدم شخص ما فى طور العشرين من ألونيا ..
فباعته الثانى بدوره وإنترعه من الحضور قبل حتى أن يتم تحيته ..
"مبتعدا" .. وما إن توطنا على مسافة من مجلسهم .. قال ألونيا
بصوت خافت مختلس ..

- إيه الأخبار ؟ .. جبت الأمانة ..

رد الرجل مبشرا ..

- أيوة جبتها .. مخبئها فى الجاكتة .. تشوفها ؟ ..
- فقبض ألمانى على يده بقوة .. قائلا ..
- إنت هتسيح .. خليفها فى مكانها ..
- تلفت الرجل حوله .. وإتجه بناظره يستوثق من المحط الذى كان
- يجلس فيه ألمانى .. قائلا ..
- أمان فى الرجل اللى هيشترىها ؟ ..
- أماء ألمانى برأسه ولحاظ عينه مشيرا صوب موقف السيارات ..
- فى مدينة السادات .. هنروح له دلوقتى ..
- أصاب الرجل ذعرا مدهوشا ..
- السادات ؟! ودى هنروحها إزاي بالمصيبة دى ؟!
- أمسك ألمانى بساعده "يجذبه" ثم حرره متقدما دون إكتراث ..
- ملكش دعوة أنا هتصرف .. تعالى بس ورايا .. على
- مسئوليتى ..
- ثم سار إلى حيث تنتشر السيارات الهاجعة صوب مدينة السادات
- .. يتبعه الرجل تتناقل قدماه .. وبعيدا يرمقهما بركات .. يتأمل
- ذاك الذى رحل بغتة دون سابق إنذار أو إبداء أية أعذار أو إذن ..

.....

الكثير من العساكر المسلحين كانوا قد إنتشروا بساحة منطقة
الكمين .. تلك النقطة الشاطرة لطريق مدينة السادات الاقليمى
.. وقد دنا أحد أمناء الشرطة ليستوقف السيارة التى يستقلها
ألمونيا ورفيقه ..

مر أمين الشرطة على نوافذ السيارة تباعا متحريرا الراكبين .. إلى
أن توقف ناظره بغتة عند ألمونيا ومحمد .. فأمرهما بإشهار
بطاقات تحقيق الشخصية .. وطفق يتفحص وجهيهما ثم
إستدعاهما للنزول قسرا " فلو رأيتهما لإرتبت فى أمريهما ..
وطريقة اطلاق نظراتهما " ..

.....

إقتيد ألمونيا ورفيقه وسبعة شباب آخرين إلى مركز شرطة
السادات .. وفى غرفة رئيس المباحث .. إنتصبت جماعتهم وقوف
بين يدى الضابط ممدوح .. بينما كان الأخير على مكتبه يكبس زر
الإستدعاء " أمامه " ..

ماهى إلا هنيهة .. تسمع طرقات الباب ثم يلج أحد العساكر إلى
الغرفة قائلا ..

- أوامر سيادتك ..

أوماً له الضابط ..

- مشى العيال دى .. وسيب الإتين دول ..

مشيرا إلى ألمانيا ومحمد ..

إقتاد العسكرى " المأمور باصطحابهم " إلى خارج الغرفة .. بينما
ترجل الضابط عدة خطوات مقتربا من ألمانيا بينما يوجه نظره
ناحية محمد .. ولكز الأول فى صدره بقوة قائلا ..

- خليك إنت على جنب .. حسابك بعدين ..

ثم جلس على أحد المقاعد الأمامية للمكتب موجه حديثه إلى
محمد ..

- إسمك إيه ياله ؟ ..

رد الرجل فى نبرة متهدجة .. تنم عن توتر شديد ..

- إسمى محمد .. حضرتك ..

قبض الضابط براحته على تمثال أثرى صغير .. كان منتصباً على
سطح مكتبه يقول ..

- جبت الحتة دى منين ؟ ..

أجاب الرجل وجلا ترتعد فرائصه ..

- لقيتها مدفونة فى الرمل وأنا بردم بيتى ..

- إنت مش عارف إن الحتة دى كفيلة تحبسك أكثر من
خمسناشر سنة ؟ ..

فإستعبرت عينا الرجل .. وإنخرط فى بكاء "مباغت " مستجديا
الضابط ..

- أقسم بالله دى المرة الأولى والأخيرة .. إرحمنى ياباشا أنا
عندى عيال .. ألمانيا هو الى حرضنى .. قالى الحتة دى
غالية وهتنقذنى من الفقر .. وإن عنده تاجر هيشترىها ..
والله العظيم هو ده الى حصل .. لا أكثر ولا أقل .. والله
ياباشا دى أول مرة أعملها .. أنا الى غلطان إنى مشيت
وراه .. وأستاهل ضرب البلغ على دماغى ..

رمقه الضابط بنظرة ثاقبة ..

- إنت سوابق ياله ؟ ..

أفرد الرجل راحتيه عموديا يهزهما يمينه ويسرة ، مجيبا بالنفى ..
- لا والله ياباشا دى أول مرة ..

رمى الضابط التمثال لبرهة .. ثم رفع ناظره إلى الرجل " تراه
يحرك طرف بنانه برأس التمثال يتلاعب به كدمية "

- ومسلمتش الحتة دى ليه للحكومة لما لقيتها ؟ ..

أجاب الرجل بغباء مستعار ..

- مكنتش أعرف بتسلم فين .. وبعدين كنت خايف
سعادتك ..

صاح الضابط مستنكرا ساخطا ..

- سمعنى بتقول إيه ؟ .. مكنتش تعرف ؟ .. إنت بتهزر
يابن ال " الش....." ..

وقام الضابط ممدوح .. " على حين غرة " .. وصفعه بقوة
فإنبثقت الدماء مثالة من أنفه وفيه .. وهوى منطرحا على
الأرض .. فتناهض راكعا بين قدمى الضابط يلثم حذاه

- والنبي ياباشا سيبنى أروح .. أبوس رجلك إرحمنى ..
إستدار الضابط وترجل خطوتين .. جالسا بنصف جسده على
حافة المكتب .. ثم أشار بإصبعه إلى ورقة ما فى جواره
- قوم ياروح أمك إمضى على المحضر .. أنا هعرفك إزاي
مكنتش تعرف ..

تساند الرجل واقفا وإنحنى برأسه يرمق صحيفة المحضر .. ومن
بين كلماته وسرده وقعت عيناه على عبارة " قطعة مقلدة " ..
فرفع ناظره يحملق فى وجه الضابط ثم أرسله إلى المونيا الرابض

خلفه .. فجاءه طلاتها المفتعلة .. ويبدو أن الرجل لم تنطلى عليه
الحيلة التى حيكت لإيقاعه بين برائتهم .. فمن فرط تركيعها لم
تعد تخفى على طفل يجبو .. إلا أنه وقف عاجزا .. زهيد الحيلة فى
ساحتهم .. فلم يملك إلا أن يذعن لقوانين ذاك السجال القذر
.. الاحتيال .. وأن يخطو منصاعا لخطوه الروتينى الفاتر الرتيب
.. متقمصا دور الشاة السيغة بين مخالب ذئب فتى متحذلق لا
يملك ناصية الخطاب ولا أفانين الكلام .. فصاح الرجل بصوت
مصطنع أشبه بنعيق الغراب يرتجى إنفكاكا ..

- ياباشا والله ما هعمل كده تانى .. إعتقنى لوجه الله عشان
خاطر عيالى .. هيتشردوا فى الشوارع من بعدى .. ربنا
يعلى مقامك إرحم ذلتى ..

إنتصب الضابط فى هدوء ورزانة وأطلقه ضربة عنيفة بظاهر
قدمه .. لوّحت وجهه فإلتصق الرجل بعنف بملاط الغرفة ..
إختل توازنه وأحس أن الأرض تدور به .. بيد أنه ما إنفك أن
إستفاق لنفسه فتحامل راکعا يردد إستجداءاته .. حتى بادره
الضابط مبرزا صحيفة أخرى .. يحركها بطرف إصبعه .. "إذ

كانت واطنة أسفل ورقة المحضر " .. بيد أن الصحيفتان تحملان نفس الصيغة .. كانت فقط محض حيلة مراوغة ..

- يعنى إتعلمت الدرس ومش هتعمل كده تانى ..

- إتعلمته ياباشا .. والله العظيم إتعلمته ..

- خلاص تعالى إمضى على المحضر التانى .. هنقول لقينا

معاك حته متقلدة .. ولا نقول لقيناك متلبس بالحنة

الأصلية ده ؟ .. وترحل على النيابة المسائية

هنا تأكد حدس الرجل .. إنها محض خديعة .. ولكن لا ضيم أن

يكمل اللعبة إلى آخر مطافها .. حتى لا يرتاب الضابط

.. ولينعتق من قبضته الفاشية .. رفع هامته تطفر عيناه دموع

التماسيح وقال لاهنا متآزفا ..

- لا ياباشا همضى على المحضر التانى .. ربنا يكرم أصلك

ويعلى مقامك ..

ووقع محمد على محضر القطعة المقلدة تدفعه خيبة الأمل

ويدغدغه الإنكسار .. بينما أمر الضابط بإخلاء سبيله فى الحال

وصرفه من ساحة مركز الشرطة ..

وما إن خلت الغرفة حتى توجه الضابط بناظره إلى ألونيا
مستوثقا ..

- أنت متأكد إن الحثة دى سليمة ؟ ..

أرسل ألونيا بصره إلى التمثال ثم إقترب يرمق الضابط ..

- إلا متأكد ياباشا .. دى أصل الأصل .. وبعدين ده

موضوع ميخفاش على سعادتك برضه ؟ .. ياباشا دى

متتقدرش بتمن .. وأنا رهن الإشارة سعادتك ..

حدجه الضابط بنظرة حادة جادة صارمة ..

- لأخر مرة بحذرك .. بلاش تلون فى الكلام .. لأنه

مبيجيش همه معايا ..

ثم أمسك الضابط بالقطعة وطفق يتحراها .. ثم وضعها على

سطح مكتبه .. وترجل عدة خطوات إلى مقعده .. فتح درج

مكتبه وأخرج رزمة مكتنزة من النقود وألقاها فى وجه ألونيا ..

ثم تلفت إلى التليفون على مكتبه اثر سماع دويه .. ورفع المسامع ..

- ألو ..

- عملت إيه ؟ ..

- سيادتك مبقاش إلا القليل ونوصل للشخص المقصود ..

- لازم تجيبه فى أقرب فرصة .. القيادة
العليا مستاءة جدا .. ودول زعلهم وحش ..
مفیش مخرج من الورطة دى غير إنك تلاقيه ..
لمصلحتك ومصلحتى ..
وأنهى الضابط محادثته قائلاً ..
- هبذل أقصى ما بوسعى .. وهجيبه لسيادتك قبل يومين
من دلوقتى ..
ووضع الضابط المسامع فى محطه ثم إلتفت إلى ألمانيا هائجاً
- الله يخرب بيوتكم هتخربوا بيتى .. فىن يا حيوان الواد اللى
أمرتك بالتحرى عنه ؟ ..
أجاب ألمانيا فى وجل ..
- ياباشا معنديش معلومات كافية عنه .. وبلدنا كبيرة فيها
أكثر من يحى ميت نفر مشتبه فى تورطهم فى تجارة الآثار
أمعن الضابط النظر فى وجهه ..
- وفين مصادرك يابيه ؟ ..
بزغت من عيني ألمانيا نظرة ذات مغزى .. فقال مستدرجاً
- هو مش الواد ده ياباشا نفسه اللى هرب من مجزرة المقابر ؟

فأوما الضابط إليه بطرف بنانه .. محذرا ..

- مش شغلك .. وياريت تشغل دماغك فى التدوير عليه ..

بدل متشغلها عليا .. نفذ الى بأمرك بيه وبس .. ولا

نفسك ترجع تلحس تراب السجن من تانى ؟ ..

فإنكب المونيا مطأطئ الرأس ..

- لأ .. أنا فى عرض سعادتك .. الى تؤمر بيه ياباشا

أشاح له الضابط بيده ..

- خلاص غور من وشى .. ويتجبنى بيه أو بأخبار عنه ..

وإلا المحاضر القديمة لسة موجودة .. فاكرها ولا أفكر

- فاكرها سعادتك .. ملوش لازمة ياباشا .. بعد إذن

جنابك ..

وخرج المونيا وأوصد الباب خلفه .. بينما ذهل الضابط شاخصا

يرمق الباب واجما يردد فى نفسه ..

- ياترى ليه مهتمين قوى بالواد ده ؟! .. إيه قصته بالضبط ..

أكيد فيه سر وأنا لازم أعرفه ..

ثم رفع مسماع التليفون يجرى مكالمة ما ..

.....

فى رابعة النهار .. كنت أقف على مقربة من مصنع المنسوجات " بمحور خدمات المنطقة الصناعية الثالثة بالمدينة " .. إنتصبت بعيدا عن بوابة المصنع " زهاء العشر مترات " أستند إلى حائط خرسانى .. أنتظر خروج سماح بعد دوامها النهارى بالمصنع .. كان مقدمى مباغتاً .. غير ممهد له .. إذ آثرت أن أصرحبها إلى أحد المتنزهات لأزيل ما علق بجأشها من ترح ونفور تجاهى .. وقفت منتظرا لما يعدو النصف ساعة حتى إنفتحت بوابة المصنع وبدأت العاملات فى البزوغ على التتالى .. إلى أن لمحت سماح فتآزفت إليها قبل أن تستقل سيارة الوردية .. وما إن رأتنى حتى تغيرت قسماتها مندهشة وقلقة .. إقتربت منى تستطلع الأمر .. - إيه اللى جابك هنا ؟ .. أمى كويسة ؟ .. بتنى جراها حاجة ؟ ..

فإبتسمت أطمئنها ، وإنطلق لسانى قبل أن أفسد الأمر .. بصمتى ..

- إطمنى مفيش حاجة .. كلهم كويسين .. كان نفسى أشوفك بس ..

ودعوتها لقضاء بعض الوقت بمنتزه المدينة .. إلا أنها فى بادئ الأمر أبت وتمنعت .. بحجة أنها مرهقة وغير مفيدة لهذا التسكع .. ظلت أتحايل رضائها وحدثها بأنى أريد الافاضة لها بأمر ضرورى إلى أن إرتضت بالنهاية على مضض .. إستجابة لإلحاحى المستمر ..

ترجلنا نتمشى عبر الممر الأسفلتى " باتجاه الطريق الاقليمى " .. بيد أنها لم تنبس بكلمة طوال ممشانا .. كما أن التلعثم عقد لسانى وأفقدنى النطق .. ليس إلا نظرات مضطربة خجلى ومترددة أبعثها إلى وجهها المطرق .. أستجدى كلمة من فيها .. إلا أنها مازالت غاضبة منى يعتمل الترح النافذ بصدرها ..

شارفنا حافة الطريق العمومى .. فوقفت ألّوح لإحدى السيارات القادمة .. بينما وقفت هى متحجرة على بعد خطوتين منى تحديق النظر فى الجهة المعاكسة .. كانت تتهرب بوجهها عنى وكأنها لا تريد أن ترانى ..

وقفت سيارة .. أفسحت لها الطريق للولوج .. فقبعت على مقعد ملاصق لإحدى النوافذ تنعم النظر إلى الطريق .. أما أنا فجلست فى جوارها ساهما واجما أنظرها مترقبا .. أتوقى نظرة ولو بمحض

المصادفة .. دلفت السيارة إلى قلب المدينة وتوقفت أمام أحد
المولات المواجهة للموقف العمومى ..

غادرنا السيارة .. وسرنا نتمشى فى الطريق الخلفى للمول حيث
يهداً الحراك وتخف حركة المارة .. إلا أن الحال لم يتغير .. إذ ساد
الصمت ممشاننا .. فوطنت العزم أن أستهل الحديث فقلت ..

- الطلة والتكشيرة دى ميلقوش بواحدة عندها شنطة مليانة
برزم الدولارات ..

لوت عنقها نحوى .. فنظرت إليها مبتسماً .. بينما رمقتنى هى
ضائقة تقول ..

- الفلوس لأصحابها ..

نظرت إليها أداعبها ..

- وهو إنتى مش صاحبة الفلوس واللى جايب الفلوس ؟ ..
فهزئت رأسها فى يأس ..

- أنا ما أملكش غير الستر .. وحظ عنيد إستعبدنى للحزن
والهم .. ولألاعيك المراوغة ..

تقاربت .. ووقفت أمامها حتى أوقفتها عنوة .. ألحمت بعينيها ..

- حبيبتي .. إنتى ليه بتسيئى الظن بيا كدة ؟ .. إنتى مش عارفة إنى ما أستحملش أشوفك لحظة حزينه وموجوعة نظرتنى ثاقبة .. تترقق عيناها ..

- إنت اللى دىما توجع قلبى وتسببه غرقان فى بحر من الألم .. أطبقت راحتى على راحتها برفق .. وإقتدتها بهدوء لنجلس عند حافة أحد الحواجز الخرسانية الواطئة خلف بناية حكومية عتيقة .. تشرف على الطريق .. قائلا ..

- ربنا يهلك اللى وجع قلبك ..

أطرقت تقول متهدجة على إستحياء ..

- متدعش عليه ..

فانتصبت أناظرها منسرحا .. وقلت فى صوت إحتفالى ..

- أيوة بقا .. أهو كدة يبقى الكلام .. حبيبتي بكرة تعرفى إن

الى مزعلك منى بالشكل ده .. هو نفسه اللى هيجمع

شملنا تحت سقف واحد .. بس أنا مستنى اللحظة

المناسبة ..

رمقتنى محتدة يائسة ..

- من يجي خمس سنين أو أكثر وإنّ مستنى اللحظة المناسبة .. خلاص أنا فاض بيا ومبقتش قادرة أستحمل .. عمري بيضيع قدام عينا وإنّ واقف مكانك .. بتتفرج ما بتتحركش خطوة .. إكتفيت بإنك تشوف ملاحي وهى بتدوب وتكرمش شوية شوية من التفكير والهّم ..
- فإقتربت منها .. وملت برأسى أستجديها ..
- إدينى بس فرصة أخيرة .. وبعديها إعملى الى إنتى شايفاه فى صالحك .. أوعدك بعد ما تنتهى حكاية المقبرة دى ..
- هاكتب عليكى رسمى وقدام الناس
- نظرتنى تتحرى قسماى ..
- ياريتنى أقدر أصدقك .. كثير طربت ودانى بالوعد ده ..
- الى كان ديا متأجل ..
- إبتدريتها قائل ..
- أقسم بالله أنا صادق معاكى المرة دى .. وسواء صابت الحكاية أو خابت .. هنتجوز عشان نعوض الى فات من عمرنا .. أنا أصلا تعبت من الوحدة والمرمطة ..
- فقال بصوت ملهوف بادى الحماس ..

- إنت بتتكلم جد .. ولا زى كل مرة ؟ ..
أجبت مؤكدا ..
- والله العظيم بتكلم جد .. وجد الجد كمان ..
فإعتدلت لتناظرنى بكامل جسدها ..
- تمام .. وإنت ناوى على إيه دلوقتى ؟ ..
أرسلت بناظرى إلى ناصية الشارع البعيدة ..
- لسة بفكر فى الموضوع مش عارف أبتدى منين ؟
ثم توجهت نحوها فى عزم أقول ..
- بس ناوى أخذ خطوة بجد فى الأيام الجاية .. إدعيل ربنا
يوفقنى ..
- تنهدت ثم قالت بتؤدة متهدجة ..
- هادعى لما أشوف أخرتها ..
- شابت أسارىرى هالة من الابتسامات .. وقابلتنى هى بإبتسامة
حيّية أضاءت ثغرها .. ومددت يدي إليها نكمل ممشاننا ..
- فقامت وواصلنا المسير ..
- وبعد عدة خطوات .. أرجأت طويلا ثم قلت ..
- إنتى عارفة أكثر حاجة بحلم بيها إيه ..

- إيه ؟ ..
- بحلم أشتري بيت واسع وكبير .. نعيش فيه أنا وإنتي وأبويا وأمك وأخويا وبتك .. نعيش فيه كلنا مع بعض فتوقفت بغتة صائحة ..
- نتجوز الأول وبعدين إسعى فى تحقيق كل اللى بتمناه .. نظرت إليها مبتسما ..
- هتجوزك .. أقسم بالله هتجوزك .. للدرجة دى مستعجلة فغرت فاها .. مستنكرة .. تقطب حاجبيها ..
- نعم ؟! .. قصدك إيه ؟ ..
- أدركتها ضامًا وجهها بين راحتى قبل أن تتناوح الرية بروعها
- والله ما قصد حاجة خالص .. أنا بس كنت بهزر ومش هعملها تانى .. رجعى بقا ضحككتك أنا ما صدقت أخيرا ضحكتى ..
- إنت مبتزهقش ؟ .. هزارك رخم ..
- خلاص قولتلك مش ههزر تانى .. مايقاش خلقت ضيق كدة ..
- ونظرت إليها مازحا للمرة الثانية ..

- إيدنى فرصة أقرب منك .. متبقيش نكدية بالشكل ده ..

فتذمرت وأسرت الخطو .. بينما خلفتها ملاحقا أسترضيها ..
وظل هذا السجال اللاذع يدغدغ مشاعرها ويستميل قلبى ..
كنت أحاول كسر صمتها وجمودها وقنوطها بضرب من الهزل
والعبث والمراوغة .. ليغشاها بين الفينة والأخرى الابتسام
اللحوح وتغتمر تقاطيعها بعلائم البشر والإرتياح إلى أن توهج
صوتها بالنهاية فرحا .. وإنطلق لسانها بالكلمات الجذلى الأشبه
بترديد الأهازيج ..

إلا أنه فى عمقى .. كلما أذعنت للصمت برهة .. اعتمل بصدري
القلق والخوف من المجهول .. كانت تخيلنى أمورا مقبضة كعادة
الدنيا معى .. أحاول مواراتها بحديثى المداعب اللاهى .. بيد أن
رقرة تنجلى وتتضح على أديم عيناي بين الوقت والآخر ..
فتقابلها سمح بوجه يشف عن ذات القلق والخوف ..

.....

فى صبيحة اليوم التالى وفى قرابة العاشرة .. كنت أجلس فى
المقهى بصحبتهم .. فتحنى وألومنيا وبركات ..

وكان بركات قد ضاق ذرعا بحديث ألومنيا الإستقصائي .. فقال
متململا ..

- وإيه يخلصنا فى الحكاية دى كلها ؟ .. الى حصل حصل ..
ولا إنت عايز تشغلنا معاك مخبرين عند ظابط المباحث ؟
حينها تدمر ألومنيا وهب قائما ..

- أنا ماشى .. مفيش فايده من كلامى معاكو ..
فقال بركات دهشا ..

- رايح فين ؟ .. إنت ليك غيرنا ؟ ..
فأجاب باختصار ..

- عندى فرح الليلا دى .. ولازم أتمم على الفرقة ..
" إذ كان ألومنيا يعمل فيما يعمل كـ " شاویش مسرح " فى زفات
الأعراس .. "
ناهضه بركات قائلا ..

- طب إستنى .. أنا جاى معاك ..
وإنصرف الاثنان تحت أنظارنا .. نتابع مرآى رحيلهم .. وما إن
غابا عن صفحة الرؤيا .. حتى أمسكت قياد الحديث وجلا ..
- ياترى ليه بيسألنا كل الأسئلة دى ؟ ..

قال فتحي يواجهنى جادا ..

- ما إنت عارف إنه شغال مرشد سرى عند ظابط المباحث ؟

.. لكن الى قالقنى إن الظابط بيدور على شخص بعينه ..

وعلى بيقولى إنك إنت الشخص المطلوب .. معقولة

يكون حد حس بيك وإنت بتهرب من منطقة القتل ؟ ..

أكيد فيه حد شافك بس متعرفش عليك .. وإلا إزاي

عرف الظابط إن المجزرة سابت وراها واحد هربان ..

إنتفضت حينها أوأصلى .. وقلت مذعورا ..

- ده إيه اليوم الأسود ده ؟ .. هعمل إيه دلوقتى ؟ ..

رمقنى بنظرة فاحصة ثم لوى عنقه ينعم النظر هناك حيث

الزراعات المترامية على الضفة الأخرى للمجرى المائى ..

- متهيألى فيه مخرجين من الورطة دى .. أولهم إنك تقول

لألمونيا كل الى حصل .. وتخرس لسانه بشوية فلوس

عشان تتقى شره .. والتانى إنك تحاول تختفى تماما .. وف

حالتك الحل التانى مينفعش لأنك لو هربت هتلفت كل

الأنظار ليك

فحدجته بنظرة مستنكرة مستاءة ..

- إنت عايزنى أرشيه ؟ .. مش هيحصل طول ما أنا عايش على وش الدنيا .. وبعدين ده ملوش أمان .. ده خاين وغدار .. وبعدين خلىنى رشيتة وبلغ عنى .. هيبقى إيه العمل ؟ .. مش هيشوف قرش من اللى شققت فيه وغامرت عشانه .. وإن حصل يبقى على جتتى ..
- تسمع فتحى كلماتى فى غير إقتناع إلا أنه أذعن قائلًا ..
- اللى تشوفه .. إنت حر .. أنا بس كنت خايف الدنيا تعملها معاك ..
- إعتدلت بكامل جسدى أناظره .. وتستجيب يداى بالحركة معبرة عما يتوجب علينا فعله ..
- سيبك بقا من الشكوك دى .. إن شاء الله كل شىء هيمشى زى ما أنا مرتب .. بس إحنا نتعامل معاهم زى ما حنا علشان محدش فيهم ياخد باله من حاجة ..
- هزهز رأسه يوافقنى .. بجسد ثابت فاطر الحماس ..
- تمام .. لما نشوف بكرة مخبى إيه ..

إنتصف الليل .. كنت فى غرفتى مستلقيا على مهادى .. إلا أنى
كنت يقظا أستغرق فى تفكير طويل .. سلسال يقودنى من فكرة
لأخرى .. مما أصابنى بأرق وقلق شديد .. طردا النوم من مقلتى
.. وطفقت أتجول بناظرى "مريجا" فى جنبات الغرفة .. غرق
بصرى فى صورة والدى الناشبة أمامى على الحائط .. أتذكر أيامنا
الأولى الخوالى ..

وبينما أنا على حالتى تلك إنثال الى مسامعى أزيز وصفير حاد ..
وأصوات جلبة وحراك بالصالة .. فنفرت من مهادى مدعورا
أستطلع الأمر .. خشيت أن يكون أبى .. فقد أصيب مؤخرا
بحالة نفسية خاصة تحدوه للسير نائما .. إثر موت أمى كمدا ..
وتكاثف الهموم ومثاقيل الحياة فوق عاتقه .. وقد أشار الطبيب
بمراقبته ومتابعته عن كثب ..

فغادرت غرفتى متجها صوب الصالة أترجل بهدوء وتأنى ..
لأجد أبى أمام الباب ممسكا بالمزلاج يتأهب للخروج .. فهرعت
إليه .. وقبضت على راحتيه قبل أن يحرك المزلاج قلامة ظفر ..
فنظرلى تمتلئ عيناه نوما وزيغا .. مبتدرا يقول ..

- مصطفى ؟ .. أمك مستنيانا برة .. هنجازى المدرس الى
إتسبب فى كسر دراعك ..
أدرت الكرسي متجها صوب غرفة نومه أردد ..
- بكرة نروح مع بعض يابا .. لازم ترتاح دلوقتى ..
فنظرنى قائلا ..
- هنقدم شكوى ضده ..
لم أبه بحديثه ومضيت قائلا ..
- بكرة يابا .. بكرة ..
إلى أن شارفت مرقدته .. فحملته وأويته إلى جوار أخى .. ودثرته
بغطاءه ..
وما هى إلا برهة " مكثتها واقفا إلى جواره " حتى غط فى نوم
عميق .. غادرت الغرفة بعد أن أوصدت بابها جيدا ثم عدت إلى
غرفتى .. حاولت أن أتناوم " أستجدى الغفى " .. دون جدوى
.. فقد عدت إلى سالف حالتى الأولى " تتجاذبنى الحيرة والقلق
" .. كان التفكير قد إعتصر طاقتى وتدفقت إلى رأسى المزيد من
الهواجس والظنون .. ورتعت به التوهّمات .. كدت أصل إلى حد

الجنون .. لم تستطع رأسى أن تحمد على الوسادة .. فزاد أرقى
وتبخر النوم تماما وذهب إلى حيث لا رجعة ..

دفعنى ميراث الهم " الزخم " الثقيل لأن أفكر جديا أن أخطو
خطوة حاسمة .. حاولت التركيز مستعلما طريقى ببصيرة راشدة
وقوة عاقلة غير جامحة .. كان لابد أن أبدأ أولى خطواتى فى
البحث عن سبيل لفتح المقبرة الإضافية فى خفية وترو .. حتى لا
يغافلنى أحدهم فتسبق قدماه قدمى ..

هجرت مضجعى .. ونفرت من البيت .. وتوجهت رأسا شطر
البلدة القديمة .. وفى غضون دقائق كنت قد شارفت كوبرى
المشاه العابر للترعة الوسطية .. وفى طريقى هاتفت فتحنى أن
يقابلنى أسفله فى خفية من المارة والناظرين ..

ومكثت أنتظره عند أحد الأعمدة الخرسانية .. ومازالت الظنون
تتخطفنى وتجول فى رأسى عابثة دون رادع .. كلما مرت بى لحظة
إرتأت لى فكرة تمحو ما قبلها وتستخفها .. كنت أبتغى مأربا لم
أتبين سبيله حتى لحظتها ..

ساعدنى الليل الهادئ .. ووحدتى وإلتفانى حول نفسى ..
وإعتصار ثمار قريحتى شيئا ما .. فى إنتخاب بعض المقترحات ..

إذ وافتنى أكثر من فكرة صائبة .. فوطنت العزم أخيرا على تنفيذ
إحداها ..

لم يغب فتحى كثيرا إذ جاءنى فى غضون دقائق زهيدة " رغم
شعورى بكثرتها وإمتطاطها .. لوفرة ما أنتجت رأسى من أفكار
فإستطال بها الوقت "

ما إن رأتى حتى طالعنى بصوت أجش .. ينبثق منه الكلام
بصعوبة ..

- إيه يابنى الى حصلك ؟ .. مجر جرنى فى الوقت المتأخر ده
ليه ؟ ..

قلت مريجا يتتابنى شعور بالخلج والتوتر ..
- أنا أسف يا صاحبى .. مقدرتش أصبر .. فيه مشوار
عايزك تروحه معايا ..

نظرنى دهشا .. وعلى أساريه علائم إستنكار مستتر ..
- مشوار ؟! .. مشوار إيه ؟ ..

وقبل أن أجيب .. تسمعت أصوات جلبة وحراك صادرة من
أعلى الكوبرى .. وكانت لرهط من الفتية المتسكعين فى الليل
البهيم عند أحد نواصى الكوبرى الملتوى .. يختلسون النظر إلى

كوكبة من النسوة اللاتي خرجن في تلك الساعة المتأخرة لتنظيف
أوعية وأغراض دورهن في مياه الترعة ..

" ترى هذا المشهد كثيرا .. إذ كان ذائعا أن بعضهن ينحون ذاك
النحو بالخروج فرادى وجماعات من العشاء وحتى إنتصاف
الليل .. وبالأخص في ليالى الصيف المقمرة .. لغسيل حاجياتهن
حتى لا يعرضن أجسادهن لأعين قليلي الحياء تحت وضوح النهار
.. فيتدثرن في الليل وظلمته .. إلا أن الأمر لا يسلم من أعين
المترصدين الباغين .. الذين تراهم دوما على مقربة "

أحسست إثر سماع تلك الضجة ببعض الظهور والتكشف الغير
مرغوب فيه .. لأمر يحتاج الخفية .. فقلت مناهضا ..

- مش هينفع نتكلم هنا .. أنا مش مطمئن .. تعال نروح
بيت سماح .. أئمن مكان ممكن نتكلم فيه ..

أطل فتحي في وجهى محتدا .. في غير إقتناع ..

- بس الوقت متأخر .. ودى أرملة ..

أمسكت بذراعه أذفعه أمامى برفق قائلا ..

- تعال بس وملكش دعوة .. أنا هتصرف ..

وإنصرفنا متوجهين إلى عمق البلدة ..

ماهى إلا برهات .. كنا قد شارفنا ناصية حارتها .. إلا أننا توقفنا
"بغته" عندما لمحت ألمانيا وبركات يتطوحيان عند درك أحد
أعمدة الانارة .. بدا عليهما الثمل الشديد .. " لا بد وأنهما قد
أنقلا فى تعاطى المخدرات وشرب الخمر " .. كانت هيئتهما مزرية
.. يتراميان على بعضهما البعض فى عدم إتران .. وكأن الأرض
تراقص وتموج تحت أقدامهما .. قلت مرتبكا ..

- الله يعكر مزاجكم .. إيه اللى جابهم هنا ؟! ..

وتوارى فتحى بجسده خلفى يرمقهم ..

- مش عارف .. دول شكلهم تقلوا فى الشرب لحد ما

المخدرات تولت دماغهم .. أكيد بيتسكعوا زى عادتهم ..

فنطقت عابثا يمتقع وجهى ..

- إستنى شوية لحد ما يمشوا ..

فبرز فتحى إلى جوارى يستحشى ..

- يابنى دول غرقانين لودانهم فى المخدرات .. مش هيقدرُوا

يتحركوا خطوة وهما فى الحالة دى ..

فنظرت إليه متساءلا فى حيرة ..

- طب وإيه العمل ؟ ..

طالعنى فتحى ينظر فى وجهى .. يقول بتؤدة ..

- دول مش شايفين حتى تحت رجليهم .. تعال نتحرك

براحة ومش هيحسوا بينا ..

وإستحسننت فكرته فتحركنا بهدوء " متلصصين بجنبات الحارة
" حتى شارفنا الباب .. طرقت عدة طرقات رهيفة هادئة إلى أن
فتحت سماح .. فأطبقت راحتى على فيها " فجأة " قبل أن تتفوه
بكلمة فيفتضح أمرنا .. ثم دفعتها إلى الداخل .. وولجنا على
إثرها متآزفين ..

.....

... بيد أنه فى هذه الأثناء كان بركات يرمقنا بنظرات ضباية ..

فنطق هو الآخر " مريجا " يحدث ألونيا ..

- بص .. مين هناك ؟ ..

خطا ألونيا خطوة واهنة مترنحة .. لا يرى إلا طشاشا .. وقد
لعبت الخمر برأسه ..

- مين ؟ .. أنا مش شايف حاجة ..

أشار بركات صوب الباب " يجلى الضباب عن أعين رفيقه " ..

- ده مصطفى ومعاه فتحى ..

فحملق أألونفا .. تكسو ملامحه غباوة مزيجة بالدهش ..

- مصطفى ومعاہ فتحي ؟! .. إيه الى جابهم هنا الساعة دى

.. هو مش ده بيت سماح ؟! ..

فضحك بركات فى خبث ..

- هو بيتها .. إظاهر إنها منهم ! .. الى بيستقبلوا ضيوفهم

من الرجالة فى عتمة الليل ..

إبتسم أألونفا مشدوها يهزهر رأسه .. وكأنها قد إستفاق من

سكرته ..

- ياأميبي !! .. إزاي تاهت عن دماغى دى ؟! .. إزاي

محدثش بالى منها ؟! .. أكيد هيا منهم .. طبعا منهم

.....

... ومن الداخل .. كنا نتحدث أنا وفتحي فى صالة المنزل الخاوية

إلا من حصيرها الرثة .. فقلت قلقا وفى أسارىرى علائم الخوف

والريبة ..

- ياترى شافونا ؟ ..

فقال فتحي يكرر حدسه .. محاولا طمأنتى ..

- إهدى .. ماضنش إن هما قادرين فى حالتهم دى يميزوا
واقف من ماشى ..

وما إن اطمأن جأشى " شيئاً ما " وهدأ قرارى .. تحركت عدة
خطوات فى مواجهة سماح وفتحى .. أستهل حديثى إليهما ..

- أنا قررت حاجة ومحتاج مساعدتكم ومشورتكم فيها ..
إنتو فاكرين طبعاً موضوع المقبرة الإضافية اللى حكيت
لكم عنها .. متهيألى إن الطريق الوحيد ليها هو الشيخ
مرسى نفسه .. ومفيش شك إنه يعرف حكايتها وتلاقيه
بيرتب دلوقتى إزاي يفتحها ..

حينها سألنى فتحى مقاطعاً ..

- طب وإيه المطلوب مننا ؟ .. إنت ناوى على إيه بالظبط ..

.....

... فى ذات الآن كان ألمانيا وبركات فى الخارج يتهاامسان .. قال
بركات بصوت خفيض ..

- يابنى إستنى شوية وهنعرف كل حاجة ..

تحرك ألمانيا متآزفا ..

- لازم أكشف اللى بيحصل جوه وأفضحهم .. عشان
أجيب مناخيره الأرض .. طالعلى السما بروح أمه .. وهو
مقضيها ..

فأمسك بركات بساعده يستوقفه ..

- ماتستعجلش .. دول لسه داخلين .. إستنى شوية
وهنفاجئهم عشان نظبطهم بفضحتهم متلبسين

.....

... وبينما كنت أتشاور مع سماح وفتحى بالداخل .. هتف فتحى
بغته .. بنبرة تهكم وإستنكار ..

- إنت إتحبلى ! .. إزاي هنسافر للشيخ " والمعروف أنه
يقطن فى الشرقية " فى الليل ده ؟! .. الطريق مش أمان ..
النهار له عين .. نسافر الصبح أحسن ..

فأدرت جسدى أيباً .. أردد فى عناد وحمية ..

- بيك من غيرك .. هسافر .. أنا بس كنت عايزك معايا ..
وبعدين الليل عملوه أصلا للمشاورير السرية دى .. مش
لازم حد يشوفنا أو يحس بينا ..
وإحتاجت سماح بدورها " وكعادتها " ..

- أنا مش عارفة ليه الإصرار أصلا على الحكاية دى ..
يامصطفى معانا اللى يكفيننا طول العمر ..
حينها تذمرت مشو حا ..

- براحتكم .. مش عايز حد .. أنا هسافر لوحدى ..
وتحركت لعدة خطوات صوب الباب .. فلحق بى فتحى يحمّد
ثائرى ..

- طب إهدى شوية .. أصبر .. إحنا لسة بنتشاور ..
ثم ند عن صدره تنهيدة عميقة ..
- لله الأمر .. أنا جاي معاك .. عارف إنك أهوج وعنيد
وهتودينى فى داهية بسبب قرراتك السريعة والمفاجئة دى
فصاحت سماح هى الأخرى ..
- رجلى على رجلكم ..
ثم قالت عبثا ..

- أنا أصلا كان عندى وردية ليل فى المصنع .. هفوت
الشغل الليلا دى وهسافر معاكم ..
" وإن لم يكن قد نبا إليك علم فإن النساء فى بلادنا يقتصر عملهن
بالمصانع على الدوام النهارى .. "

وعلى حين غرة .. دق الباب دقات هستيرية .. فزعت إثر دويها .. فنظرت إلى سماح أستفهم عبثا كنه الأمر .. رغم أنى أتكهن حقيقته ..

- إيه ده ؟! .. إنتى مستنية حد ؟! ..

فردت سماح فى تنكر ..

- ومين اللى هيخبط على بابى فى الليل ده ؟! ..

آنها دمدم صوت بين وشائجى .. وخالجنى ظنا حتميا بأن هذان المبتذلان هما مصدر تلك الجلبة .. فهمست إلى سماح مهمهما ..

- إفتحى الباب براحة .. لما نشوف مين اللى جاى الساعادى

وجذبت فتحى من ساعده ..

- تعالى نستخبى جوه ..

وتوارينا فى غرفة نومها نسترق السمع .. وبمجرد أن فتحت الباب .. بوغت بمشهد ألونيا وبركات ثملين .. فإهتاجت إثر مرآهما ..

- إنتو عايزين إيه ؟ ..

فرد ألونيا بوجه صفيق رقيق ..

- ليه مقولتيش يا حلوة إن ليكى فى النظام ؟ .. " الأنس
والفرشة " .. إحنا بنعرف نقدر برضه .. بالزمة مش
إحنا الأولى .. كان نفسى من زمان فى جسمك الفاير ده ..
وألقي بجسده الثقيل العفن على جسدها .. تنبعث منه رائحة خمر
مقرزة .. فدفعته بقوة صائحة ..

- غور الله يخبيك راجل .. أخرجوا دلوقتى وإلا هصرخ
بعلو صوتى وألم عليكموا خلق الله .. ده إيه المصايب دى
ياخويا ..

فتحرك ألونيا دائرا بالصالة يتبطرق " تراه يتنطع فى سماجة
ووقاحة " .. هاتفا ..

- تصدقى فكرة .. يالله صوتى وأنا هصوت معاكى
وأردف بركات ..

- إيه ؟ .. هو إحنا مش زى ضيوفك اللى بيلعبوا جوه ؟ ..
ولا مانشبهش ؟ ..

فتجهمت سماح من فرط فجاجتها وغلظتها ..

- ضيوف إيه يا صايع إنت وهو ..

فأمسك ألوونفا بآدها وأزاحها من طرآقه بعنف .. ثم مرق إلى
آوف الدار هاتفا ..

- هما فآ ؟ .. أأرآ فامصطفى .. أنا مش آرب .. الدار
أمان ..

آآنها لم أآد بدا من التآشف فأمرنا قد إفتضح .. فبرزت من
آرفة النوم قبل أن آتدهور الآل وآتفاقم الأمر قاءلا ..

- إآآ عآز إآه إآآ وهو ؟ .. إآه إلى آابكم هنا دلوقآى ؟
وأرآ فآآى فآلفنى .. فهل ألوونفا سافرا ..

- الله الله .. إآآو الإآآآ مع بعض .. من الواضح إآها بت
آامدة وعفآة ..

فهآآ فى وآهه مطلقا تلك المقالة الصادمة ..

- إآرس فآ آآوان .. دى مرآى ..

فآملق ألوونفا وفآر برآات فآه .. مردآآ بصوت وآاآ

- مرآآك ؟!! ..

وإآآب الآمآع ذاهلآ وآآآآ .. وآآآرت عآناى سماآ
شاآصة صوبى مشدوهة بآرابة ومباآآة ما لفظت .. إلا أنها

سريعا ما فطنت لمأربى من تلك القيلة .. " فكما تعلم لم يكن من
مخرج من تلك الورطة سوى ما تمخض به لسانى " ..

"٨"

لم تتغير تدبيراتى لتلك الليلة .. ولم تتأثر بما حدث .. فما هى إلا ساعة زمن وكنت أنا وفتحى وسماح على رصيف محطة القطار .. ننتظر آخر قطار نازح إلى القاهرة

آنها كنت ضائقا يحتقن وجهى .. أتردد بناظرى إلى سماح " أتمنى لو ألكمها بكلتا راحتى غيظا " .. تلك التى نفذ صبرى من عنادها الشديد .. فرمقتها محتجا ..

- والله أنا ماعارف معنى لإصرارك إنك تسافرى معنا فى الليل ده !..

وحاول فتحى أن يهدأ من روعى ..

- ريح نفسك شوية وإهدى .. خلاص الموضوع إنتهى .. جت معانا واللى كان كان ..

وبينما كنا وقوف لاهين فى جدالنا هذا .. كان المونيا وبركات يترقبانا من بعيد متخفيان خلف أحد الجدران .. دون أن ندرى بهما .. " هذان اللذان إستغلا غفلتنا فإقتفيا أثارنا " .. وبينما هما على تلك الحال قال بركات بادرا ..

- مش عارف أنا إيه الى جابنى وراك لحد هنا ؟! .. هو مش
قالك إن هيا مراته ؟ ..

أرسل ألمانيا ناظره إلی حیث كنا نقف .. قائلا لبركات الواقف
وراءه متذمرا ..

- بسرعة كدة خالت عليك كدبته ؟! .. ده إنت طيب
خالص .. فيه حاجة غريبة بتحصل ولازم أعرفها .. لازم
أعرف إيه الى بيدور من وری ضهرى .. مسألتش نفسك
إيه المشوار ده الى مينفعش غير فى آخر الليل .. ولىه
مسافرين بالقطر بالذات ؟ ..

فدار بركات ليناظره مباشرة محتجا ..

- يابويا وإحنا مالنا وماهم ؟ .. هما أحرار يعملوا الى
يعملوه .. إيه الى هيضرنا أو يهمننا فى كدة ..

فأزاحه ألمانيا عن مرآه وإبتدره قائلا ..

- أقف وإنت ساكت .. أنا عارف أنا بعمل إيه ..

وقطع حديثهما صوت القطار القادم يحث الثرى ويذريه أمامه
ذريا ..

ركبت جماعتنا بإحدى العربات الأمامية .. بينما لحقانا مستقلين
العربة الخلفية مباشرة .. يترصدانا من بعيد ..

.....

في غداة اليوم التالي .. كان الصبح قد تبين لذي عينين .. وكنا
نسير بدورنا في أحد الشوارع العتيقة ببلدة صان الحجر بالشرقية
.. كنا في ساحة السوق الغاصة بالمارة .. والبائعين على الأرصفة
تتناوح نداءاتهم وتكاد بضائعهم أن تنتهب الطريق إنتهابا ..
وكان ألمانيا وبركات في إثرنا يتدثران في جموع المارة ولغظهم ..
إنتهى بنا المسير قبيل نهاية الشارع حيث هدأ عجيح المارة وخفت
أقدامهم .. فولجنا من دهليز بناية قديمة " متداعية .. يخال لك
أنها ستتدهدم فوق رأسك " ذات طوابق أربع ..
في ذات الآن كان ألمانيا أمام البناية يستوقف أحد المارة
مصحصحا ..

- لو سمحت .. مين اللى ساكن في العمارة دي ؟ .. بتاعت
مين يعنى ؟ ..

فأجابه الرجل ..

- ده بيت الشيخ مرسى الديب .. راجل بركة ..

وإنصرف الرجل .. بينما إنتصب ألمونيا يهمهم بصوت مسموع ..

- شيخ ؟! .. شيخ إيه ده ! .. أنا مش فاهم حاجة ..

ولوى عنقه صوب بركات ..

- تعالى ندور على قهوة لحد ما يخرجوا .. أنا خرمان نفسى

فى شوية شاي ونفس دخان ..

ووطنا على أحد المقاهى المواجهة للعمارة .. وقبل أن يستهلا

تعجباتها بادرهما صبى المقهى ..

- تشربوا إيه ؟ ..

حدثه ألمونيا مستفهما ..

- ممكن تعملى معروف ؟ ..

فأطلق الصبى سؤالاً يتبين الأمر ..

- معروف إيه ده ؟ ..

أشار ألمونيا بطرف بنانه شطر البناية قائلاً ..

- كنت عايز أعرف مين اللى إسمه الشيخ مرسى ده ؟ ..

شغال فى إيه يعنى ؟ ..

فقطع بركات الحديث " كما تعودنا منه " مناهزا ألمونيا وصبى

المقهى معا ..

- مرسى إيه دلوقتى ؟ .. هات ياكابتن كوباتين شاي

وحجر شيشة ..

نظر إليه أَلُونيا شذرا .. يحتقن وجهه غيظا ..

- ممكن تهدى .. وتخرس خالص ..

ووجه حديثه ثانيا إلى الصبى مستدرجا ..

- قولتلى شغال فى إيه ياذوق ؟ ..

فقال الصبى ..

- ده شيخ مبارك .. بيفك الأعمال والأسحار .. حاجات

زى كدة يعنى ..

سهم أَلُونيا مندهشا ..

- أعمال ؟! .. أعمال إيه ولاد المجانين دول ؟! ..

.....

وفى مضيفة شقة الشيخ مرسى المتهالكة .. كان ثلاثتنا جلوس

يناظرونه .. وثمة نقاش دائر على الأفواه .. قلت ساءلا ..

- قولت إيه ياشيخنا ؟ .. هتساعدنا ؟ ..

فنظر الشيخ إلينا قائلا ..

- فى حد غيركم يعرف حكاية المقبرة دى ؟ ..

أجبتة نافيا ..

- لأ .. مفيش غير إحنا الثلاثة ..

فأطرق الشيخ للحظة .. ثم قال ..

- تمام .. سيبوني أفكر .. وهرد عليكم بالتليفون بعد أسبوع

من النهاردة .. وربنا يجيب اللي فيه الخير ..

إلا أنى إسترعيت التفاته أقول ..

- لو تسمحل ياشيخنا .. عندى إستفسار بسيط .. سؤال ..

نفسى أسمع إجابته منك ..

فسألنى مستفهما ..

- سؤال إيه ؟ ..

فقلت أرتجى إيضاها ..

- نفسى أعرف إيه أصل حكاية منطقة أبويللو دى .. أنا

عارف إن مفيش حد يقدر يدينا عنها خبر أكيد غيرك ..

نظرنى الشيخ متعجبا ..

- يعنى إنتم جيرانها وجاى تسألنى أنا؟! عجيبة !

فإبتسمت مبهوتا وغمرنى الحياء وأغرقنى الحرج من مقارعة

اللاذعة .. فأردفت ..

- أعذرنا يا شيخ .. دماغنا إتلخبطط من كتر ما سمعنا عنها ..
.. حكايات تشبه الأساطير .. يقولوا إنها كانت زمان
مدينة فرعونية عظيمة .. لكن كهنة المعابد عملوا ليها
رصد مخيف .. فإتحسفت بيها الأرض .. ومن ساعتها كل
ما تبني قرية على أطلالها يصيبها الرصد المخيف ده ..
تبلعها الأرض فى جوفها .. كأنها ماإتبتش أصلا .. وكثير
بقا من الخرافات دى يقولوها الناس وبيعقدوا فيها ..
عشان كدة نفسى أعرف سرها .. ومفيش غيرك عنده
خبرها ومخبرها ..

إلتمعت عينا الشيخ تيقظا .. ثم نظر نحوى فى هدوء .. يترقبني
ويتمعن أسارىرى وكأنها يستقرئ ما يدور بخلدى .. ثم قال
بتؤدة ..

- الأرض دى فيها سر متصان .. فيها حقايق مذهلة لو
إتكشف الستار عنها هتغير كثير حوالين إعتقدتنا عن
تاريخ الفراعنة .. واللى شاف اللى جواها غير اللى مر
عليها مرور الكرام ..

أعارنى ذات الإلتماع بعينى .. فسألت أحملق جاحظا ..

- وهو فيه حد دخل جواها .. وخرج سالم ؟ ..
فقال الشيخ بصوت خفيض .. وكأنها ينطق خواطره بصوت
مسموع ..

- فيه .. بس دول قليلين لحد الندرة .. ومين ده أصلا اللي
عنده القدرة الروحانية لخوض غمارها .. جواها قوة لا
يمكن حد يتصورها .. فوق الوصف .. وإختيار أجدادنا
ليها مكانش هباء أو عبث .. جواها حاجات رهيبة ليها
علاقة بالفلك وأبعاده ومدة السفر ليه .. وبمقاسات
الأرض وقوة جاذبيتها ومراكز ثقلها وكل ده يربط منطقة
أبويللو دى بباقي الأرض .. وليها كمان علاقة بالملكوت
الأعلى والملكوت الأرضي .. وحاجات من دى كثير
خافية عن الناس لصعوبة فهمنا أو إستيعابنا لأسرارها ..
وكمان مش من السهل إن عقلنا البشرى يقبل أو يتصور
إن حضارة الفراعنة " التى تسمع صفوة الناس يبغبنون
مرارا بأنها حضارة بكر .. وبدائية " عدت حضارتهم الى
بيتمخروا وبيتباهوا بإنجازتها هنا وهناك .. لحد مش

ممکن یتخیلوه أو یصدقوه من التقدم العلمی والإعجازی

والروحانی ..

ثم أطرق الشیخ لبرهة .. وند عن صدره تنهيدة عميقة .. قائلا
فی جدیة ..

- إئتو عارفین الكارثة الحقیقیة فین ؟ ..

فقلت متجوبا ..

- فین ؟ ..

- إن معظم الناس لسة غفلانین .. نایمن ویشخروا ..

غایبین عن الحقیقة .. لسة بیؤمنوا بالخرافة والأساطیر ..

وماشین وراها بأقصى ما فی عزمهم .. والی بیزود الطین

بله .. إنهم بیرددوها وبیحطوا توابلهم علیها .. إشاعات

وأکاذیب وحکایات فارغة ووهمیة .. بتزود عقول الناس

ضلمة وجهل ..

مع أنه بیحث بسیط هتعرفوا إن كلمة " أبویللو " .. و

" الطرانة " (البلدة المقابلة لمنطقة أبویللو) .. فی الأصل

أسماء فرعونیة .. وإن مدفون تحتها آلاف المقابر .. أو

بمعنی أدق جبانة فرعونیة ضخمة .. فیها من الكنوز ما

يفوق الوصف وإستحالة تلاقيها فى أى منطقة فى العالم ..
ودى حكمة الخالق سبحانه .. إن سر الأرض دى يفضل
خافى عن الناس .. وميترددش عنها غير الأكاذيب
والحكايات الوهمية ..

فإقتطع فتحى الحديث ..

- وهى المقابر دى صحيح عليها رصد من الجن ؟

فأجاب الشيخ فى تحفظ شديد ..

- طبعا ..

قلت مستوضحا ..

- وإزاي بتفكم الرصد ده ؟ ..

تبسم الشيخ إبتسامة رتيبة إلا أنها ذات مغزى ..

- مع إن ده من صميم أسرار مهنتنا .. بس هقولك .. لكل

شيخ طريقته ومنهجه .. والطرق دى بنورثها عن أجدادنا

.. وللرصد أنواع كتير قوتها شديدة .. من ضمنهم رصد

الجن .. وده اللى بتسموه " عبثا " .. لعنة الفراعنة ..

وفك الرصد الموكل بيه لجنى .. عملية خطيرة جدا .. ولو

الشيخ اللى بيقوم بالمهمة دى غلط ولو واحد فى المية ..

بيجلب الكوارث عليه وعلى سكان الدور حوالين منطقة
القبر ..

حملت إلى أساريه مشدوها ..

- وإزاي ده ممكن يحصل ؟

قال الشيخ تشوبه هالة من الغموض ..

- يعنى لو قرا طلاسّم الفك بطريقة غلط .. أو إستعمل

بخور بينفر الجن أو يهيجّه أو يجلبه .. ساعتها من الممكن

جدا القبر يفتح بابه ويبلع كل اللى واقفين .. ويتوهوا فى

بير ضلّمة مفيش رجعة منه إلى أن يشاء الله ..

فإرتعدت فرائصنا وخالّجنا شعور مخيف جريرة ذلك الحكى

الخرافى .. بينما إنكمشت سماح على مقعدها تجيل ناظرها بأركان

الغرفة " فى وجل " .. إلا أن الشيخ لم يحفل بما بدا علينا من

خوف وإستطرد حديثه ..

- وفى أغلب الأحيان الرصد ده بيصيب كل الأطفال اللى فى

البيوت اللى حوالين القبر .. ويتحولوا بعدها لمعاقين ذهنيا

أو متخلفين عقليا .. ميقدروش يعيشوا من غير مساعدة

أهلهم .. والنماذج من دى كثير فى منطقة أبوبيللو .. أكيد
شوفتوهم أو حتى سمعتوا عنهم ..

إقتصصت الحديث بملحوظة حول لهجة الشيخ لكسر حدة هذا
الحديث الداعى إلى الرهبة .. خاصة عندما شعرت بقدمى سماح
تصطك رعباً .. وأحسست بحرارة وتغرق راحتها وهى تقبض
على راحتي .. فأومات لها بلحاظ عيني أطمئنتها قائلاً للشيخ ..

- أنا ملاحظ إن حضرتك بتتكلم مصرى كويس ..

إرتسمت على أسارير الشيخ إبتسامة شجية ..

- بتفكرنى بإيه ؟ .. يابنى أنا قطعت من عمرى سبعين
حول .. جيت مصر فى سن الثلاثين .. يعنى أنا عشت
فيها أكثر من نص عمرى .. أكثر ما عشت فى بلدى "
المغرب " ..

نظرت إلى فتحنى مغتاطا وهو يعيد الحديث السالف مستفهما ..

- وعلى كده ياشيخنا عندك كتب فيها الطلاسم اللى
بتساعدك فى التعامل مع الجن ؟ ..

ضحك الشيخ ضحكة هادئة ساخرة .. ثم تحدث بلهجة حادة
جادة ..

- كتب ؟! .. كتب إيه يابنى !! .. أنا من عشيرة من الشيوخ
المغاربة ورثنا عن أجدادنا مخطوطات عمرها يزيد عن
الثلاث تلاف سنة .. يعنى قبل عهد سليمان النبى ..
المخطوطات دى شديدة الخطورة على اللى يقرأها "
بجهل " .. ليها طريقة وليها نهج تتسرد بيه .. كتبها
قدماء المصريين فى ذروة حضارتهم بطريقة غريبة ملغزة ..
فيها طلاسم تخص أسرار الحياة والموت .. وطلاسم
إستخراج دفاين الأرض وكنوزها .. وتنطوى على حكمة
الأنبياء القدام .. فيها كمان تجليات العلاقة البرزخية بين
الملكوت السماوى والملكوت الأرضى .. وحاجات تانية
أكثر من كدة .. عشان كدة هى أخطر مما تتخيل ومش أى
حد يصلح يشيلها ويحوزها ..

قطع الشيخ إسترساله إثر سماعه دوى هاتفه المحمول قال يحدث
من يهاتفه .. " مكررا ما يخبره به " .. وتلك الطريقة كانت
للإستوثاق من صحة المعلومات الواردة إلى مسامعه .. وكطقس
من طقوس مهنته لإبداء الأهمية والقيمة والقدرة .. " لأمر
يدعوه الكثيرون .. خرافة ودجل " .. وينجلى هذا النحو إذا ما

كان أحدهم حاضرا .. فلا ضيم من تسريب تلك المقدرة إلى
وشائجه شيئا فشيئا عبر العبارات المكررة .. والتي تطرق
مسامعه .

قال الشيخ ..

- نعم .. وشكلها إيه الكورة دى ؟ ..

طب حطها جنب التليفزيون .. وقولى إيه اللى هيحصل ..

.. بيتقفل الجهاز تلقائيا وبتنور الكورة ..

طب وبالنسبة للراديو ؟ ..

.. بيحصل تشويش للإرسال ..

لقيت حاجة تانية معاها ؟ ..

لا .. ملهاش قيمة .. دى بس مجرد دليلة مكان ..

تمام .. طب إستنى منى مكالمة .. كمان شوية .. لحد أما

أتأكد من الموضوع ..

مع السلامة ..

ثم وجه الشيخ حديثه لنا ..

- بعذر .. ورايا شغل مهم .. هتصل بكم بعد أسبوع من

النهاردة ..

وخلينا سبيله منصرفين بأصيلتنا .. وما إن غادرنا الساحة تماما حتى أجرى الشيخ مكالمة أخرى ..

- ألو .. لقيت الشخص المطلوب الى بتدوروا عليه .. لازم نتخلص منه .. عرف أسرار أكثر من اللازم .. مكانش لازم يعرفها أويطلع عليها ..

.....

عدنا أدراجنا إلى حيث أتينا .. والأفكار والأحلام تطيح بعقولنا وتتناوح حول تلك الثروة التي سنجنيها من وراء منتج تلك المقبرة .. كانت مشاطرة الشيخ لنا في الأمر نقطة تحول .. علقنا عليها ما نربو إليه من طموحات وأمال .. وكان لقاءه بداية تطور رهيب في حياة كل منا ..

وفي حقيقة الأمر إن ما شغل ألبابنا وشاغلها .. وهيمن عليها .. كان يخایل أذهان الكثيرين من أهالى قرانا .. وخاصة شبابههم .. فلکم داعبت كنوز الفراعين وجدانهم .. وراوغت خلدہم .. ومنتہم بالثراء السريع .. ومنذ أزمان سحيقة والحكايا تتوارد إلى الأسماع .. وتجوب القرى من جدار إلى جدار حول هؤلاء الذين حققوا تلك الثروة الفاتكة ببيعة أثار واحدة .. فذاك الذى عثر

على مقبرة أسفل داره فى باطن الأرض الطينية أثناء إحلالها
وتجديدها .. والآخر الذى وجد تماثيل ذهبية وحجرية موءودة
بالثرى بمحض الصدفة وهو يحرق أرضه وغيرهم الكثيرين ..
وبات بعضهم يتحايل على الأمر للبحث " قاصدا " عن تلك
الكنوز .. فيقوم أحدهم بإستئجار بيوت الأهالى بأجور باهظة
جدا للتنقيب أسفلها .. وإن تعثر أمر الحفر " نتيجة تراص الدور
وتلصص أهلها وإحتمالية أن ينبو الأمر إلى الشرطة بوشاية
أحدهم " .. يقوم المنقبون الأثرياء بإستئجار الأراضى الشاسعة
الخاوية .. الخافية بين دروب الفيفاء الجذبة القفراء بحجة
إستغلالها كمحاجر للرمال والزلط والصخور المستخدمة فى مواد
التشييد والبناء " حتى يتأتى لهم إمكانية الحفر بحرية وأمان تحت
دثرة عجيج المعدات الثقيلة كاللواذر وسيارات النقل والمهزات
.. و إعطاء منطقية لأصوات وجلبة الحفر بوازع أنها تبعات
الإعتمال بالمحاجر " ..

ولم يعد الأمر خبيئ على أحد " حتى مخاطر التحرى والتنقيب
التى نعلمها جميعا .. بل وعائشها الكثيرين " .. فالحكايا كثر عن
هؤلاء الذين ما إنفكوا أن ينقبوا عن خبايا الأرض .. حتى

تدهمت فوق رؤوسهم أبار الحفر إلى أعماق بعيدة .. أو أصابتهم " ما نسميه بلعنة الفراعنة " المزعومة قبالة أفواه القبور .. وربما إختنقت صدورهم بنسائم القبر الجرثومية المعتقة منذ آلاف السنين ..

ومنتوج التنقيب والحفر والتحرى عن الآثار من قطع نفيسة .. كان يباع خفية في الغرف المغلقة وخلف الأبواب الموصدة .. في دثرة الليالى الظلماء .. ويُجلب من ورائها الحقائق المتفخخة بأوراق العملة الصعبة .. التى باتت مراد كل متعلق واله يحلم بالقفز إلى طبقة الأثرياء .. خاصة بعدما باتت الملايين والمليارات هى اللغة النقدية الجديدة .. على إثر الترويج لها إعلاميا دون مباشرة عبر المسابقات والبرامج والمقامرات العلنية .. وتم التمهيد والتيسير لهذا الأمر من خلال أرقام الهواتف المختصرة والسريعة ..

ولما بات الأمر ذائعا .. كانت كل بيعة أثار يشاع أمرها بين الناس .. ولا يعرف بالضبط من المروج لها ومن المستفيد .. فيُعرف ذاك الذى باع وذاك الذى إشتري .. وكم من المال جلب .. وربما تروج أرقام خرافية وهمية لصنع آلة دعائية تهيج الأمانى وتثير

الرغبة الجامحة أكثر وأكثر .. لتكتسح الأذهان وتحترق دهاليز
السر إلى رحبة العلن ..

وبعضهم تسوقه قلة الخبرة وزهد المزاولة والممارسة ..
لإصطحاب ما جلب من قطع صغيرة .. إلى الخانات وبازارت
بيع التحف بقاهرة المعز .. على أمل أن يجد لها مشتريا هناك ..
فإما أن يبرم إتفاقا مع أحدهم من المتخفين تحت سدل التجارة
بالتحف المشروعة ليطوى ويبطن الممارسة الأصلية وهى تجارة
الأثار .. " وتراهم بوفرة فى العاصمة " .. وهذا ما يندر حدوثه
.. أو الوقوع كصيد سيغ للمحتالين منهم .. وسواء أرضيت أم
لم ترضى فلن تخرج من الخان أو البازار قبل أن تنتهب نفائسك
خلصة .. ودون دراية منك " حين يسلب ناظريك المارة
والخوانيت والسيارات .. الزحام المستفز " .. إذ يبعث أحدهم
برجاله وراءك ليختلسوا ما حظيت فى دثرة المارة والمتزاحمين
لتعود إلى بلادك خالى الوفاض صفر اليدين .. خائبا " تحمل
خفى حين " ..

وبمرور الوقت وتداول الأيام .. عرف جيدا " من هم موكلين
ومنوطين بإخراج تلك الكنوز الأثرية إلى خارج القطر " السيل

إلى تهجيرها .. اذ قاموا بإبتداع الأفانين والحيل لتيسير تهريبها فى خفية .. بتوطين القطع على سبيل المثال داخل تحف وأنتيكات مصرح محليا ودوليا بتداولها .. أو لنرى مثلا جماعات البدو يغمرون التماثيل داخل شاحنات المواد البترولية .. حتى لا تشتمها كلاب الشرطة مهما بلغت درجة تدريبهم على تحرى المحرمات وسفور سترها .. وتخرج تلك الشاحنات بتصاريح رسمية من مؤسسات تحمل سمات المناطق الحرة دوليا .. ولحكا الأمر تنشب على جدران الشاحنات شعارات وشيات لشركات عالمية ذائعة الصيت .. " للتمويه " .. وحتى لا يفكر أحدهم فى تتبع ورصد تلك الآثار بإستخدام إحدى الآليات والتقنيات الحديثة المطورة والمعبرة للكشف عن الكنوز " والتي لم تسلم من التحايل عليها وتضليلها ببيانات كاذبة " أستخدمت أليات مضادة للتشويش على أنظمة الكشف والضبط .. وبذلك أصبحت القطع الأثرية فى منأى عن أعين المترصدين والمراقبين والمتابعين " البشرية منها والآلية "

ولقد ساهمت مساعدة بعض من الضباط المرتشين عديمى الضمير وقليلى الزمة .. وأصحاب المصالح فى عبور تلكم

النفايس بأمان .. ولا ضيم أن تجد أحدا من القيادات العليا هو القائم بهذه المهمة .. بتنويه أو توجيه أو حتى مجرد مكالمة هاتفية .. وذاع الصيت أنها أن شهور يونيو ويوليو وأغسطس من كل عام هى الشهور المخصصة والمتفق عليها ضمينا ومسبقا .. والتى بإستطاعة رجال من الشرطة وكبار المسؤولين للقيام بالمهام المنوطين بها فى عمليات التسريب والتهرب ..

كانت قرانا فى وقت ما تموج بالأقاويل والحكايا .. منها ما هو حقيقى وأكثرها ما لا يعدو كونه حديث المجالس والأسواق .. عن طقوس جلب هذه الدفائن النفيسة .. وممارسات تهريبها .. ولكم يخلو المجلس وتمتلئ الأعين بالأمانى إذا ما برزت حكايا كنوز الفراعين على أديم الحديث ..

هجر الكثيرين أعمالهم وتقاعسوا راضخين وساروا مغيبين .. يقتفون أثار القبور وعلائمها .. ولكم أنفقت الأموال الطائلة والثروات التليدة فى سبيل فتح إحداها أو المتاجرة بالقطع الصخرية خرافية الثمن .. بعدما باتت حلم الأثرياء كما كانت حلما للفقراء المعدمين .. مما أفسح المجال للمحتالين والمخادعين والناهبين للعب بعقول الواهين وأفئدتهم .. وخاصة الوصوليين

منهم .. والإستيلاء على أموالهم ومخصصاتهم والتخفى إلى حيث
لا رجعة .. وكثيرا ما روجت القطع المقلدة بحرفية وكفاءة فائقة
.. والقبور الوهمية المؤسسة تأسيسا بارعا على أنها أصلية ..
فضاعت في سبيلها مقدرات الأهالي ومواردهم ..
تلك الحال عايتها بنفسى .. ووقعت أسيرا تحت زيغها وبريقها
.. جريرة الفاقة والعود وزهد الحيلة .. وكانت حالتى لا تقل
وطأة عن حالهم .. فذات الحكايا مكررة .. المزيد من النصائح
والوفرة من العقبات .. بيد أن شيئا منها لا يطفى نار القلوب
وعطشها لذاك البريق اللألاء .. بصيص الأمل الذى ما لبث أن
إنفجر و إتقد ولمع كوضح النهار فى غيب الأزف وضيق الحال
.. فلا رجعة ولا إستفاقة إلا بكارثة .. " حتما سيؤول إليها
حالك .. كنتيجة منطقية لخطوك المغمور " .. إلا ما ندر ممن
ورثوا حظا وافرا .. وفسحة من المقادير الجذلى ..

"٩"

إلتقينا للمرة الثانية .. أنا وفتحي وسماح .. ومازلت مريحا قلقا بشأن المقبرة الثانية .. لما علمت ما بها من كنوز لا حصر لها .. كان داخلي صراعا حامى الوطيس تدور رحاه حول سرعة إقتناص تلك الفرصة " التى لن توافيك أبدا مرة ثانية " .. قبل أن تمتد إليها الأيدى لتتنزعها على حين غفلة منى .. وكان توترى هذا باعثا لقلقلة سكييتى وسكينة من هم ماضين معى فى ذات الدرب .. أو بمعنى أدق من أقحمتهم عنوة فى هذا الأمر .. فقد أجبرهم حبهم لى وخوفهم علىّ على إحاطتى وعدم تخلية سبيلى وأنا أقتحم غمار تلك المخاطر وحيدا ..

حدثتهم بالمخاوف التى تجتاح جأشى وتموج به ..
وتوسوس لى ليل نهار ..

- مش لازم نستنى أكثر من كدة .. مفيش وقت .. لازم
نتحرك بسرعة ..

فواجهنى فتحي يوارى ضيقه ..

- وإحنا بإيدنا إيه نعمله ؟ ..

أومأت .. " بإصبعى السبابة والوسطى " .. فى إصرار حثيث
عنيد قاصدا تنحية سماح عن الأمر ..

- هنروح أنا وإنك بكرة لحد البيت اللى فوق المقبرة ..
ونكلم صاحب البيت فى الموضوع من غير ما حد يحس
بينا أو يشوفنا .. هنعرفه بإن الشيخ مرسى هيجيله خلال
يومين .. بخصوص مقبرة تانية .. من غير ما ندله أو
نعرفه على بابها نهائيا .. وياريت نقوم بالمشوار ده النهاردة
.. هيكون أحسن وأسرع ..

فصاح فتحى وسماح فى صوت واحد ..
- النهاردة ؟ ! ..

وناهضتنى سماح قبل أن أردف مقاتلى ..

- وليه الإستعجال ؟ .. ليه مانستنash رد الشيخ ؟

فواجهتهما بكامل جسدى قائلا ..

- لو إستنينا مكالمة الشيخ ده مش هيكلمنا ليوم الدين ..

فنظرا إلى مسحتى فى دهشة .. وإبتدرتنى سماح ..

- نعم !! .. قصدك إيه ؟ ..

وأردفها فتحى مستنكرا ..

- يعنى إيه الكلام ده ؟! ..

فأثرت إهتمامهما ..

- أيوه .. زى ما بقولكم كده .. إنتو ملحظتوش إنه مחדش

رقم تليفون أى حد فينا ؟ ..

رد فتحى مصدقا لحديثى ..

- تصدق صح .. إزاي مחדتش بالى ؟ ..

فنظرت إليه ثاقبا .. مستهجنا غفلته وتناومه ..

- لأ ياباشا .. لازم تركز أكثر من كدة .. النوع ده من

العمليات " الخطرة " عايزة الصاحى والمفتح .. لأنها

مستحملش الغلط ولو واحد فى الألف .. عقلى بيقول أنه

ممكن حكاية المقبرة دى تنتهى وإحنا هنا غفلانين ..

نايمين فى العسل .. ومش هنعرف عنها حاجة مهما

حاولنا .. إلا إذا إتحررنا بسرعة .. ساعتها مش هيقدر

الشيخ يتفق مع صاحب البيت من ورا ضهرنا .. خيلنا

نمسك خيوط الحكاية من أولها عشان يبقى كل شيء

تحت السيطرة ..

فسألنى فتحى .. يستبطننى ..

- طب وإيه المانع إننا نستنى لبكرة ؟ .. علشان حتى نعرف

هندبر الموضوع إزاي .. ونفكر له فى حبكة وتصريف

محكم ..

فنطقت محتدا ..

- بكررها للمرة الثانية .. زى ما العمليات دى ما

تستحملش الغلط .. برضه ما تستحملش التباطئ

والغفلة أو التأجيل .. لازم نتحرك دلوقتى ..

وكعادتها سماح .. باغتتنا بعنادها العبثى ..

- أنا معاكوا خطوة بخطوة ..

فاض كيلى .. فرددت عليها منفعلا ..

- إنتى بتعملى كل دة علشان تضمنى إنى هتجوزك .. أقسم

بالله العظيم هتجوزك .. مش لازم يعنى تلزقى فى كده

خطوة بخطوة .. خلى عندك ثقة فىا وبنفسك شوية ..

حملقت فى وجهى .. ونظرنى فتحى مستنكرا فجاجتى وغلظتى

.. فشعرت حينها بأن مقالتى كانت صادمة .. فلم تكن بمحطها

الصائب .. فحاولت أن أدثر جملى ..

- أعمل إيه فى دماغك الحجر دى ؟! .. مش هيحصل الى بتقوليه أبدا .. المشوار ده مليون مخاطر .. ده مش زى مشوار الشيخ .. البيت حواليه غفر مسلحين ثم إنه فى منطقة مهجورة مافيهاش صريخ ابن يومين .. لما نرجع هنقولك على كل الى حصل ..

إلا أن مقالتي لم ترح عن خلدتها ما لفظت .. إذ طفقت تنظرني مقهورة " تترقق عيناها " .. قائلة ..

- ومين قالك إني هموت لو متجوزتنيش .. أنا بس مش هالين عليا العشرة القديمة .. أنا أصلا زهدت فيك .. وفاض بيا من غشوميتك ولسانك الى ما بيطلشى إهانة .. بكفاية بقا .. كفياك تجريح فيا .. وكل أما تشوفنى تكسر بخاطري قدام صحابك وتحسنى إنك مجبور عليا تهزى قلبي .. فإندفعت إليها أضمرها إلى صدرى .. فتأبت وصدتنى .. وتحجرت عيناها تنظر إلى فتحي " الذى إغترق منا حرجا وحياءا " .. إلى أن تراخت يداها حسرة وكمدا ..

- حبيبتي .. والله العظيم ما أقصد .. أنا خلقي ضاق ومبقتش عارف أنا بقول إيه .. ساحينى .. مش هسامح

نفسى لو ما ساحتينيش .. أنا حاسس إنى أنا بغرق
وبضيع كل الناس الى حواليا ..
فنطقت بصوت أخن أجش ..
- مفيش مشكلة .. متحملش نفسك فوق طاقتها .. أنا
حاسة باللى جواك ..
بيد أنها إستأنفت نطاحها لى وعنادها الأحمق ومعاذيرها الواهية
- بس برضه مش سايباك تخاطر بحياتك لو حدك .. من غير
ما أكون جنبك ..
فخلفتها ضائقا و" أعطيتها ظهري " .. بينما حدثها فتحي محاولا
إفراخ روعها ..
- متخافيش .. أنا معاه خطوة بخطوة .. وبعدين فى الحقيقة
وجودك معانا ملوش لازمة ولا فائدة .. هتعطينا ..
هناخد بالنامنك ولا من الخطر الى مستئينا هناك ؟ ..
حملقت بوجهى .. وكأنى أغمد سكيننا تلما بفؤادها .. فلم أتنبه
لذلك .. " ومن الهم ما يضحك .. أزت الطين بلة حين أردفت
مجودا " ..

- أه والله .. كلامك صحيح .. حبيتي .. مش صح لبنت
إنها تروح مشاوير زى دى .. وبعدين إعملى حسابك كل
الى باقى من ترتيبات ومشاوير بخصوص الموضوع ده
ملكيش مكان فيها .. إحنا مش بنلعب .. غلطة واحدة
ممكن تضيع الكل .. دى أمور خطيرة جدا ..

أحست أننا تكاتفنا عليها لنصغر من شأنها ومنزلتها .. وأن
تخاذلى قد جعل رفيقى يجترؤ عليها ويقارعها .. فشعرت بالهوان
.. وإلتمعت عينها .. تكظم دموعا تأبى إلا أن تطفئ .. وحدثها
رغبة مأسورة للإلتصار لذاتها فركب لبها شيطان الغباء .. فردت
بحزم عنيد .. " عبثا " .. يتلثم منطقها قهرا ..

- هيا كلمة واحدة .. همشى وراكو لو أصريت تسيبوني ..
أشفقت عليها .. فحاولت ترخية إحتقانها .. وترحيب أفق
صبرى .. فنطقت أهمس بصوت رخيم .. ما طأ حروفي وكلماتي
- ماشى كلامك .. فى الحالة دى .. معلىش ياصاحبى
هتروح المشوار ده لوحداك .. زى ما إنت شايف عنيدة
ومش قادر أقنعها .. لو راحت هتبوظ كل ترتيباتنا ..

وأطلقت إليها إبتسامة مداعبة وكأنى أسترضى طفل صغير ..
بينما أجباني فتحي " على الجانب الآخر " دهشا مستهجننا منطق
فيهى ..

- لوحدى !! .. إنت واخد بالك من الى إنت بتقوله ؟! ..
أكيد لأ .. مش هروح عمرى لوحدى .. ثم إنى معرفش
مكان البيت ..

فأومأت إليه " خلسة " بلحاظ عيني " يتشنج جفنى الأسفل
مراوغا " .. أحاول عبثا إرضاءها .. خافيا ما إنطوت عليه نفسى
من نية إبقاءها مغافلا ..

- متخافش .. الحكاية بسيطة .. وبعدين أنا هو صفلك
مكانه بالظبط ..

فطن فتحي لنتى فلم يزد .. بينما إقتربت من سماح أحادثها
بجدية .. حتى لا تنفضح تدابيرنا ..

- شوفتى .. أدينى سمعت كلامك ومش هروح .. طمنى
قلبك بقا ..

ثم نظرت إلى فتحي لأحكاأ تمويه حديثى .. فأعطيته تبياننا واقعيا
للمسير على مسامعها " وذاك أنه ولفرط حذاقتى أعطيتها وصفا

دقيقا لموقع البيت فى السابق .. وأنا الأكثر تخوفا أن تتلبسها نوبة
الغباء فتتبعنا .. ولا يصعب على قريحتك بالطبع أن تعرف من
الأغبى .. حقا كما تقول .. أنا "

ثم خليت سبيله ليذهب .. بينما مكثت لبرهة معها .. ثم خرجت
أتبعه إلى أن لحقت به .. فأفهمته أن يتقدمنى الخطو إلى موقع
الأحداث .. كنت أعلم جيدا كم هى حاذقة .. واسعة الأفق ..
لذا إنتويت اللحاق به ريثما أطمئن أنها لا ترصد خطانا فلربما لم
تنطلى عليها خديعتى

.....

فى تلك الأثناء كان المونيا وبركات فى مكتب الضابط ممدوح ..
يؤتيانه بمعلومات هامة .. مفادها أن الشخص المقصود ..
والذى قتل الضابط بحثا عنه .. هو أنا بعينى .. كانت كل
القرائن والأدلة تحوم حولى .. وخاصة بعد زيارتى للشيخ مرسى
مؤخرا .. والذى بدوره قد أجرى إتصالا هاتفيا بالضابط فيما
سبق يعلمه بأمرى .. فتجمعت الشواهد كلها حولى بما لا يدع
محطا للشك والريبة ..

لم يتباطئ الضابط إذ إصطحب قوة متأهبة بكامل عتادها ..
وتحرك من ساحة مركز الشرطة رأساً إلى البلدة قاصداً إيقاعى ..
قبل أن يفدلى خبر بهذه التحركات الخفية ..

.....

كنت أنها قد شارفت أسفل الكوبرى العلوى .. ومكثت بالمقهى
لما يناظر النصف ساعة .. أترقب الطريق خلفى .. فتأكدت بأن
سماح لم تقتفى أثرى .. أما فتحنى فهازال عند أول الكوبرى وتحت
مرآى منى .. إلا أنه لم يرنى .. وبمجرد أن رأيته يستقل سيارة
أجرة .. هرعت مسرعاً لأنهاضه لتتحرك سوياً .. بيد أن السيارة
كانت قد غادرت مسرعة كالسهم المارق ..

لوّحت لسيارة أخرى أحاول اللحاق به .. ولكن حدث ما لم
أحسب له حساباً .. فما إن إرتقيت صندوق السيارة الخلفى ..
وبدأت فى الإقلاع رويداً حتى بوغت بسيارة الشرطة تبتّر طريقها
إثر إشارة من المونيا " الراكب فى صندوقها المغطى كلص خائب
" .. أوماً بها صوبى .. فنزل منها إثنان من العساكر وإقتادانى
بأمر من الضابط " فى مقدمة السيارة .. كضابط على شريعة
العصر .. يتخير مصادره ويعرف جيداً بمن يستعين " .. وأوقعت

تحت تصرفهم عنوة .. وسحبانى فى غمرة إستفهامى وإندهاشى
من علة الإمساك بى على هذا النحو ..

.....

فيما لا يدنو إلى ثلاثة أرباع الساعة .. كان فتحى على مبعدة من
المنزل المقصود .. يتناوب النظر خلفه مترقبا ينتظر قدومى ما بين
الفينة والأخرى .. بيد أن الفضول دعاه للترجل مقتربا من
ساحة المنزل .. عبر ماشيا خلال مدق صغير لا يعدو عرضه
زهاء الثلاثة أمتار ..

ظل سائرا إلى أن ناهز نهاية المدق .. وهناك رمق ثمة منزلا ريفيا
وحيدا بين كومات الرمال المتحجرة الصفراء .. تحوطه أشجار
الجزورين وأدغال هزيلة من النخيل الصحراوى ..

كان قد إنتوى أن يبقى متخفيا بين التلال الخفيضة ريثما ألحق به
.. إلا أنه رأى مشهدا إسترعى إلتفاته عندما تحرك دائرا حول
أحدها .. ثمة ثلاث من السيارات الخاصة وسيارة نقل صغيرة
تحوط المنزل .. إرتاب فى الأمر .. وأصابه شئى من الجزع .. شعر
أن أمورا ما تدور هناك دون علمهما .. مما دفعه دفعا للتقدم دءوبا
.. تحته رغبة جامحة كاسحة ليستطلع ما يحدث ..

إقترَب من محيط المنزل على مسافة قصيرة .. ثم ترَجَل مَحْتَرِقاً
السياج الخفيض بهدوء بمحاذاة الأشجار في آخر الممر المطل على
ساحة المنزل .. وعند موطئ ما .. صدم بمرآى لم يتكهنه أو
يتوقعه .. إذ لمح الشيخ مرسى بصحبة إثنين من الرجال يحطون
على مقاعد متتالية خرزانية أمام المنزل .. " بحيث كانت
ظهورهم إليه .. فلم يتكشف إليهم " .. وثمة خفيران مسلحان
ينتصبان في قبالته رأساً عند مدخل الساحة يترقبان الطريق ..

تخفى فتحى مسرعاً في خلصة خاطفة خلف جذع متفاقم لشجرة
كافور عتيقة تسدل فروعها حتى قاربت الأرض بأشبار زهيدة
.. فوارته تماماً عن الأنظار .. ورأى على الجانب الخفى البعيد ..
الخبىء من المنزل عجاج أتربة يتصاعد كالدخان .. وتكهّن أن
ثمة أصوات حفر بفئوس وكواريك وأدوات أخرى تأتيه إلى عقر
مسامعه .. أرجأ ينظر ويرقب مغتاضاً .. يردد في نفسه ..

- الله يخرب بيوتكم .. إظهار مصطفى كان عنده حق ..
معقولة تكون الدبكة دى كلها بيدوروا على باب المقبرة
التانية ؟! ..

حاول أن يتأكد من صدق حدسه .. فترجل في هدوء فاتر رتيب
دائرا حول المنزل ليرى بأم عينة رهط من الرجال متقابلين
يزيلون التراب عن بقعة محددة من الأرض ..

.....

في تلك الأونة .. كان ألمانيا كعادته في اليومين السالفين يتلصص
متنصتا في جوار بيت سماح .. وما إن رآها تجلس في وجوم كئيب
أمام الباب تتابع قفزات إبتها اللاهية بين الأطفال .. شاردة
تحاول أن تجلى شفافية المجهول البعيد .. حتى إقترب منها
مباغتا ومتطفلا بسماحة وسفور ..

- ده إيه القاعدة الفقرة دي ؟ .. هو حبيب القلب إتأخر

ولا إيه ؟ ..

فإنتصبت واقفة في تذمر ونفور ..

- جاتك نيلة .. إنت عايز إيه مني ؟ ..

فقال لها متبجحا ..

- أنا جيت بس أقولك إن حبيب القلب ممسوك في القسم ..

مستنكى على نار تزوريه ..

نظرت إليه مشدوهة ..

- القسم ؟!! ..

فإستطرد فى بجاحته وفظاظته ..

- أیوة .. فى ضیافة رئیس المباحث بیشر ب شای بحلیب ..

وإنصرف من أمامها یمتلئ فیہ بضحكة هوسیة سافرة ..

.....

كنت آنها فى غرفة مكتب رئیس المباحث الذى طفق یحدثنى

بصوت فج ونبرة تنم عن عجرة متشفیة ..

- إنت بقا اللى مدو خنا وراك ؟!! ..

حاولت ند إتهام سینطلق به فیہ ..

- أنا معمלתش حاج

فبتر عبارتى قبل أن أتمها ..

- همسس ..

وأوما لى بینانه یأمرنى بالسكوت إثر سماع رنین هاتفه المحمول ..

الذى رفعه على أذنه رادا نداءه ..

- ألو ..

تمام سعادتك .. قبضت علیه من شویة ..

زى ما حضرتك تشوف .. أنا فى الطريق ..

وأغلق هاتفه .. وإلتقط مفاتيح كانت تفرش سطح مكتبه
متعاجلا .. ثم خرج في سرعة ملهوفة .. وأوصد باب الغرفة
.. جاءنى صوته من الخارج يأمر أحد العساكر ..

- إوعى يغيب عن عينك .. خد بالك منه لحد ما أرجع ..

- تمام سعادتك ..

ثم فتح العسكرى باب الغرفة على إثره .. ورمقنى بنظرة متحرية
تستوثق مكوثى .. ثم أغلقه .. بينما بقيت منتصبا أمام مكتب
الضابط .. وتراءى لى مشهده من النافذة قبالتى وهو يغادر ساحة
القسم مستقلا سيارته ..

.....

أما عن فتحى فقد أفتضح أمره .. وتنبه الخفراء لوجوده ..
"يتلصص ويسترق السمع " .. فأمسكا به يجرانه أمام الجلوس
وهو يناهضهم بشدة .. وما إن رآه الشيخ مرسى حتى إنتفض
نافرا من مقعده يهتف ..

- لقيتوا الواد ده فىن ؟ ..

فنطق أحد الخفيرين ..

- لقيناه بيحوم حوالين البيت ..

ظل فتحى يقاوم قيادهما وإحكام إمساكهما حتى تمكن من
إفلات قبضتهما منتزعا ببندقية أحدهما .. وأشهرها يهدد الحضور
جميعا .. ولسوء طالعها ما كاد يفعل حتى باغته وناهزه الشيخ
مرسى بطلقة نارية من مسدسه الخاص .. الخافى تحت معطفه ..
فإستقرت فى صدره إلى قلبه رأسا .. فهوى صريعا وسط بركة من
الدماء ..

ذهل الجميع وران صمت مخيف مروع على سحناتهم .. وكان
صاحب البيت أكثرهم ذعرا ووجلا إذ إنتفض بدوره من مقعده
منطرحا على الأرض إثر سماعه دوى الطلقة الجمهورى يتردد
صداه فى جنبات الخواء الجذب ..

أحس الجميع تطيرا كثيبا لما تخلفه تلك البقعة فى كل مرة من قتلى
ودماء ..

وتوقف العمال بدورهم عن الحفر .. وإنتصبوا واجمين تتقلب
أعينهم .. لم يكسر حدة هذا الصمت المطبق الثقيل سوى صوت
عجلات سيارة متآزفة .. وقد إحتاج العجاج الترابى حولها ..
نظر الجميع مشدوهين ..

كانت سيارة الضابط ممدوح .. وقفت في الجوار إلى إحدى السيارات .. بينما هبط الضابط منها مذعورا بمشهد تلك الجثة الملقاة على الأرض .. غارقة في ثجيج الدماء .. فصاح هائجا ..

- إيه ده ؟ ..

فأجابه الشيخ مستوضحا ..

- ده واحد من الثلاثة اللي جولى البيت .. لقاه الغفير بيحوم حولين البيت ..

فزجر الضابط بصوت مضغم ..

- الله يخرب بيتك .. إنت مابتفهمش .. هنعمل إيه فى الداهية دى ؟

وترجل الضابط صوب سيارته .. طارقا مقدمتها براحتيه فى عنف شديد يحتقن وجهه .. وما هى إلا هنيهة .. إبتلع شهيق عميق " ضجرا " ثم أدار وجهه شطر الخفراء .. وصرخ فيهم مهتاجا ..

- شيلوا الجثة دى .. حاولوا تداروها لحد مانشوفلها لها تصريفة ..

فإقترح الشيخ ..

- إرموها في مية الرياح .. ورا الهيش ..
ظلا الخفيران واقفين في وجوم ينظران إلى الضابط .. إلى أن
باغتهم صائحا .. مريجا بالغضب ..
- إيه .. مسمعتوش ؟! ..
فركض أحد الخفراء وجلب جوالا من الخيش .. وإقتربا من
الجثة ليدخلاها في جوفه ..

شارفت الساعة الثامنة مساء ..

تلبسنى الخوف والقلق .. إذ مازلت فى غرفة الضابط أنتظر ..
طاويا .. أفترش الملاط وألتحف سقفها .. مر ما يعدو الساعتين
وأنا فى ذات هيئتى .. أصابنى ملل رتيب مريج بريية غير مفهومة
.. وكانت الأفكار السيئة قد تزاхمت وتصارعت فى رأسى وفى
أرجاء نفسى الموحشة المقفرة .. المتطيرة .. أصابتنى بالقنوط
والضجر ..

دفعنى قلقى دفعا حثيثا صوب الباب أسترق السمع .. كانت
الأجواء وراء الباب شديدة الهدوء وكأننى فى بناية خربة ..
ترجلت بحرص شطر النافذة لعلى أرى شيئا يشعرنى بأنى
مازلت على قيد الحياة .. كانت الأجواء بالخارج أيضا خامدة .. لم
ألمح إلا عسكري واحد فى نوبة حراسته بالقرب من كشك صغير
تعلوه قبة مقعّية ..

كررت إلى حيث كنت .. وثمة أفكارا تراودنى بأن تلك الفرصة
لن تتكرر .. وخالجتنى نية مهتزة للهروب ..

ظللت مترددا لبرهة أتهيب فشل محاولتى .. إلى أن إستجمعت
قواى " أقول لنفسى كفاك جبنا " .. وإستوثقت من صدق
قرارى .. فوطنت العزم على التنفيذ " أحث خطاى خوفا مما قد
يناهزنى إذا ما إنتظرت لمزيد من الوقت " .. وكمغامر شغوف
أذكيت حماسى قبل أن يغص بريقه ..

إقتربت بهدوء تارة أخرى صوب النافذة .. وحاولت التركيز
مستعلما ما سأفعله .. فتحركت فى تأن وروية وسحبت الضلفة
الجرارة مريثا .. أستجديها ألا تحدث صوتا يسترعى إلتفات
العسكرى بالأسفل .. إلا أنها تحدثنى فى عناد وأحدثت صفيرا
خافتا بيد أنه لم ينتبه له .. فحمدت لله حسن صنيعه معى ..

ولكن ولسوء طالعى .. قبل نهاية الجرار صدر صوت صغير
وأزيز مدو جامع أسمع القاصى والدانى .. فقد كانت الضلفة
مغبرة بالأتربة التى سقط بعض حباتها فأحدث الإحتكاك بها
ذاك الدوى الملفت .. مما أصابنى برهة خلخلت ركبتى ..

رفع العسكرى " الواطن بالأسفل " هامته مستطلعا إثر سقوط
بعض السفاف على هندامه .. تحرك للأمام عدة خطوات ناظرا
صوب النافذة .. فتراجعت مسرعا فى خلسة .. أعض على

نواجهدى من خيبة رجائى فى المحاولة الأولى التى أبت وتمنعت أن تتم بسلام .. فذهبت سدى ..

ما إن تبين للعسكرى أن النافذة لغرفة رئيس المباحث .. فقد القدرة على إبداء إستياء أو تحذير .. توقف فقط لبرهة يزيل ما علق ببزته من أتربة ثم عاد أدراجه فى خنوع " يلتقم صياحه ويجر جنبه " ..

شعرت أنها اللحظة المناسبة .. فتحاملت على روعى وأخذتنى حماسة وليدة اللحظة فوثبت وثبة واحدة من الشرفة .. هاويا على كاهل العسكرى .. فأمتمته ضربة عتية بقبضة يدى مدفوعة بقوة السقوط من شاهق .. فسقط وإختل توازنه .. إنتزعت سلاحه الميرى .. ورشقته على أم رأسه حتى تهدل جسده وخار عقله غائبا عن الوعى ..

وداهمنى الخطر تارة أخرى إذ أنى لم أر هؤلاء المنتصين عند الدهليز الآخر البعيد للقسم .. والذين بدورهم تنبهوا لما حدث .. فهبوا من برانسهم متأجلين على يستفزون همهم لقتالى .. لم يكن أمامى فسحة من الوقت .. هرعت إلى حيث تستقر إحدى سيارات الشرطة وفتحت بابها بعنف لاكمائها بقوة .. وقد

كان على وشك الخروج منها إثر سماعه للجلبة مما ساعدنى على
إحكام ضربتى وحكأها .. إنترعته إلى خارج السيارة دافعا إياه
بقدمى ليسقط طريقا .. وركبت فى محطه ..

إقتدت السيارة مارقا .. تأتىنى الطلقات من كل إتجاه بيد أن
حركتى الزجراجية أفلتتنى من تصويباتهم .. إنطلقت أزمع ترك
السيارة حينما أشعر أنى بت فى مأمن من قبضاتهم .. تغرقنى
سيولا من التوقعات السيئة ..

دلفت ممسكا الطريق الإقليمى الخارج من المدينة .. كنت أقود
بسرعة جنونية .. كدت أن أصطدم عدة مرات .. لذا لم يتمكن
أحدهم من اللحاق بى .

.....

حينها .. كانت سماح قد إستقلت سيارة أجرة وإتجهت إلى المدينة
قاصدة مركز الشرطة .. إثر ما سمعته من ألونيا عن أمر
إحتجازى بالقسم ..

وبينما كانت قد شارفت منتصف الطريق .. وأثناء وجودها
بالمقعد الخلفى للسائق مباشرة .. لمحتنى من النافذة على الطريق
المعاكس .. أقود سيارة شرطة وأخترق الطريق كرمح سمهرى ..

فتأججت النار بصدرها .. فطفقت تناديني بصوت جهورى ..
بكل ما أوتيت من قوة .. إلا أن صوتها لم يصلنى .. أسكرنى
تأزفى وضيق فسحتى .. فظللت ماضيا فى طريقى دون إكتراث ..
صاحت فى سائق السيارة التى تستقلها .. فإستوقفته .. وهبطت
لاهثة مكروبة .. وعبرت الطريق متلهفة إلى الجهة الأخرى ..
شاهدتنى على مبعدة منها وأنا أوقف سيارة الشرطة إلى جانب
الطريق .. وألوح إلى سيارة أخرى .. فصاحت تناديني بأعلى
صوتها .. إلا أن صوتها كان بعيدا للغاية .. مريجا بفحيح
السيارات المارقة ..

توقفت سماح لبرهة تنتظر مقدم سيارة أخرى فى هذا الاتجاه ..
والتوتر والرغبة ينهشان جأشها .. خاصة عندما وجدتني قد
ركبت مغادرا .. وما إن ظهرت إحداها إستقلتها .. تحاول
اللاحاق بى .. وفؤادها يختلج فى نشيج عصبى .. إلا أنى كنت قد
خبوت فى منأى عن مرآها ودثرنى عجيج الطريق الغاص
بالسيارات وإبتلعنى الظلام .. فتدفق نهر من القنوط يجتاحها ..
تتوالى فى ذهنها كل الذكريات المأساوية التى مرت بها .. ويبدو
أن القدر مازال يطوى لها المزيد ..

طفقت ماضيا إلى أن هبط عند كوبرى السمك " العابر للرياح
الناصرى " .. وعلى يسار الكوبرى من الناحية الجنوبية ركب
سيارة أخرى .. وإندفعت تخرق زحام الطريق إلى أن إنتهى بى
المقام عند تخوم منطقة أبو بيللو الأثرية .. وتلك كانت آخر نقطة
يمكن أن تخوض السيارة خلالها .. لما يحف المسافة الباقية من
مخاطر وعثرات ..

كان الظلام وكأنه بحر اسود ثقيل .. يدثر الخواء الشاسع الممتد
بوشاح حالك أجاج .. جاثم فى رسوخ يخلع قلوب أشجع
الرجال .. مضيت أتحسس المدق الوعر المؤدى إلى المنزل .. كان
ي ناظرنى مباشرة من بعيد .. مضاء وكأنه جذوة من نار .. أو بقعة
وهاجة فى هذا الليل البهيم .. إلا أن الدلجة جعلت منها هالة من
نور مصفر شاحب ومريض ..

ظلمت مترجلا بحذر .. وما إن شارفت سياج المنزل عند مقدمته
حتى ذهلت ذات المشهد الذى راع فتحى من قبل .. بوغت
بمرآى السيارات تحف المنزل وتحوطه .. وكانت الصدمة الأكبر
عندما رأيت سيارة الضابط ممدوح بينهم .. فإعتملت فى نفسى
الريبة والتوجس .. أتكهن حقائق لا أصدقها ..

سرت ملتفا حول المنزل .. لأقف فى ذات المكان الذى إنتصب فيه صديقى مراقبا قبلى .. ورأيت مشهدا لن أنساه طيلة ما عشت .. وجدت الخفيرين يدخلان جثة لشخص ما فى أحد أجولة الخيش .. فى البداية لم أميزها .. إلى أن إنجلي أمامى وجهها تحت وضوح المصابيح .. وجه فتحى .. كانت الجثة له .. شاهدت بأم عينى الدماء وهى تنسدل من نسيج الخيش ..

وقفت فى مكانى متحجرا .. مشدوها بهول ما أرى .. فاغرفاهى .. أذكر أننى ولعدة دقائق لم أكن أصدق ما أرى .. فلربما كنت أحلم .. أو ضربنى كابوسا مزعجا .. أسأل نفسى مرارا .. أهذا هو فتحى حقا ؟ .. ويأتينى الجواب من أعماق أعماقى أنه هو .. كدت أن أصم من صلصلة القدر فوق رأسى .. شعرت وكأن قبضة عتية تقبض فؤادى تكاد أن توقف إختلاجه .. لقد فقدت للتو أعز أصدقائى ..

كان شعور رهيب بالذنب ينشب مخالبه فى صدرى لينهشه .. لما فعلته به جريمة دفعى له دفعا ليطوى هذا المسير المشؤوم .. أتساءل ترى كيف قتلوه ؟ .. وأحسست حينها أنى أنا من قتلته

عامدا متعمدا .. وضربنى الكمد .. تتوالى فى ذاكرتى كل أيامى معه .. أراها بتفاصيلها ..

حاولت أن أتغالب على ترحى الذى يعتصر قلبى إعتصارا .. وتابعت ما يحدث مشدوها مرغما .. على أستطيع إنتشال جثته الغرقى بين أيديهم الآثمة .. لأكرمه فى مثواه الأخير .. رأيت الخفيرين يحملانه ويسيران به بإتجاه الرياح الناصرى .. وحدثت نفسى مرعوبا ..

- هتعملوا إيه الله يحرقكوا ؟ .. يارب يكون اللى فى بالى غلط سرت وراءهما حريصا متأنيا .. أدعو ربى أن أكون مخطئا فى ظنى .. فلن أتحمل أن أرى جثته تلقى أمام ناظرى فى مجرى الرياح .. إقتفيت أثارهم حيثما .. بيد أن سيارة قادمة أوقفتنى قسرا .. كانت وثيرة تتقدمها أحزمة من الضوء الوهاج منبعثة من مصابيحها الضخام .. كانت تطل مباشرة فى مواجهتى .. لذا لم أستطع التحرك قيد أنملة ..

تحفيت خلسة .. إلى أن إستقرت على مقربة من السيارات وهبط منها رجل .. وبدى أنه السائق .. ليفتح الباب الخلفى .. فأنجلى رجل يبدو من هندامه الثراء واليسر ..

وذهلت وأصابنى ذعر شديد .. إذ كان الرجل اللواء طارق
بحيرى .. وكنت أعرف جيدا .. رأيته عدة مرات بمركز الشرطة
.. إنتصبت زهيد الحيلة .. أحملق .. يبدو أن القدر يطوى فى طياته
مالا أعلمه .. والأحداث تخفى الكثير مما يستبين تباعا ..

وقفت أفكر مليا .. ما هى العلاقة التى قد تجمع كل هؤلاء فى
تلك الساحة ؟ .. حتى أنها لم أكن قد كونت فكرة واحدة محددة
عن كنه ما يحدث .. وكأن عقلى بات عصيا .. لا يصدق تورط
هؤلاء فى تلك التجارة المشبوهة

تجاسرت على هواجسى وريبتى .. وإستفقت إلى صديقى المذبوح
وهو يساق إلى قدر مجهول .. ترجلت بهدوء أفترق أثار الخفيرين
اللذين كانا قد غادرا الساحة بالفعل وإختفيا عن أنظارى ..

سرت دءوبا أتحرى محطات أقدامهم .. أنهب الأرض نهبا .. على
أمل إنتزاع جثة صديقى من أيدي هؤلاء السفاحين .. ولكن
الوقت قد فات .. " من جملة ما عهدتوه من حظى العاثر " .. لقد
تمكنوا من عبور الطريق المحازى للمجرى المائى .. صبوا عليه
جام إنتقامهم بعدما أطفئوا شعلته .. كدت أموت قهرا ..

وتنفجر من حلقى صرخة لوعة وحرقة .. وأنا أراهم يلقون
بجثته المثقلة بحجر عتي إلى عمق الرياح الناصري
تصلبت لبرهة متحجرا بأعين ساخطة عاجزة .. زجاجة وكأنها
لقتيل فقد حياته غدرا .. وأنا أراهم عائدين يتساران وقد أنهمو
الأمر .. هكذا بكل بساطة ..

تحاملت على فزعى وروعى ودموعى التى طفرت رغما عنى
فأغرقت مسحتى .. وكررت متقهقرا قبل أن يرونى .. " أركض
متعثرا .. أتقدمهما صوب المنزل " .. وهناك وجدت المكان خاويا
تماما إلا من سائق اللواء طارق المشغل بالسيارة هناك بعيدا ..
فقد هبط الجميع إلى داخل القبر ..

رمقت الخفيرين خلفى وهما يتقدمان نحوى شيئا فشيئا .. فما كان
منى إلا أن إستطلعت فوهة القبر .. وتسللت هابطا عبر الدرج
الحجرى .. دون أن أفكر .. لم أر أحدهم .. لم أسمع إلا همهمة
تردد بعيدا فى جوف الظلمة ..

.....

كانت سماح قد توجهت رأسا إلى حيث منطقة أبو بيللو .. على
إثر ما تذكرته من وصفى لفتحى " وما وصفته لها سابقا " ..

ويبدو أنه كان خطأى من جملة ما أخطأت .. ما كان يتوجب أن تعرف موقع المكان ..

ظلت سائرة على غير هدى .. حتى أضاعها الطريق المقطوع ونهبها .. ضلت عن الوصف لا تعرف يمناها من يسراها .. لقد إبتلعت الرمال الجذباء بأكوامها وتلاها المتناثرة بعشوائية علائم الطريق وملاحه .. ودثر الظلام كل ما يمكن تمييزه فى تلك البقعة ذات المديول المتداخل والمتراكب عبثا ..

حاولت أن تجد معلما يهديها .. إلا أنها لم تكن ترى سوى مجرى الرياح الناصرى على يسارها .. شريطا مائيا ممتدا فى عناد بلا بداية وبلا نهاية .. ظلت ماضية هى الأخرى فى عناد مواز بمحاذاته إلى أن لمحت كوكبة من أشجار النخيل بارزة عند جسر المجرى .. فإقتربت منها .. وجلست عند صخرة صغيرة تنتظر ظهورى أو مقدم سيارة من هنا أو هناك ..

كان الهدوء قاتم ومخيف .. والحيرة تقلبها .. الأصوات تأتيها متمازجة خافتة وبعيدة .. ما بين فحيح ورنين ورفرفة وصداح وطرق .. كلما أتاها صوت إلتفتت صوبه فلا تجد إلا سرايا ناطقا صامتا ..

بدا وكأن مكان ما على مبعدة تعتمل به الحركة والحياة .. بيد أنها
لم تستطع أن تحدد له إتجاه .. بدت كالسائر في نفق مديد مظلم ..
تأتى الأصوات تباعا من نهايته .. كلما سارت خطوة .. تواتر
الصوت .. يبتعد تارة ويقرب تارة .. يعلو تارة ويخفت تارة
أخرى .. حتى تشعب النفق إلى أنفاق وطرائق متعددة .. لا
تعرف بأيها تمضى .. وأيها تخلى .. وكلما مر الوقت تزداد حالتها
سوءا وضياعا .. حتى باتت يرثى لها ..

.....

أما فى جوف المقبرة .. لم يكن حالى يختلف كثيرا عن حالها .. فقد
كنت أسيرا مغمورا بالسواد الفاحم والظلام الدامس .. وعلى
عكس حالها فبينما كانت هى تحاول الظهور والتكشف لأى عابر
يلتقطها من غياهبها .. كنت أحاول قدر جهدى التخفى حتى لا
يفتضح أمرى .. سرت أتلصص وأسترق السمع .. أرهفه ..
كلما سرت خطوة كانت الجلبة تقترب شيئا فشيئا .. ووضح
مصاييحهم يتوهج ويستبين صدهاء على الجدران تباعا .. إلى أن
إنجلت لى أشباحهم السوداء المرسومة بظلال ومحيطات صفراء
.. إتضححت أمامى معالم المكان .. لم تكن المقبرة الأولى مما يعنى

أنى قد أكملت الدرج الحجرى إلى عمق القبر الثانى " دون قصد
" فقد أعمتنى الظلمة عن دلائل الطريق إلا أنى إتبعته حدسى
وحواسى فناهزتهم

كان الشيخ والضابط ممدوح واللواء طارق وصاحب المنزل
والعاملان أمام مرآى مباشرة .. يغتمرهم صمت رتيب مطبق ..
لا تسمع إلا طرقات أقدامهم وحفيف أثوابهم إثر إحتكاكها
بالجدران .. إستغرقوا هنيهة فى هذا الهدوء الجاثم إلى أن دار
حديث إستهله الشيخ مرسى ..

- بسم الله ماشاء الله .. ده إيه الخير ده كله !! ..

ووقفوا لبرهة مشدوهين يقلبون القطع والتماثيل .. بينما كان
الشيخ يحمل جهازا صغيرا .. فائق التطور .. يكشف عن
الفراغات خلف الجدران المصمتة .. طفق يمرره بأديم كل جدار
يشارفه .. بحثا عن أية حجرات أو قاعات خافية خلفه .. وذلك
عن طريق تسليط نوعا من الأشعة الخارقة تعبر الكتل الصماء
وتكشف عن الفراغات البينية فتعطى تبيانها ..

وعلى حين غرة .. إنبعث من الجهاز صوت رنين متذبذب " أشبه
بإشارات موريس أو تلك الأصوات الإشارية المعبرة عن نبضات
القلب " .. حينها إنبسطت أسارير الشيخ مبشرا اللواء طارق ..
- أبشر يا حضرة اللوا .. لقينا فراغ تانى لمقبرة تالته .. وده

معناه إن المقبرة متشعبة ..

فتعجب اللواء متساءلا ..

- وده معناه إيه ؟ .. ليه أهمية يعنى ؟ ..

فقال الشيخ مستوضحا الأمر ..

- أهمية عظيمة .. القبور المتشعبة كانت بتبنى زمان لأعظم
الفراعين .. وطالما بدأنا بقبر كهنوتى .. يبقى لسة قدامنا
القبر الملكى .. وعلى قد ما لقينا من كنوز فى المقبرة الأولى
والثانية دى .. فالقبر الأخير للفرعون بتعدى كنوزه
أضعاف مضاعفة

حاول اللواء التأكيد مما سمع ..

- إنت متأكد من الكلام ده ؟ ..

فأجاب الشيخ بنوع من الإسهاب ..

- ياباشا الموضوع كبير ونادرا لما يحصل حاجة زى دى ..
طول عمرى وأنا شغال فى التنقيب .. ملقيتش قبر
متشعب مليون زى ده غير مرتين .. ودى المرة الثالثة ..
ومن سنين طويلة وأنا بدور ورا تاريخ القبور المتشعبة ..
عرفت إن ليها نظام ترتيبى معين .. متدرج .. بيدأ بقبور
الكهنة وبعدين كبار حاشية الفرعون وخاصة .. وبيتتهى
بالقبر الأكبر الخاص بالفرعون نفسه .. وكل قبر له باب
يفتح من القبر الى قبله .. إلا القبر الفرعونى له باب
مستقل مبيتفتحش إلا مرة واحدة بس عند دفن الفرعون
.. وبيتقفل بعدها على عمق بعيد فى مأمن من اللصوص
والحرامية .. وده على عكس القبور الى فوقه الى بتفتح
أكثر من مرة .. كل ما يجوا يدفنوا كاهن أو واحد من
حاشية المعبد أو القصر الفرعونى .. عشان كدة خلو
لمقبرة الفرعون باب مستقل يفتح من برة القبور الثانية
الملحقة .. ويبقى فيه من الكنوز مالا يحصى ولا يمكن
تصوره .. تاخذ العين والعقل ..

ومابتحصلش الظاهرة دى " إنه يبقى فيه قبر متشعب
بيضم قبور كهنوتى وفرعونى " إلا لما يكون قصر
الفرعون على وفاق مع المعبد الكهنوتى .. وده نادر
الحدوث فى التاريخ الفرعونى ..

ضاق اللواء بهذا الإسترسال الذى إعتبره عبثا وعديم الجدوى
.. فقال مقاطعا ..

- سييك من الرغى والكلام الفارغ ده .. فىن نلاقى الفتحة
المستقلة بتاعت المقبرة الملكية دى ؟ ..
فنظر إليه الشيخ فى رزانة متأنيا ..

- لسة هندور عليها ..

حينها أصدر اللواء أوامره ..

- خلاص .. إنهى أمر المقبرة دى الأول .. خلى رجالتك
يرفعوا كل اللى فيها .. وبعدين نبقى نشوف الحكاية دى
فنظر الشيخ إلى العاملين قائلا ..

- فضوا القبر خالص .. إرفعوا كل اللى تقدرؤا ترفعوه
بالإيد .. كبير كان أو صغير ..
ثم وجه حديثه إلى اللواء والحضور ..

- إتفضل سيادتك نقعد برة لحد ما يخلصوا نقل .. وسع

للباشا يابنى ..

وما إن سمعت أصوات أقدامهم تتقهقر .. حتى عدت أدراجى
أتخبط فى الجدران يمنة ويسرة .. ولولا جلبتهم وعلو أصواتهم
لأنفضح سترى .. شعرت أن أمرى على وشك الكشف .. فأنا
أجهل طريق العودة .. فما كان منى إلا أن إلتقطت عتلة حديدية
كانت باقية من معدات العمل .. وكنت قد تعثرت بها أثناء
سيرى خلفهم .. " تحسبا لأى خطر إذا ما ساءت الأحوال " ..
خرجت أمامهم فى هدوء وحرص .. متخفيا فى البقاع المظلمة
والظليلة حتى لا أتكشف تحت أضواء مصابيحهم الفاضحة ..
شارفت الدرج الحجرى .. وقبل أن أصل إلى نهايته .. سمعت
أصوات الخفيرين يتناوبان الحراك بالخارج " حول فوهة القبر "
.. أرجأت لبرهة مشلول التفكير والحركة إلى أن وطنت العزم ..
طللت برأسى وإرتقيت بحرص شديد على الدرج الحجرى ..
أتوخمى الحذر .. ولحسن طالعى أن كان أحد الخفيرين منهمكا "
تراه متعثرا فى إشعال سيجارة إذ كانت الهبوب شديدة " ..
فإقتنصت الفرصة ووثبت إليه بضربة قوية نافذة " توجع أغلظ

الرؤوس " على أم دماغه .. فشجتها وأفقدته توازنه .. فإنتزعت
بندقيته .. بيد أنى لم أتمكن من صفع الخفير الثانى .. فما كان منى
إلا أن أسقط سلاحه بضربة من مؤخرة البندقية فى يدى ..
وأبعدته عنوة عن باب القبر .. وأركعته ورفيقه يلتصقان
بالأرض ..

طفقت أشهر سلاحى صوب الفوهة المظلمة فاغرة الفاه " على
إثر دنو الأصوات الصاعدة وتضاخمها " .. وما هى إلا هنيهة
حتى إرتقى اللواء برأسه ثم جسده ليفجأ بالمشهد فصاح ..
- إيه ده ؟! ..

فلحق به الضابط مسرعا إثر سماعه صوت جزعه ودهشته .. إذ
أحس أن غدرا ما يحيق بهم .. فإرتقى شاهرا مسدسه .. وما إن
لمح شبكى الواقف مهددا حتى أطلق عيارا ناريا مرق بجانب
رأسى يفصلهما زهاء عدة سنتيمرات .. فتراجعت متأزفا ..
متقهقرا أتخبط فى رجلى .. حتى تعثر كاحل إحدى قدمائى عند
حافة صخرة معبدة من الجرانيت الصلد .. كانت متدثرة فى
الهيش المتكاثف ..

ولا أعلم لم كررت بذاكرتى فى تلك اللحظة بالذات إلى ما سمعته
من فيه الشيخ مرسى أثناء وجودنا فى عمق القبر ..

- .. " القبر الفرعونى له باب مستقل " ..

" خالجنى ظن أكيد أن الباب المنشود هو ذاته تلك الصخرة
الجرانيتية المعبدة .. الخبيئة عن الأنظار .. وكانت أسبابى وجهية
.. باديا أن تلك البقعة بعينها بقعة بكر .. لم تفض بكارتها بفأس
أو معدة آلية .. علاوة على أنه لا يقطن ساحة أبو بيللو وأجوارها
سوى عربان البدو .. وذاك الرجل صاحب المنزل من العرق
الفلاحى .. مما يعنى أنه حديث العهد بتلك المنطقة .. لم يعبد بها
أرضا ولم يزرعها ..

وبالتبعية فإن هذا التكتل من الهيش ليس وليد عام أو إثنان وإنما
أعوام .. بالإضافة أن نباتات الهيش والنجيل وما شابه لا تزرع
بيد بشرية فهى نباتات طفيلية .. تنمو ربانيا .. أينما وجدت البيئة
المناسبة من ماء وأرض .. وربما أرض فقط .. أو نباتات تسلب
خيرها .. كما أن لبعضها أشواك حادة كالإبر .. تقصى أى معتد
عليها .. وهذا ما رأيته بأمر عيني فى ذات البقعة العذراء .. تكتل

بالغ الكثافة من الهيش المتوغل القديم ذو الإبر الحادة يدثر حجرا
معبدا .. يبدو كغطاء بئر أو قبر ..

كما أنه المعلوم عن مقابر منطقة أبو بيللو أن بعضها يتوطن طافيا
قبيل سطح الأرض .. ورغم العوامل البيئية والرمال المائجة بها
ليل نهار إلا أنها لم تتأثر .. فلم توارى أو توءد تحت طبقاتها ..
تنجلي أغطيها مرارا .. وكأن شيئا ما يبيت ساهرا عليها فيمنع
تدثرها في طيات الكثبان .. وتلك كانت إحدى عجائب تلك
المنطقة الغرائبية التي إفتقرت التفسير والتأويل .. "

وقعت هاويا على ظهري إثر تعثرى .. متألما بأنياب الهيش التي
رشقت أنحاء جسدى .. ومتأثرة بحافة الصخرة الصلدة التي
لوحتنى .. تحاملت على أوجاعى وتحايلت عليها .. خيفة أن
ينفلت قياد السلاح بيدي .. أطبقت أصابعى بقوة وعنف على
زناد الألة .. "متخبطا ترتعش أصابعى " .. فإنبثقت منها

الطلقات النارية فياضة بعشوائية .. دون قصد ودون إرادة منى
وكانت الكارثة التى لم أحذر لها .. سكنت إحدى الطلقات فى
رأس اللواء طارق فأردته صريعا .. وأخرى إخرقت ذراع
الضابط ممدوح .. فأصبت برعب وهلع شديد .. وأفقدنى ذعرى

تماسكى وصوابى .. فإنفلت قياد السلاح من ىدى منظر حا إلى
جوارى على الأرض .. بينما ذهل الحضور .. أسكرتهم الكارثة ..
ظللت متصلبا جاحظ العينين .. لعدة لحظات .. ترتجف قدمائى
من فرط التعثر والإرتباك .. وتعلق ناظرى متواترا .. أرمق
الصخرة تحت قدمائى تارة .. وإلى الوقوف الذاهلين تارة أخرى
وما هى إلا لحظات .. حتى إستفقت من غيبتى .. إلتقطت
سلاحى قبل أن يناهضنى أحدهم وأشهرته قبالتهم مهددا .. " إذ
تكس باقى الرجال فى ذات البقعة .. من سائقين وعمال
وحراس .. إثر سماع أصوات الطلقات النارية .. وكأنى قطعة
سكر إلتف حولها نمل الصيف الشره " ..

كان الضابط حينها منظر حا يتألم بشدة .. قابضا براحته ذراعه
الأيسر المصاب .. وما إن فطن وألم بما حدث .. تساند بذراعه
الأيمن يرمق جثة اللواء طارق .. هنيهة .. وإنفجرت من حلقه
صرخة .. هائجا فى وجهى ..

- يا مخبول .. إنت عارف إنت عملت إيه ؟ ..

لم ألق بالا لحديثه .. فلن يجرى أكثر مما جرى .. ولن أذبح فى
عزيز أكثر من صديقى المسفوك دمه بصنيعة أيديهم ..

لاحظت أنه الأعين قد شدهت وإسترعى إلتفات الوقوف
أصوات جلبة العمال الصاعدين من عمق القبر .. " الذين يبدو
أنه لم تبلغهم أصوات الطلقات .. منعته وأضاعته الجدران
بالغة السمك من المرور إلى مسامعهم " .. وإستحوذ مشهد
الصندوق المحمول من الأسفل .. الحاوى للقطع الذهبية .. على
أنظارهم ..

ما إن إشرئب العامل بصندوقه إلى السطح حتى إعتمل حراكا
خفيفا بين تلافيهم .. إلا أنى ناهضت نزعاتهم ورغباتهم
بسلاحى صارخا ..

- هيا طلبة واحدة هخرم بينها راس الى يتحرك ..

متفكروش حتى .. إبعد عن الفتحة إنت وهو ..

وأومأت إلى العامل بأن يكمل صعوده .. وأن يضع الصندوق
أرضا ..

- حطه هنا .. وهات الشنطة دى وفضى كل الى فى

الصندوق فيها .. يالله بسرعة ..

فإنصاع العامل وجلا .. وطفق يخرج القطع بحرص ويودعها
الحقيبة المقصودة .. " ويزيغ عينك أنها جميعا قطع ذهبية " .. بدا
أنها أنفـس وأعلى ما فى المقبرة ..

وما إن أنهى العامل عمله .. قلت محذرا

- أقف على جنب وحت إيديك ورا راسك .. متتحركش ..

أنا بحذر مرة واحدة والثانية بموتك ..

وفى أقل من دقيقة .. صعد العامل الثانى بصندوقه ..

فأشرت إليه بأن يفرغ صندوقه بذات الحقيبة .. وقام بالعمل
حتى فرغ الصندوق تماما .. فأمرته أن يغلق باب القبر .. " فلا
أعرف من ذاك الطارق الذى يطوى نية الغدر وقد يباغتني نافرا
من الأسفل ، ربما كان شخص أو أى شىء آخر تغيب عني كتته "
كان على المرآى القريب حبلا من الليف .. ضمن أدوات الحفر
المتناثرة .. أو مأت إلى العامل الثانى بالتقاطه .. وأركعت الباقيـن
قسرا وأمرتهم بأن يضع كل منهم راحتيه متقاطعتين وراء ظهره
.. بينما أشرت إلى العامل بتوثيقهم جميعا بذات الحبل .. ما إن
إنتهى العامل حتى أطلقتـه عيارا ناريا وطن فى قدمه اليمنى فسقط

منطرحا .. ثم تحركت نحوه حذرا أوثقه بنفسى .. وتأكدت من
إحكام وثاقهم جميعا ..

كنت قد أزمعت المغادرة .. بيد أنه لم يكن بإستطاعتي ذلك دونما
أن أتأكد من عدم قدرة أحدهم على ملاحقتى .. كما كانت
تحدونى الرغبة للثأر لصديقى .. إلا أنى أحكمت السيطرة على
ثائرى .. فتعاليت على أوجاع جأشى وناره أنتوى الإنتقام فى
وقت آخر وفى ظروف أخرى .. فما شغل لى أنها سوى الهرب
من تلك الساحة الخطرة بما حوت .. قبل أن تدور الدوائر وأجد
نفسى فريسة سيغة بين براثن تلك الزمرة الغادرة .. وما وراءهم
من مافيا أخطبوطية فاسدة ومفسدة ..

إلتقطت الحقيبة .. وقد كانت ثقيلة للغاية .. فتقاويت أرفعها على
ظهرى .. وطفقت أطلق سيل من الأعيرة النارية على نحو عابث
عشوائى .. صوب كل إتجاه .. أرسق الظلمة التى قد تطوى
خطرا ما يترصدنى مترقبا ولا تراه عينى .. ثم هتفت أرعد مهددا
الأسرى ..

- هصنى كل الى يحاول يتحرك شبر واحد .. حذارى ..

ثم إنطلقت إلى سيارة اللواء الوثيرة .. " ولا أخفيك خبرا فقد
وقع إختيارى عليها بالتحديد .. فقوتها تخطف العين وتتوق
نفسك لأرجحة مقودها والإنتشاء بأنظمتها .. علاوة على أنها
من بين السيارات المتراصة الأصلح للهرب الخاطف السريع ..
تلك العفوية ذات الدفع الرباعى مما يعطيها عزمًا ينسف كومات
الرمال تحت عجلاتها نسفا .. فتخترق عباب الفيء دونما تعثر ..
وكأنك تخلق بطائرة "

إستدرت بالسيارة مارقا .. محدثا عجيجا ترايبا كثيفا .. وإندفعت
كمرح سمهرى مغادرا المكان ..

وبعد برهات مديدة .. كان الضابط وصحبته قد تمكنوا من تحرير
وثاقهم بعد عناء شديد ومحاولات جمّة .. إجتاحت الضابط فورة
من الغضب العارم الكاسح .. طفق على إثرها يثب صارخا من
فرط شعوره بالذل والفشل اللذان كسرا أنفه .. فصاح تنفجر
شرايينه ..

- أه يابن ميتين الكلب .. يا صايع ..
ثم تار هائجا فى سحنة الشيخ المصدومة ..

- خليفهم يقفلوا الفتحة كويس .. ويرجعوا كل حاجة مكانها ..

وأشار إلى أحد الخفيين بأن يحمل جثة اللواء .. وقال دون تريث أو تفكير ..

- إخلص من الجثة دى حالا .. إرميها فى الرياح ..
وصاح سافرا ..

- غوروا فى داهية من هنا بسرعة ..

وتحرك رأسا صوب سيارته .. يمسك بذراعه المصاب والدماء تتساقط وتنتال غزيرة .. تتشرب الرمال حمرتها القائمة .. أدار السيارة بعنف " متلهفا كالمكتوى بالنار " .. وسار مندفعاً يحاول اللحاق بى .. إلا أنى كنت قد تقدمته بمسافة كافية لضمان هروبى آمناً .. وإختفائى عن مرماه ..

بينما كنت أمسك الطريق بسيارة اللواء بأقصى سرعة .. وتحت أضوائها القوية .. وحزمها الكاشفة .. خيل لي بأنى قد رأيت سماح جالسة عند صخرة على جسر الرياح .. بدا ما رأيته وكأنه طيفا .. من فرط ما جرى لي في تلك الساعات الزهيدة .. إلا أنه توجب علىّ التأكد بنفسى " ولو أنك في مثل ظرفي العسر فلن تعول على شيئا على الصدف حتى القدرى منها " ..

أوقفت السيارة بعنف .. حتى كادت أن تنقلب على جانبها الأيمن .. أحدث إحتماك العجلات بالطريق الجبلى الصلد دويا صارخا مريبا .. وأخلف وراءه هياجا شديدا غامرا من الغبار .. تقهقرت لمسافة قصيرة حتى كنت أمام الصخرة مباشرة .. فبوغت بأنها سماح بالفعل .. وأن ما رأيته لم يكن وهما أو طيفا .. كانت تثب كالمجنونة تلوح لتلك السيارة التى مرقت بجانبها ولم تلتفت لنداءاتها .. صحت بها مرتبكا ..

- إركبى .. إيه الى جابك هنا ؟ ..

فردت تنظرنى فى لهفة ..

- ألمونيا قالى إن الظابط قبض عليك .. إيه الى حصل ؟ ..

إحتقن وجهى غيظا وتغر الدم فى عروقى ..

- ألمانيا؟! .. أآآآه .. حسابه تقل معايا قوى .. نهايته على

إيدى إن شاء الله ..

سألتنى تستوضح الأمر ..

- إيه اللى حصل؟! .. وفين فتحى؟! ..

فتغيرت ملامحى وتقلصت أسارىرى فى أسى ..

- فتحى مات .. إقتل ..

صدمت سمح إثر سماعها الخبر المروع .. شدهت وفغرت فاهها ..

وأخذ حاجبيها شكل هلالين شديدى القوس .. وإنفجرت

عينيهما على وشك أن تمزق محيطها .. كادت أن تفقد صوابها

إرتياعا ..

- يامصيبتى! .. قتلوا فتحى؟!!! .. قتلوه إزاي ؟ .. وإنت

كنت فىن ؟ ..

ودون إرادة منها أطلقت صرخة مفزعة .. وطفقت تولول

وتندب .. وتلطم وجهها تارة .. وتضرب براحتيها على صدرها

تارة أخرى .. يتعاضم نحيبها شيئا فشيئا .. قلت فى مرارة ..

- دبحوه الأندال بسكينة تلمة .. شوفتهم بعينى بىرموه فى
الرياح ..

نظرت إلىّ تطفر عيناها الدموع مدرارة حارة ..
- إزاي تسيبهم يعملوا كده فى صاحب عمرك ؟ ! .. يالهوى
.. يالهوى ..

صرخت فيها أن تكف عما تفعل .. فسكتت لتوها .. إلتقمت
صراخها وكتمته فى جوفها .. بينما ظلت الدموع تنهمر من عينيها
بغزارة .. وأساريرها تنقبض وتنسبط صدمة وروعاً ..
لم يكن لدى متسع من الوقت لأكفكف دموعها .. فمضيت
بالسيارة مخترقاً سدل الظلام .. دون أن تنبولى كلمة .. وما هى
إلا دقائق من السير الجنونى .. حتى أوقفت السيارة على الجانب
الأيسر من المجرى المائى .. عند حافة كوبرى السمك العابر ..
هبطت أحمل الحقيرة الثقيلة .. وأسحب سماح من يدها .. وأحث
سيرها المتهدج المنكسر أن يسرع الخطى .. ترحلنا نبتعد شيئاً ما
عن السيارة حتى ناهزنا الضفة الأخرى من المجرى " جسرنا
الكوبرى الصغير " .. عبرنا الطريق ذو الحارتين .. وسرنا إلى
الجانب من مستودع للحبوب ذو سطح مكشوف ثم إندست

متخفيا في ظلمة دغل من الدوم .. بينما أطلقت سماح إلى
الرصيف الرملي للطريق تلوّح لإحدى سيارات الأجرة القادمة
.. والمتجهة صوب البلدة القديمة ..

.....

أوقف الضابط سيارته بعدما قطع شوطا ليس بالمديد زهاء الكيلو متر من ساحة أبو بيللو وصولا إلى كوبرى السمك .. عندما لمح سيارة اللواء طارق راسية على جانب الطريق فى حالة رثة ..

إقترَب من السيارة ليجدها خاوية تماما .. وأبوابها منفرجة بهيئة ملفتة .. " داعية للدهش .. وكأنى عمدت ألا ينتشى بها أحد بعدى " .. كظم غيظه وأطرق للحظات بيد أنه ما لبث أن صرخ غاضبا ينهش الكمد صدره ..

- أَلَا أَلَمَ أَهَ .. يَابْنَ الْكَلْبِ .. يَابْنَ الْكَلْبِ ..

ثم هرع إلى سيارته وأدارها مهتاجا .. يتحرانى على الطريق المتجهة للبلدة ..

.....

آنها كنت قد أوقفت سيارة الأجرة عند تخوم البلدة القديمة ..
على رأس أحد مداخلها الرئيسية .. وأنزلت سماح أدفعها
بفجاجة ..

- روى .. ومتخرجيش من البيت خالص .. ولو حد
سألك قولى معروفش ..

فهتفت بصوت ملتاغ مخضل بالدموع ..

- طب إنت رايع فىن ؟ ..

لم آبه بحيرتها وترحها .. وحدثتها متأزفا ..

- بعدين .. بعدين .. روى بسرعة ..

هبطت من السيارة عنوة .. تدفع فى لهفة شديدة .. بينما إنطلقت

السيارة بسرعة تمسك الطريق المتجه شطر بلدة الطرانة جنوبا ..

" على الجسر الشرقى للترعة الوسطية " .. سرت لا أعرف إلى

أين ستقودنى قدامى .. ولكنى سرت ..

وما هى إلا هنيهة .. حتى بدأ شبح السيارة القاتم الغارب بعيدا

فى التقزم والتلاشى والزوال .. حتى إختفت تماما عن أنظارها ..

بينما ظلت تنادىنى فى لهفة ولوعة دون مجيب ..

طفقت السيارة تحترق الطريق تنتهب البلدة إثر الأخرى ..
تتدافعنى الأحزان والأتراح .. دون هدى .. لم أكن أدرى إلى أين
سينتهى بى المسير ..

كان الليل قد شارف إنتصافه .. حينما توقفت بى السيارة قرب
بلدة المناشى .. هبطت عند أحد المداخل الفرعية المؤدية إلى
الزراعات " المتعامدة مع الطريق الأسفلتى " .. وإنتصبت عن
ناصية المدق المشجر أرمق السيارة وهى تغيب إلى عمقه البعيد إلى
أن إبتلعها الظلام ووارتها فروع الأشجار المتوغلة المنسدلة ..

إستدرت أرقب الطريق العمومى يمنة ويسرة .. كان خاويا عن
آخره .. كعادة الطريق الزراعى المتوجه إلى القاهرة فى مثل هذا
الوقت .. إذ ينعدم الحراك .. فلا رجل ولا مطايا ولا مركبات ..
ترجلت على قدمائى مذعنا بعدما إنتهى بى المطاف هنا .. كنت
غارقا فى بحر من الحيرة والقنوط .. فلا بادرة تشعرنى بالأمل ..
وتزيد دلجة الليل من وحشة قلبى وقبضته .. والطريق بدوره
باعثا للإرهاب والرعب .. حيث تبرز على جانبيه أشجار
الليمون المتوغلة الشائخة فى رحاب مزارعها الفسيحة .. وعلى

الجانب الآخر القريب من الطريق .. ضفة التربة العريضة
المترامية أمامي يمنية ويسرة بمحاذاة الطريق ..

كانت الأجواء خامدة .. وثمة هبوب باردة تتدفق إلى وجهي ..
أسمع صدح الطيور الليلية الحائمة على سطح المجرى وفي
أحضان ضفافه .. يقارعها نقيق الضفادع وصرير الجنادب ..
كنت أتمعن خلفي من تارة لأخرى يخيلني أن شيئاً ما يتبعني في
هذا الليل الأسود الغريب .. يصلني صوت حراكه .. حفيفه
من جوف الأعراس بجانبى .. ورقع وأزيز أقدامه على الطريق
الصلد ..

كان مشهد الأشجار المتوغلة يخيفني .. تنبعث منه ظلمة مقبضة
.. أرى سراباً لأعين فسفورية تظهر وتختفي في العمق .. مما
راعني وجعل شعور بالرهبة يتسلل إلى نفسي رويداً رويداً ..

عبرت الطريق مبتعداً عن تلك الأجواء .. وجلست عند حافة
الجسر احتضن حقيقتي الملائى .. وثمة صراع أجاج ونار متأججة
داخلى .. حديثاً صامتاً يطن في جنباتي .. في عمقي .. " ربه .. ما
كل هذا الذى حدث ؟ .. أكانت حياتي تنتقص نيراً حتى أحمل
على عاتقي ذنب قتيل " تلطخت يداي بدماءه " .. أواه .. لو عاد

بى الزمان ؟ .. ما كنت طويت ذاك المسير العسير المروع .. إلى
أين سأذهب الآن ؟ .. ضاقت الدنيا برحابتها أمام عيناى ..
وأعينهم مازالت تتربص بى .. وبرائتهم مشحوزة لانتهاشى .. "
إنتفضت بغتة إثر سماع عواء سيارة شرطة مارة .. فاجأتنى يخترق
هدوء الطريق وصمته .. وكأنها برزت من جوف الأرض ..
وثبت إلى جرف الضفة متخفيا عند درك المنحدر الرملى خلفى ..
وما لبثت أن ظهرت بجسدى مرة أخرى عقب مرورها ..
أحدث نفسى فى ضيق ..

- الله يلعنكو .. هو إنتو بتيجوا ع السيرة ؟! .. داهية
تشيلكو من على وش الأرض ..

ثم صعدت إلى الطريق .. يؤلمنى إختلاج صدرى المتسارع ونبضه
المتآجل .. أند زفيرا مكروبا وأسحب شهيقا مبتورا متقطعا ..
تجتأحنى رياح الحيرة والشتات والخوف .. لم أجد بدا سوى أن
ألّوح إلى سيارة قادمة .. فالوقوف يجعلنى صيدا سيغا .. بينما
حركتى تذرئى وتوارينى بعيدا عن مراميههم ..

قدمت سيارة نقل ثقيل .. وتوقفت على مبعدة .. فهرعت إليها
وركبت .. فلربما كان أحدهم مازال يتبعنى .. ظللت طوال

الطريق ساهما شاردا .. لا تنبؤ لى كلمة .. رغم أنه ثمة حرب
دائرة برأسى المكتظ بالأفكار والهواجس .. ظل السائق يرمقنى
ما بين الفينة والأخرى محاولا بدء حديث معى .. إلا أنه لم ينل ما
يرنو إليه .. إلى أن أصابه يأس من محاولة إنطاق لسانى ..
فشاطرنى الصمت طوال المسير .. وللمرة الثانية أسير على غير
هدى .. كان الطريق يدفعنى مكروبا .. كنت قد وطنت العزم أن
أبقى بالسيارة إلى نهاية رحلتها .. بيد أن تتالى زحام للسيارات
عند نقطة ما أوقفنا قسرا .. إذ يتراءى كمين شرطى متنقل على
مبعدة منا .. إستفزنى المشهد من محطى .. فهتفت فى السائق ..
- أوقف .. أنا هنزل هنا ..

ونزلت تحت مرأى السائق الذى إزداد تعجبه ودهشته من
مسلكى هذا .. كان بينى وبين الكمين ما يقارب الخمسين مترا ..
حاولت الابتعاد قد إمكنانى .. فكررت متقهقرا للخلف ..
وبينما أنا سائر تحتضننى الدلجة والهدوء آتانى صوت زحف قطار
على الضفة المقابلة من المجرى المائى .. حاملا معه مخرجا لحيرتى
فى التنقل من سيارة لأخرى .. المقترن بإحتمال إصطدامى بكمين
أو لجنة شرطية من آن لآخر ..

كان القطار هو الحل الوحيد .. الوسيلة المثلى للتنقل فى هذا
الظلام الدامس .. لمثل حالتى .. وجدت الفكرة هوى فى نفسى
وراقتم لى .. إلا أنه فى حقيقة الأمر لم يكن لى فسحة من
الإختيارات أو قل شغلت رأسى بما حملت فوق طاقتها .. فأنطفأ
نورها بعواصف نفسى المتخبطة .. وتجمدت أفكارها الملهممة ..
وما طفا منها على أديم سلىقتى لم يعد يؤتى جدواه ..

وقفت أرمق القطار الهاجع هناك بعيدا على المرسى الآخر ..
يطلق بوقه الخرافى .. أنتوى فى قرارة نفسى أن أستقل القطار
الذى يليه .. ولكن كيف السبيل لعبور المجرى فى ذاك الوقت
المتأخر .. كنت لا أرى على مرمى البصر يمينا أو يسارا أية كبار
أو جسور ..

إلا أنى قد تذكرت أنه من عادة الصيادين المحليين على طول
المجرى أن يوثقوا قواربهم فى الأشجار النامية على الضفاف .. "
حتى لا ينتهبها التيار الجارى .." كما جرت العادة أيضا أن
يودعوا تلك القوارب فى الجهات المقابلة لمداخل القرى والبلدان
" ليسهل العثور عليها "

كنت على مبعدة غير بعيدة من إحدى القرى .. فترجلت بمحاذاة
المجرى إلى أن شارفت تخوم مدخلها الرئيسى .. طفقت أتحرى
عن قارب بالقرب إلى أن عثرت على أحدها موثق بشجرة عتيقة
وارفة فى الجوار إلى زاوية ومزيرة مياه .. كانت الساحة خاوية
تماما والهدوء يرتع بها من أقصاها إلى أدناها .. ليس إلا رجلا
يغط فى نوم عميق .. يبغيغ غائبا على مصطبة بجوار مدخل
الزاوية .. بدا من هيئته الرثة أنه شحاذ متجول .. فلم أعيره
إلتفاتا إذ لا خوف يرتجى منه .. إقتربت من الشجرة وحررت
وثاق القارب ..

هبطت بحرص على جرف منحدر الضفة .. وألقيت الحبل إلى
جوف القارب ووثبت إلى سطحه بخفة أتحرى عن المجاديف ..
وقد كانت مثبتة بجوانبه .. فأمسكت بهما وأحكمت قبضتى ..
ومضيت أدفع القارب دفعا حثيثا حريصا ..

إخترق القارب أديم المياه الهادئة عديمة الأمواج .. يمزقها بليونة
.. ظللت ماضيا إلى أن قطعت الشطر الأول من عرض المجرى
المائى فى هدوء ويسر .. إلا أنى أحسست عند تخوم الشطر الثانى

بأن القارب لا يتحرك قيد أنملة مهما جذفت .. بل يتأرجح
ويتمايل بعنف دائرا حول نفسه .. كاد التيار أن يدفعه في اتجاهه ..
شعرت بألم الرطوبة ينخر في عظامي ويوقد نارا موجعة في
مفاصلي .. " وكأن حمى الروماتيزم ضخت حممها فمزقت
أربطتها " .. أوقفت ذراعاى المتهدلان عن التجديف لأريحهما ..
تلتاع أواصلى وألواحى بتباريح الجسد المنهك .. وسقطت إلى
قاع القارب ألتف حول نفسى .. أشحذ الدفئ من عمقى
المحموم .. ينزاح البرد القارس عن أديمى ببطئ .. ثقيلًا
وموجعا ..

أرجأت أنظر إلى عمق المجرى .. كان الظلام المتكاثف فى الأفق
البعيد أشبه بفوهة القبر المظلم .. وما راعنى أن كانت كل أعمدة
الإنارة مطفأة على طول الضفتين .. ليس إلا بقعا ضوئية متناثرة
هزيلة لدور مترامية مبعثرة بين الزراعات الخفيضة .. أراها بعيدة
جدا لا يكاد ضوءها يصل لزهاء بضعة أمتار فلم تنل صفحة
المياه حضا منها .. ومهما حدقت النظر لا أرى إلا وشاحا غطيسا
يخيم على أديم المجرى .. أصابتنى قشعريرة قلقلت كل جزء فى

إهابى من محطه .. حتى شعرت وكأنه يصدر طقطقة تسمع ..
يتردد صداها فتنزع جوفى من مستقره مما أغرقنى بالجزع والنفور
تذكرت حكايا الأهالى عن المسحور .. ذاك المارد الذى يخرج من
حشا المياه يبحث فى رعونة عن حى ليغرقه .. ويسحبه إلى
الأعماق .. خال لى أن أطيافا شفيفة تهجع وتتراقص على سطح
المياه .. شعرت أن ذاك المسحور سيباغتني متوحشا يخترق نسيج
المجرى ليزهق روحى .. وكلما أمعنت النظر مدققا .. إتسعت
حدقتا عيني .. إنخرطت وغصت أكثر وإستشعرت وكأن
خيالات هذا الوحش تتصاعد كالدخان الأبيض .. لينجلي من
شفافيات المجهول ووشائجه إلى صفحة الرؤية الباردة ..
كاد فرط التحديق أن يخطف بصرى ليحيلنى كليلا .. ولا أعرف
على وجه التحديد ما الذى يدفعنى لأن أجحظ عيناى على هذه
الشاكلة .. وكأنها أنتزع إنتزاعا لهذا الهول الذى يدخل الروح إلى
جأشى .. أحنيت رأسى هاربا .. ليفيئ لى بصرى بعد شرود ..
وأطرقت ناظرا إلى قاع القارب مغيبا عيني عن تلك الخيالات
المخيفة المرعبة

وبينما أنا على حالتى تلك .. تذكرت فتحى .. كثيرا ما كان يحاكينى عن ذاك الكائن الخرافى المهيب .. مؤمنا بوجوده .. فتحى .. صديق عمرى الذى لم أبكى موته حتى الآن .. ذاك الخليل الذى أضعته إلى الأبد وبصنيعة يدي .. وفى تحول عجيب .. تبدل الخوف داخل إلى حزن وطين .. ليتجادلان فى عمقى .. بيد أن الغلبة كانت لثانيهما فى حضرة سيرة صديقى المنكود ..

بزغت من عيني عبرتان هزيلتان .. وما كادت حتى إغرورقت وكأن بئر ماء قد انفجر للتو فى جوفها .. تحركت شفتاى متممة بأنين مخضل بالدمع .. وفقدت السيطرة على حواسى وإغتمرتنى نوبة نشيج أليم متصل .. أكنم صيحة تأبى إلا أن تنبعث مدوية ممجوجة من جوفى رغما عني .. إلا أن الأصوات تضاحمت وتعاضمت فى عمقى .. وتأججت نار البين وقبض قلبى وجع الفراق .. فإثقال أنين نهتهى يتردد عبر الأثير على صفحة المياه .. إلتياح تعرقله الدموع .. ونشيج متهدج بلظى الوداع الأخير .. الأليم ..

لم أدع تلك الحال تطول .. إبتلعت شهيقا طويلا باردا وأطلقت زفيرا حارا بمدد حشايا المحترق وجعا .. أحاول أن ألملم أرجائى

التي إنفرط عقدها كمدا .. تجاسرت على جزعى أكفكف روعى
.. مسحت مقلتاى بطرف سترتى أغالب فيضهما المدرار ..
كان الوقت يمر سريعا للغاية .. تماسكت فأمسكت بالمجدافين ..
وظفقت أناوبهما بعشوائية متوترة .. أتعثر فى إرتعاشات جأش
حزين .. شارفت الضفة المناظرة .. فوطنت بالقارب عند محط ما
.. وخليت سبيله متخففا إلا من حقييتى رفيقة رحلتى .. قمت
بتوثيق القارب فى حزمة من أعواد البوص المتوغلة على الضفة ..
ثم صعدت الجرف بحرص إلى أن ناهزت أعلاه ..
كانت محطة القطار قريبة .. زهاء العشرون مترا .. سرت مترجلا
شطر بادئ رصيف المحطة .. وفى أقل من دقيقة زمن .. كنت
أجلس على أريكة فى منتصف الرصيف .. كان الصقيع يضرب
جنباتى .. أنتظر قطار أتشكك فى مقدمه تلك الساعة ..
مرت على جلستى ما يعدو الثلاثة أرباع الساعة .. أغتمر فى البرد
القارس متحملا لسعاته القاسية قسرا .. شعرت وأن وجعا مؤلما
فى كتفى الأيمن .. تهدل بما حمل من مثاقيل .. فقد كانت الحقيبة
البطينة بخبايا الأرض ونفائسها فتية بما تحوى .. برهة وإرتفع
دوى إنذار المحطة أذونا بمقدم قطار من بعيد .. لم أكن أعرف

وجهته على وجه التحديد بيد أنه لا فارق عندي إلى أى شطر
سيمضى .. ما أهمنى حينها .. فقط أن أستقل قطار ولو كان
مسافرا للقمر ..

ما هى إلا دقائق زهيدة حتى أشرف القطار .. لاهثا بلا غبار ..
على رصيف المحطة يزفر هبوبا ساخنة تستشرى كالدخان مخرقة
الأجواء الباردة ..

ركبت فى أحد العربات الوسطية .. وسار القطار متهدجا أستقله
فى عكس وجهتى صوب كفر داود القديمة البلدة التى هجعت
منها هاربا لم أفكر فى عواقب الخوض من ذات الجهة .. كنت
مدفوعا بعشوائية .. أينما دفعنى الطريق .. سرت ..

زيادة فى الحيلة .. جلست قابعا خلف باب إحدى العربات
متدثرا بدفة المعطف .. أوارى وجهى بوشاح رأس طويل .. كان
القطار خاويا عن آخره إلا من شرازم متناثرة على المقاعد ما بين
نائم وساكت .. وكانت الأجواء خامدة إلا من دقات القطار
العتية وإرتعاشاته على القضبان .. ولغط لرجلين يتحدثان مريجا
بالجلبة الصاخبة .. كا صوتهما ملغزا تائها تبتلعه الإصطدمات
والإحتكاكات الحديدية العنيفة المدوية للعربة ..

مرت برهة .. أرسلت بناظري من نافذة العربة .. كانت تتراءى
لى البنايات الواطنة على جانبى شريط القطار .. كانت بعض
شرفات الأدوار بالعمائر مفتوحة .. تنبعث منها الأضواء ..
طفت بمخيالى أستشعر ألفة كل مجلس خلفها .. أرى إنعكاسات
أجهزة التلفاز على حوائط الغرف كان يصلنى بعض همهمات ..
إشتعل قلبى لهفة لهنيهة راحة .. أتوق شوقا لأستلقى على فراش
مهاد .. وتهز فؤادى للحظة قرب بين أبى وأخى الصغير ..
كنت متعبا للغاية .. شعرت بوخذا قارصا وموجعا يستشرى فى
جسدى ولفحات هواء شديد البرودة جلبها باب العربة الخرب
.. مما جعل الألم يزداد شيئا فشيئا .. وبدأ لى أنى أخطأت الجلسة
.. فما كان منى إلا أن غادرت مقعدى مترجلا إلى منتصف العربة
.. فإغتمرت فى دفعى النوافذ الموصدة والأنفاس المجاورة ..
إنجلى صوت الرجلين المتحدثين .. وكانا من الفلاحين
المعهودين فى تلك المناطق .. فبت أميز ما يقولان .. وفى حقيقة
الأمر كان حديثهما داعيا للإلتفات ..

- بالظبط .. زى ما بقولك كدة .. لما الحكومة مسكت خليفة العربى وكشفت عليه ع الكمبيوتر .. طلع محكوم عليه غيايى يحى فى أكثر من ثلاثين قضية ..
- إيه ؟! .. ثلاثين قضية !! ..
- واللى يضحك فى الموضوع .. إن الظابط بتاع شيين " من كتر ما الغفر طلع عين أبوهم فى التدوير عليه " .. أمر كل غفير يضربه بالبلغة على دماغه
- هو كدة .. راجل من ضهر راجل ..
- إستنى بس .. رغم إنه كان فى إيديهم وتحت سيطرتهم .. فى الآخر هرب منهم إبن الجزمة .. هربه كبير قبایل بنى سلامة وحطه تحت حمايته .. ماهو يبقى عمه شقيقه ..
- معقولة دى ؟! ..
- والله زى بقولك كده .. منجدوش من إيديهم غير عمه الشيخ قويا ..
- معقولة جبروت العربان يوصل للحد ده ؟! .. يتحدوا الحكومة ؟! ..

- فوق من نومتك .. إنت مش عايش معانا ولا إيه ؟! ..
العربان عايش فى حمايتهم سوابق كتير .. خارجين عن
القانون .. اللى قاتل واللى سارق واللى ملوش متوى ..
واللى وراه ضحايا مايتعدوش .. ومحدش يقدر يقرب
منهم أو يمسهم إلا بإذن مخصوص من كبيرهم ..

- وطى صوتك .. الحيطان ليها ودان .. وإنت دغف كدة
بتطرش الكلام على عبله ..

إذ لمح الرجل تنبهى وإلتفاتى لحديثهم .. فقال ..

- هنقول إيه ؟ .. ماشى .. عملت إيه فى زرعة الفاصوليا
السنة دة ؟ ..

وإنفجرت ضحكاتهم ساخرة من حذاقتهم البلهاء ..

أما أنا .. فكنت قد فطنت حديثهما .. وعرفت ما يتوجب فعله ..
فهجرت مقعدى أتحرك صوب الباب أزمع أن أخطو خطوة ما
قد تنقذنى من ورطتى .. وتنشلىنى من شتات الطريق .. فمكثت
أنتظر وقوف القطار عند محطة بنى سلامة ..

مضى زهاء النصف ساعة .. وطالعتنى لافتة المحطة المنشودة ..
إنتظرت حتى توقف القطار تماما .. ثم نزلت مغادرا العربة ..

سرت مترجلا على الرصيف .. أتلفت حولى .. لا أعرف من أين
أبدأ المسير .. أبحث عن ما يدلنى إلى طريقى ووجهتى المبتغاه ..
إلى أن لمحت بناية الإداريين والفنيين بالمحطة .. فتقدمت إليها
أسأل أحدهم .. كيف المسير إلى بدو بنى سلامة ..

وهناك على الجانب الآخر البعيد .. كان ألمونيا طريحا على الأرض
 فى ساحة القسم .. وبالتحديد فى غرفة رئيس المباحث .. تتثال
 الدماء من فيه وأنفه .. بينما كان الضابط ممدوح هائجا تحتاحه
 موجة غضب عارم .. طفق يركله فى بطنه كمن يركل خرقة بالية
 .. ونبرة حديثه المستاء تتردد فى جنبات الغرفة ..

- إنت عارف يا بغل .. نتيجة إهمالك ده إيه ؟ ..

فقال ألمونيا متعثرا ..

- ياباشا أنا قصرت فى إيه .. ما أنا جتبه لسيادتك لحد المركز

فأشار له الضابط بإصبعه ضائقا ..

- إخرس .. مش عايز أسمع صوتك خالص .. أنا عايز

فعل مش عارف هعمل إيه فى المصيبة دى ؟

قال ألمونيا متحذلقا ..

- ياباشا سيادتك أبو العارفين .. معروف أولها من آخرها

.. فى النهاية هتتحفظ القضية زيها زى غيرها ..

فصاح الضابط محتقنا ..

- مش قولتلك مش عايز أسمع صوتك ؟ .. حط لسانك
جوه بقك وإخرس ولا عايزنى أقطعهولك خالص .. هيا
غلطتى أنا من الأول .. أنا اللي مشغل معايا شوية بهائم ..
خلاص .. الى حصل حصل .. بس المهم دلوقتى أنا لازم
أعرف إبن " الشـ .. " ده مستخبي فين ..

فأذعن ألونيا خاضعا ..

- قولى سيادتك بتفكر فى إيه .. وأنا رهن إشارتك ..

أشاح الضابط محذرا ..

- غوور من وشى دلوقتى .. ومتغش عن عيني وقت أما

أعوزك ألاقيك .. مش لازم صياعة اليومين دول ..

فاهمنى ولا أفهمك بطريقتى ؟ ..

فأجاب ألونيا وجلا ..

- فاهم ياباشا .. فاهم ..

كان الضابط قد إستولى عليه نفاذ الصبر ..

- ياالله إنشكح من وشى .. مش طابق أشوف سحتتك ..

خرج ألونيا وأغلق الباب وراءه .. بينما طفق الضابط فى حيرته

وكمدته يحدث ذاته ..

- ياأنا ياإنت يا بن الفلاحة .. والأيام بينا ..

.....

فى الغداة والشمس قد وضحت لذى عينين .. كنت أسير فى
مدق وعر بين تلال رملية خفيضة .. فى الناحية الغربية من
المجرى المائى .. حيث لا تختلف تضاريس الأرض هنا عن
ساحة أبو بيللو .. مضيت أتحرى عن قبيلة الشيخ قويا .. كان
الخواء يمتد أمامى .. أرض قاحلة جرداء .. مرتفعات وكثبان
رملية تفترش الفيءاء من أقصاها لأدناها .. تنتشر بها الهوام
وأوكار الوحوش ..

برزت طبوغرافية المكان العشوائية أمامى توارى أى معلم لمظاهر
الحياة .. أو قل تفقده .. فلا ساكت ولا ناطق .. لا يسمع سوى
صدى دبدة قطار السابعة على المدى البعيد .. إخرقت أحد
الطرق غير الممهدة تحوطنى تلال الرمال وطفقت سائرا عبر
المدق المنحدر لأعلى أمامى .. وكأنى عند سفح جبل عريض ..
كلما سرت لمسافة أظن أنى قد شارفت قمة المنحدر إلا أن الطريق
يمتد أمامى يقابل السماء عند الأفق البعيد ..

أَمْضَيْتِ فِي مَسِيرِي هَذَا مَا يَعْدُو السَّاعَةَ مِنَ الزَّمَنِ .. وَبَدَأَ لِي أَنْ
هَذَا الطَّرِيقَ كَثِيرَ الْعَثَرَاتِ لَا يُجِوبُهُ إِنْسَانٌ مَرْتَجِلاً .. إِلَّا أَنْ ثَمَّةَ
أَثَارٍ مَنْطَبَعَةٍ لِعَجَلَاتِ سِيَارَاتٍ كَانَتْ بَادِيَةً تَبْرُزُ وَتَغْطُسُ فِي أَدِيمِ
الرَّمَالِ تَحْتَى ..

كَانَتْ الشَّمْسُ فَوْقِي تَعْلُو رَوِيداً رَوِيداً إِلَى كَبَدِ السَّمَاءِ أَذُونَا
بِإِقْتِرَابِ الضُّحَى .. وَبَدَأَتْ الْحَرَارَةُ تَكْشُرُ عَنْ أَنْيَابِهَا الْحَامِيَةِ ..
وَتَأْتِينِي اللَّفْحَاتُ السَّاخِنَةُ مِنْ كُلِّ إِتْجَاهٍ .. وَالْحَقِيبَةُ الثَّقِيلَةُ قَدْ
أَصَابَتْنِي بِإِجْهَادٍ شَدِيدٍ حَتَّى أَنَّى لَمْ أَعُدْ قَادِرًا عَلَى إِحْكَامِ حَمْلِهَا ..
فَطَفَقْتُ تَتَأَرَّجِحُ عَلَى عَاتِقِي .. وَقَعْقَعَةُ الْقَطْعِ الذَّهَبِيِّ تَتَرَدَّدُ
وَتَتَصَاعَدُ مِنْ جَوْفِهَا ..

جَلَسْتُ عَلَى كُومَةٍ مِنَ الرَّمَالِ مَتَعِباً .. يَنْخُرُ الْهَزَالُ فِي كُلِّ أَرْجَائِي
.. كَانَتْ الْهُبُوبُ الْمَغْبِرَةُ بِالتَّرَابِ النَّاعِمِ تَضْرِبُ جَسَدِي وَتَعْبُرُ
الْفَضَاءَاتِ حَوْلِي تَصْدُرُ فَحِيحاً مُخْتَلِطاً بِصَفِيرِ صَحْرَاوِي .. وَبَغْتَةً
.. جَاءَنِي صَوْتُ مَوْتُورٍ دَائِرٍ مِنْ بَعِيدٍ .. كَانَ الصَّوْتُ يَقْتَرِبُ
شَيْئاً فَشَيْئاً عَبْرَ الْمَدَقِ الْوَعْرِ .. مِمَّا يَعْنِي أَنَّهُ لَيْسَ لِمَاكِينَةٍ ثَابِتَةٍ .. بَدَأَ
وَكأنهُ هَدِيرُ لِمَرْكَبَةٍ قَادِمَةٍ إِلَّا أَنِّي لَمْ أُمِيزْ كُنْهَهَا أَهْيَ سِيَارَةٍ أَمْ آلَةٍ
أُخْرَى

ظهر القادم من بعيد .. وإتضح أنها مركبة مكشوفة ذات ثلاث عجلات .. " تروسيكل " .. هجعت من محطى أرفع حقيتي .. لم أنتظر إقترابها فطفقت ألّوح لها من بعيد " ملهوها كالمخبول " .. رغم علمى بأنه لا منافذ أو طرقات فرعية منبثقة من المدق الرئيسى يعنى أنها لا محالة ستمر أمامى .. إلا أن شدة إجهادى وشوقى للإستلقاء والراحة ولو لدقيقة واحدة دفعنى أن أسترعى إلتفات قائدها قبل أن يمرق أمامى دون أن يتنبه لى .. ما هى سوى هنيهة .. حتى توقفت المركبة قبالتى مباشرة فحدثت قائدها ملهوها .. أستند براحتى على حافة صندوقها الخلفى ..

- لو سمحت .. إزاي أوصل لقبيلة الشيخ قويا ؟ ..

يبدو أن السائق قد أشفق لما بدا بهيئتى من حال مزرية .. فقبل أن يوصلنى دون إبداء أية إستفهام .. رغم أن المركبة كانت محملة عن آخرها بالحشائش والبرسيم بغرض إطعام البهائم .. ركبت فى صعوبة ومضينا إلى حال سبيلنا

وبعد قرابة النصف ساعة كنت قد شارفت ساحة القبيلة .. ولم تكن قبيلة بالمعنى الحرفى .. فلا ثمة خيام أو ما شابه .. وإنما

كانت عبارة منازل طينية بسيطة تتموقع وسط تلال الفيفاء
الشاسعة النائية .. البعيدة عن مرامى الأبصار .. ومستقرات
الإنس ..

أنزلنى السائق ولم يلتفت إلى سؤالى عن محط نزل الشيخ قويا
تحديدا .. فسرت أجوب حوارى القرية الصغيرة .. أستدل من
المارة تباعا عن المنزل .. إلى أن صحبنى أحدهم إليه ..

كان المنزل يحط عند الحد الجنوبى من القرية .. بناية فسيحة
مشيدة من الطوب الطينى اللبن .. كحال باقى البيوت .. تحوطها
الأدغال الكثيفة من النخيل .. وثمة سياج حديدى دائر مديد
يحيط بحظيرة للماشية .. ورأيت قناة مياه ضيقة .. " مروى " ..
بطول القرية من الجانب الشرقى تنتهى عند بحيرة إصطناعية
للمياه العذبة .. يبدو أن الأهالى قد حفروها لتأمين إحتياجاتهم
من الماء .. تستمد مياهها من مصدر مجهول بدا وأنه المجرى
المائى للترعة الوسطية .. ولا يعرف بالضبط كيف تمكن هؤلاء
من إيصال المياه العذبة عبر تلك المسافة الشاسعة بين المجرى
والقرية ..

وفى خلفية المنزل تمتد خطوطا متوازية من الصوب الزراعية ..
وما أثار إندهاشى هذا الكم الهائل من الكلاب الضخمة العفية
التي أتت فى إستقبالى والمنتشرة حول المنزل بغزارة ..

تقدمت حثيثا يعرقلنى الخوف من سوء الإستقبال وتدفعنى
الرغبة فى الخلاص من تلك الورطة التى أسقطت نفسى فى
شراكها .. كان صدى نباح الكلاب يضخم من هولة الخوف
داخلى .. شعرت بفؤادى يختلج إختلاجا عنيفا يكاد أن يمزق
بعضه البعض ..

ظلمت على حالتى تلك .. أتقدم تتخبط قدماى إلى أن خرج
أحدهم من إحدى الصوب إثر سماع صوت النباح المدوى .. وما
إن إقرب منى حتى حدثته .. تتعثر الكلمات على منطقتى ..

- سلام عليكم .. كنت عايز أقابل الشيخ قويا ..

أدار الرجل ظهره لى مناديا ..

- حمدان .. يا حمدان .. ضيف يريد الشيخ إقويا ..

طالعنا من باب مضيفة المنزل .. رجل فى طور الثلاثين ..
فى رعان شبابه .. أساريه صارمة حاد الملامح .. متجههم الطلة ..
ترجل إلينا فى خطوات رزينة مفتعلة ..

أوماً إلى الرجل الذى كان فى إستقبالى بالإنصراف .. ثم إقترب
منى قائلاً ..

- ياهلا .. إتفضل فى الديوان .. الحان ألفى خبر للشيخ ..
ولجت غرفة الضيوف مطرقا .. وكانت غرفة فسيحة .. شديدة
البراح .. وكباقي البيوت كانت مسقوفة بعروق الخشب
والألواح .. يتوسطها موقدا للفحم .. "وثمة جزع شجرة
جزورين جاس قصير مندرس فى جمره المطفأ " .. ومفروشة
بحصير من أعواد السمار .. وثمة مشاعل زيتية كبيرة ناشبة على
الحائط .. تتجاور جنباً إلى جنب مع المصابيح الكهربائية ..
ورأيت على صفحة أحد الجدران شيئاً ما راعنى نسبياً .. فقد
لمحت ورنه كبيرة تفوق المتر طولاً .. محنطة ومثبتة .. وثمة
حيوانان أخران محنطان أسفلها .. أغلب الظن أنها لثعلب وجرو
ذئب جبلى .. إندهشت لمدى وله وتعلق تلك القبائل بإقتناء
الحيوانات الغير مألوفة .. المحنطة .. بل ووضعها فى ساحات
الضيافة .. وعلى مرأى من ضيفانهم .. وما علمته فيما بعد أن هذا
السلوك إنما هو ضرب من الزهو والافتخار ..

وفى الجوار ثمة وسادات وثيرة موزعة على الجوانب الأربعة
للغرفة .. جلست على إحداها .. واضعا الحقيبة الثقيلة على
جانبي الأيسر إلى الداخل بحيث يصبح باب الغرفة على الجانب
الأخر .. ومكثت أنتظر ..

فى غضون الربع ساعة .. ولج من الباب عجوزا أشيب إلا أنه بدا
كامل الصحة عتيا .. تنجلى عليه علائم القوة رغم قدم سنه ..
كان قصير القامة عريض المنكبين .. ذو تفاصيل غليظة ولوح
حديدي .. وراحتين متفتحتين بإستطالة وخشونة تبدو قبضتهما
بارحة الفتوة .. جاءنى حافى القدمين .. ضخم الجثة حتى بت
بجواره هزيلا معظما .. كان يرتدى جلبابا أبيض طويل ذو لمعة
ملحوظة .. يعلو ظهرها عباءة بنية وثمة شال بدوى بسيط فوق
رأسه غير مهندم .. رحب بى على طريقته ..

- يا هلا يا هلا .. مرحى بضيف ماتوقعنا زيارته ..

إنتصبت قائما .. مندهشا من ذاك النحو فى إستقبال الضيوف
والترحيب بهم .. أجبته تحيته أشعر شيئا من الوجمل ..
- أهلا بك .. ياعمى الشيخ ..

دعانى للجلوس .. بينما جلس هو على مبعدة قريبة .. يفصل بيننا
محط وسادتين متعامدتين .. بدأت الحديث ..

- يا عم الشيخ .. أن.....

ولم أكمل جملتى إذ ناهضنى ولم يعطنى مجالا للحديث .. هاتفا
لأهل الدار ..

- واجب الضيف يا ولد ..

ثم نظرني قائلاً ..

- هسا تاخذ واجبك الأول .. بعدين تسولف باللى فى
حلقك ..

وبعد دقائق زهيدة .. تقدمت فتاة على مقربة من الناحية الخارجية
للباب .. تحمل صينية عليها طعام بدوى وثير .. كانت هويدا ابنة
الشيخ قويا .. فتاة متوسطة الجمال .. فى طور العشرين .. ذات
ملامح بدوية رقيقة .. وإعاقة بسيطة فى قدمها اليسرى .. لذا
كانت تتوكأ على عصاة صغيرة .. بيد أنها قدمت هذه المرة دون
عصاتها ..

كانت تتحامل فى سيرها على قدمها اليمنى .. تغالب إعاقتهما ..
وقبل أن تلج من الباب ناهضها أخوها الأكبر بسنوات زهيدة ..
حمدان .. وأخذ منها الصينية ساخطا .. مستنكرا سلوكها ..

- يا حيف عليك ويش تسوى ؟ .. وينك رايحة ؟ .. لفينى
هاذى وما أريد ألمح خيالك هان ..

ثم أشرف علينا حمدان واضعا الصينية على منضدة خفيضة
بإستطالة أشبه بـ "الطبلية" .. ودعانى الشيخ لتناول الطعام ..
كنت أكل وحيدا .. ولم أنبس بينت كلمة طوال جلسة طعامى ..
كما لم ينطق أحدهم .. ليس سوى نظرات حمدان المتلصصة .. إذ
طفق يرمقنى متناوبا مما أصابنى بتوتر شديد .. ألوك الطعام
بصعوبة بالغة لينزلق إلى جوفى دون أن أمضغه أو أذوق له طعما
.. غمرنى العرق البارد .. وراعنى أن فى أسارير الرجل ثمة
إمتقاعا .. بينما بقى الشيخ قويا يتلاعب بلحيته البيضاء .. ينظر
الأرض تارة وإلى البراح خارج الباب تارة أخرى ..

لم أستطع المكوث على تلك الحال طويلا .. فقد أجهدتنى
وأغرقتنى خجلا وحرجا .. تقهقرت إلى مسندى أحمد الله ..

- الحمد لله .. يدوم خيرك يا عم الشيخ ..

نظر الشيخ إلى حمدان ..

- إرفع الزاد يا حمدان .. وهات الشاي ..

رفع حمدان الصينية .. وما كاد يخرج من باب الغرفة حتى بوغت بهويدا على مقربة تحمل صينية الشاي .. أخذها مغتاظا .. يتوعدّها بحساب عسير .. ووضعها أمامنا .. وضايقني الشيخ ..

- إنفضل يا وليدى ..

أخذت كوبا ورشفت رشفة واحدة ثم أرجأت قليلا .. حينها حاولت أن أبدى أمرى ..

- يا شيخ .. فى البداية أنا معاية أمانة غالية قوى .. وقاصد الأمان والحماية عندك ..

فقال لى الشيخ .. يطمأننى ويربط جأشى .. ومداعبا ..

- أمان يا وليدى .. ماتخاف ما عندنا سارقين ولا قطاع طريق ..

نظرت إليه حرجا أود أن أضيف كلمة يتحشرج بها حلقتى .. فإبتدرنى قبل أن ألفظ ..

- ولا حكومة .. إطمن ..

رمقته واجما دهشا .. كيف يقرأ أفكارى بهذه السرعة واليسر
وكأن لبي كتاب مفتوح أمامه .. لم يكثرث بردة فعلى إنتصب
واقفا ولحق به حمدان فى وقفة واحدة وكأنهما على إتفاق مسبق ..
قائلا ..

- إلفى أمانتك لحمدان .. لجل لا تضيع ..
ووجه حديثة لحمدان ..

- يا وليدى .. خذ أمانه الضيف إودعها فى أوضتى .. بعدين
ريه جمال قرينتنا ..

فى الحقيقة .. وإلى ذلك الوقت لم أكن أعى أو أستوعب شيئا مما
يحدث .. وإعتملت بداخلى رغبة فى الإختفاء حتى لو إبتلعتنى
الأرض .. ولكن لا مناص .. لا مفر من المقدور .. أعطيت
الحقية لحمدان .. ووقفت إحتراما للشيخ وهو يخلى سبيلنا ..

.....

منتصف النهار .. وثمة إلتفاف حميم حول " طبلية " صغيرة
بصالة منزلى المتواضع بمنطقة التجارة .. يجتمع حولها إبنة سماح
وعلى الجانب الآخر أخى الصغير .. تتوسطهم سماح تتناوب
إطعامهما .. واحدا تلو الآخر .. وبالقرب فى زاوية الصالة يتوطن

أبى القعيد تناظره منضدة صغيرة تعلوها صينية تضم طعامه
المشار إليه من الطبيب ..

أنها الطفلان طعامهما وقاما مباشرة يهرولان رأسا إلى الساحة
أمام المنزل .. يلهوان .. وفي ذات الآن كان والدى ممسكا بقماشة
منزلية يمسح بها يديه بعدما أنهى هو الآخر طعامه .. إنتهت
سماح من حمل الأطباق وتنظيف " الطبلية " ثم إقتربت من
والدى لتحمل المنضدة المنصوبة أمامه تحدته ..
- هنيا ..

فنظر إليها مبتسما إبتسامة سجية ..

- إنتى يابنتى محطيش ولا لقمة فى بقبك ..

نظرت إليه مقتربا .. وقبلت رأسه ..

- خيرك سابق ودايم ياعمى ..

حملت سماح الصينية وأفرغتها ثم أودعتها المطبخ .. ثم خرجت
لتنحى المنضدة جانبا .. كان ظهرها لأبى حينما أطرق للحظة ثم
طالها بسؤاله المتكرر فى تلك الأيام ..

- لسة مصره برضه متقوليليش مصطفى راح فىن ؟

شخصت سماح تنظر إلى الحائط يائسة خزيانة إلا أنها إصطنعت
إبتسامة مستعارة وإستدارت تقول فى خجل وإنكسار ملحوظ ..

- مش قولتلك إنه سافر يشتغل ؟ ..

نظر إليها ثاقبا وكأنه يستقرئ ما يدور بعمقها ..

- عيب يابنتى تضحكى على راجل عجوز زىي .. أنا مش

مصدقك .. إنتى بتكذبى ..

تلعثمت وتعثر منطقها فهى لا تجيد الإصطناع والتمثيل ..
وأطرت للحظات لا تجد ما تجيب به ويسكت وساوس رأسه ..
لم تتحمل نظرات الإتهام البازغة من عينيه كطلقات الرصاص ..
فإنسلت من أمامه منسحبة فى هدوء مختلس .. وأدارت وجهها
تتحرك متثاقلة صوب الباب تنادى إبتتها .. هرعت الطفلة إلى
جوارها .. بينما أدخلت أخى الصغير .. وطفقت تهندم وشاح
رأسها .. إستعدادا لرحيل قسرى .. وحدثت والدى فى تسارع
مكروب ..

- انا ماشية ياعمى .. هعدى عليكم بكرة ..

وتسللت هاربة من نظراته إلى خارج المنزل .. عابرة الشارع
القصير ..

سارت سماح حائرة حزينة .. لا تعرف ما حاق بى .. ولا تدرى
بأى حديث تريح وتسكت إستفهامات أبى المستمرة وسيل
هواجسه وريته وتكهّناته .. كانت كلماته توجعها .. تعاقبها على
وزر لم تقترفه .. جلادا لا يمل ولا يكل يرشقها ويوصمها ليل
نهار .. كانت كالأعمى يدفع إلى طريق يحمله ويراد منه أن يحسن
الخطو ويصيب المحط وأن يتخطى عثرات لا يراها .. كانت حالة
مربكة وموجعة .. ولا تدرى مناصا منها ..

إستفاقت سماح على صوت إبتتها التى توقفت بغتة باكية .. فقد
كلت من السير مترجلة لمسافة كانت فوق طاقتها .. نظرت سماح
حولها كالتائهة لتجد أنها قطعت شوطا مديدا حتى ناهزت
كوبرى السمك .. فإنحنت تمسح عيني ووجتتى إبتتها ثم حملتها
.. وإستأنفت مسيرها عبرت إلى الناحية المناظرة من الطريق
لتلّوح لإحدى السيارات المتجهة صوب البلدة .. إلا أنها وأثناء
إجتيازها فاصل الطريقين لمحت حشدا مهيبا من الناس عند
ضفة الرياح الشرقية على بعد زهاء الثلاثون مترا من الكوبرى ..
إنقبض فؤادها بعنف .. وتكهنت أمر ما أصابها بالريبة والوجل
.. بينها وبين الهاوية أشبار ..

إقتربت من سياج الكوبرى الحديدى تمعن النظر .. إلا أن الجمع
الغفير المتكدس بعشوائية هناك بعيدا عند الضفة أفقدها القدرة
على التمييز .. فما كان منها إلا أن سألت أحد المارة المهرولين إلى
ساحة الأحداث عن كنة الأمر .. فأخبرها بأنهم إنتشلوا للتو
جثة غريق .. أنزلت إبتتها بثقل حتى كادت أن تسقط من بين
ذراعيها ..

هرعت سماح إلى حيث التجمع البشرى تسحب إبتتها لاهثة ..
إندست بين الناس حاولت التسلل إلى العمق .. مركز الإحتشاد
.. إلا أن التزاحم المتآزف منعها وحجبها .. لم تستطع الوصول
إلى حيث تستلقى الجثة .. وقفت شاردة مريجة .. تتسمع
همهمتهم وململتهم وأيديهم التى تصطفق أسفا .. وترقب
رؤوسهم المحنية فى ترح وأسى ووجوههم المفعمة روع وجزع ..
إلى أن نبا إلى مسامعها كلمات أحدهم بأن الجثة كانت داخل
جوال من الخيش مثقلة بصخرة ضخمة عتية .. علقت بشباك
أحد صيادى الرياح .. صعقت لا تصدق حدسها والفرع الذى
يساور قلبها إلا أن صوتا مدويا إخترق الحشد لسيدة تهرول

صوب الجثة صارخة منتحبة .. وكانت الصدمة بعينها .. إنها هى .. أم فتحي ..

تأكد لها حدثها .. وفزعها صدق قلبها .. كانت الجثة المتشلة لفتحي !! ..

إندفعت السيدة إلى جثة ابنها الراقدة على الضفاف بيد أن أحد العساكر حال بينها وبينه ماذا ذراعيه يحجزها .. فدفعته بقوة قلبها المكلم فهورى منطرحا على ظهره .. تساند قائما ليمسك بها ثائرا إلا أن أمين الشرطة أشار له بطرف بنانه أن يخلى سبيلها وألا يحول بينها وبينه ..

إنكبت السيدة على جثمانه المهترء .. فتكومت تصرخ وتبكي أيامه التى ثرثرتها رياح الفقد والوداع الأليم .. والنهاية المأساوية .. وإنتابتها فورة صرع ونشيج حار أليم .. فراحت تحثو الرمال على رأسها وتمزق جيوبها .. وتضرب صدرها براحتيها ضربات موجعة .. تتحسس جلده الذى صار مجرد لحم مكشوف وأعصاب عارية .. إجتاح قلبها إعصار مخيف ينزف قهرا وكمدا تسحقه سيول الهم مدممة كاسحة .. تتوسل إليه بنظراتها أن يتكلم .. أن ينطق .. تستجدى الحياة أن تنبعث فى شعلته التى

أطفأها الغرق ذبيحا .. والناس وقوف الأسي أسيان على
صفحات وجوههم .. يريزح الوجوم والترح العميق على
صدورهم ..

تحجرت سماح في محطها تحتضن إبتها .. تغدق عيناها بدموع
حارة صامته .. لا حركة إلا شهيق وزفير هادئين في موات ..
تحمل في صدرها مرارة دفينة وأنين خافت مكتوم .. لم تجرؤ على
الإقتراب منها ومواساتها في مصابها .. إستحت وغمرها الخذى
فهى الوحيدة الأعرف بكنة ذبح عزيز قلبها وفلذة كبدها ..

راعها صراخ السيدة ونحيبها وأدخل في سريرتها توقعات سيئة
لحبيبها الغائب .. يخال لها أنها ستره في ذات المصير .. إنزوت
مغادرة ساحة النواح والجمهرة التى مازالت تستقطب وتجلب
الهارعين .. من كل حذب ينسلون .. سارت سماح متهدجة إلى
أن خبت الأصوات شيئا فشيئا .. إلا أن دموعها لم تجبو .. ظلت
مدرارة مدرارة حتى وارت عينها فلم تعد تبصر أمامها ..
فوقفت متثاقلة .. إنكبت على رصيف الكوبرى ترمق شمس
الأصيل الغاربة .. رأتها عيناها الغارقتان دموعا هلامية .. تذوب
حمرتها فتتثال .. وكأنها هى الأخرى تأفل باكية ..

"١٣"

كان الضابط ممدوح فى مكتبه .. يغمره السخط والإستياء لما قرأه فى الجريدة .. وكانت العبارات اللاذعة الواصمة مرئية بوضوح وجلاء .. بخط عريض .. " إهمال ضابط شرطة يؤدى إلى مقتل رئيسه فى العمل " .. وثمة صورة له واضحة المعالم فى الجوار من الخبر ..

كاد الضابط أن يموت غيظا وحسرة .. فأمره جلل ينتظره لا محال .. وتحركات خافية تعتمل من وراء ظهره .. ولا ريب أنه سيفقد وظيفته عما قريب ..

تسمع طرقات الباب ..

- إدخال ..

يدخل ألونيا يستحى وجلا ..

- تحت أمرك يا باشا ..

أزاح الضابط الجريدة من ناظره ساخطا .. محدثا ألونيا بنبرة سخرية ..

- إيه ؟ ، هو سعادتك مابتجيش إلا لما أبعتلك الى يجيك ؟

تسمر ألونيا فى محطه .. وقال متعثرا .. متلعثا ..

- هو فيه حاجة حصلت ياباشا ؟ ..
- فناهضه الضابط مهددا ..
- أنا لازم أرميك فى الحجز عشان تبقى تحت عنيا على طول
- .. شغلك مبقاش عاجبنى .. وشكلى هستغنى عنك
- قريب .. شكلك هتوحشنى يالمونيا ..
- إقترب ألمونيا عدة خطوات فى حذر يقول ..
- ياباشا وأنا قصرت فى إيه بس .. ده أنا حتى جاي
- لسعادتك بفكرة كويسة .. هتخلى الواد ده يحب ويركع
- تحت رجلك ويسلم نفسه .. أستأذن سعادتك أقولها ..
- صاح الضابط فيه ضائقا ..
- إخلص وبطل رغبى ..
- فإقترب ألمونيا أكثر حتى أصبح على مقربة يناظر الضابط مباشرة
- ياباشا مصطفى ليه أب عجوز ومشلول .. لو سعادتك
- قبضت عليه ده هيجبره يحب يسلم نفسه ورجليه فوق
- رقبته ..
- إنتصب الضابط مستديرا إلى حيث النافذة .. يحدق فى عمق
- الأفق قائلا ..

- ملوش عيال ؟ ..
- فأجاب ألمونيا بالنفى ..
- ملوش غير أخ صغير سعادتك ..
- أطرق الضابط للحظة ثم ند عن صدره دخان سيجارته الكثيف
- قائلا ..
- تمام .. نجيب الإتين .. ونشوف غلاوتم عنده ..
- تحرك ألمونيا يناظر الجهة الجانبية لوجه الضابط فى وجل وتوجس
- وفيه مراته كمان ياباشا ..
- فنظر إليه الضابط وقد إنبسطت أساريه .. ثم جلس على مقعده
- ينفث دخانه الغليل قائلا ..
- وفيه أحلى من كدة .. روح مع الأمين على فى البوكس ..
- وهاولى الحثالة دول ..
- رشق ألمونيا الضابط بنظرة خبت ولؤم مبتسما ..
- إنت تؤمر ياباشا ..

.....

مرت على بقاءى فى قرية الشيخ قويا ليلة واحدة .. ولا جديد قد
حدث .. أو بمعنى أدق لم أعرف إلى أى الضفاف قد رسيت ..

كان الشيخ قد أعارنى غرفة الكنب الملحقة بالمنزل لأنام بها وقد كانت مخصصة لمبيت الضيوف ..

كنت مازلت منظرها .. رمقت شرفة الغرفة .. أحاول إفاقة عيني وذهنى .. ثم إستقيمت جالسا أبحث عن حذائى الخافى أسفل الكنبه .. وفى غمرة إنشغالى .. إنفتح باب الغرفة بغتة .. كانت هويدا .. ويبدو أنها كانت تترقبنى تنتظر إستيقاظى .. وما إن أحست بالحراك يعتمل بالداخل حتى ولجت تحدثنى مباشرة دون خجل أو إستحياء ..

- إنت صحيت ؟ .. وكاد إى بالله إنك كنت جعان نوم ..

باغتنى مشهدها وصوتها إلا أنى سريعا ما أجبت ..

- إنتى بنت الشيخ قويا .. صح كدة ؟ ..

إعتلت محياها إبتسامة غضة .. وأجابت ..

- نعم .. تريد ألفيك فطورك هان .. ولا فى البراح قدام

الدار ..

رددت فى نبرة إعجاب محاكيا لهجتها البدوية ..

- فى البراح قدام الدار ..

توردت وجنتيها .. وإبتسمت إبتسامة خفيفة دون صوت ..
بترتها حياء وخجلا إذ وارت ثغرها الوضاح براحتيها .. خيفة
أن يلمحها أحدهم قائلة ..

- إفضل برة .. لحد ما أحضرلك فطورك ..

ثم خلت سبيلي مغادرة .. بينما أرجأت أنظر إليها متعجبا من
جسارتها .. ثم طفقت أتحرك أمرن جسدى وكأنى أمارس تمارين
صباحية .. أحاول تحرير تكدس عضلاتى من أثر سكونها أثناء
النوم .. ثم توقفت للحظة أرمق الباب حيث غادرت هويدا
أتأمل طباعها وإقدامها الغير لائقين بفتاة بدوية .. حبيسة الدار
والفيفاء .. وما لا يتناسب مع طبائع وعادات تلك البيئات المغلقة
والتي لا تتيح حرية الإنطلاق والتحرر للرجال لا للنساء .. إلا
أنه فى حقيقة الأمر أن هويدا كانت تتعامل على سجيته وفطرتها
الطفولية البريئة براءة الثلج دون إضمار نيات أو تدبيرات أو
قصد إيصال رسالة ما .. كما أنها ترى فى الضيفان المنتمين
للأعراق الأخرى ما دون العرق البدوى نافذة للتحرر والخروج
من ذاك المجتمع البدوى المنغلق ذاك الحلم الذى كثيرا ما راودها
وشغل لبها .. إذ أنها لم تخرج من القرية سوى مرتان طوال نيف

وعشرين عاما .. هم عمرها .. مرة بصحبة والدها فى زيارة
أعمامها فى طور سيناء والأخرى عندما أصيبت بحمى شديدة
فإصطحبها والدها وأخيها إلى الطبيب على الضفة الأخرى
حيث قرية بنى سلامة القديمة .. تذكر أنها رأت عالما آخر ..
الأسواق والحوانيت والمقاهى والزحام الشديد فى كل مكان ..
والمساجد العامرة بالمصلين .. كما لا تنسى مولد أبو الحديد ذاك
المهرجان المبهر الخيالى .. راقى لها تلك الدنيا التى لا تنام اليقظة
ليل نهار ..

خرجت من الغرفة .. كان المشهد فى الخارج مبهرًا وخاصة من
تلك الجهة .. تراءى أمام ناظرى المجرى المائى الضيق " المروى
" .. وثمة رهط من خرفان الماشية ونعاجها .. وبالقرب تنتصب
سقيفة ظليلة من البوص وفروع الشجر الغليظة يحوطها شجر
النخيل .. وأشجار الكافور وارفة الفروع .. ولا يختلف المشهد
كثيرا عما اعتدته فى أجواء الريف .. إلا أن الطبيعة الصحراوية
الصماء أضفت عليها مزيدا من الجمال والرونق إذ أبرزت الملامح
والقسمات فإستبان بهائها

تلفت حولى فوجدت مصطبة عريضة فى الجوار من المدخل
ملاصقة لجدار الواجهة .. مفروشة بحصير السمار .. جلست
أنظر إلى الزراعات الصحراوية بالقرب تطوقها تلال الرمال
زهيدة الارتفاع ..

كان الأهالى جيئة وذهابا يرمونى بنظرات دهش متعجبة .. مما
إسترعى إلتفاتى .. إذ بدا لى أن العشيرة هنا كل يعرف بعضه
البعض .. ويسهل تمييز أى غريب بينهم .. كما أن الزى الحضرى
الذى كنت أرتديه بدا كبقعة لون شاردة كسرت إنسجام اللوحة
البدوية الجميلة ..

أرجأت أتأمل ساهما إلى أن قطع خلوتى نباح كلب كان يناظرنى
مباشرة أمام المصطبة .. ومما زاد توترى أن كشر عن أنيابه مقتربا
.. يتأهب للهجوم .. لم أدر بحالى وأنا أنادى ..

- هويدا .. هويدا ..

خرجت تحمل صينية عليها الإفطار .. أشاحت بيدها إلى الكلب
الرزيل .. إلا أنه لم يتحرك قيد أنملة .. فوضعت الصينية
بجوارى وإلتقطت حجرا .. وأبعدته عنوة ، وحدثتنى مبتسمة ..

- دى أول مرة أسمع فيها إسمى بالحلاوة دى .. أقصد
بلهجة غير لهجتنا ..

نظرت إليها على إستحياء .. وأطرقت للحظة ثم رفعت هامتى ..
- من إمتى وإنتم ساكنين فى الأرض دى ؟ ..

أجابتنى تتوقد عيناها حماسا وحيوية ..

- أنا ما أدرى متى جينا لهان .. بس أوعى عليها حين ما
شافت عينى الدنيا .. كل اللى أعرفه إن الأرض هاذى
عاش فيها أجدادنا .. وأجداد أجدادنا .. ورثناها جيل
بعد جيل ..

لمحت الزروع تشرئب من عمق الأرض الجذباء فقلت عجباً ..
- أنا مستغرب إزاي بيكبر الزرع ده فى حشا الصحرا
والموت ؟ ..

وتعمدت أن أباريها حديثها الطلى فأشرت إلى وجهها ..

- وإزاي الجمال ده يندفن هنا ؟ ..

إحمر وجهها خجلاً .. فتلعثمت وتعرقلت الكلمات على منطقتها
.. فأطرقت للحظة ثم نظرت قائلة ..

- وكاد لازم أخذ حذرى فى الحكى معاك .. مانك سهل ..

أصابنى الحرج فإبتدرتها ..

- ما قصدتش اللى فى بالك .. أنا بس كنت بعبر عن إعجابى

بطلتك البدوية السمحة ..

فنظرتنى بضرب من الدلال الحبيبيّ قائلة ..

- هسا بتكررها ؟ .. خالك هان كل فطورك .. وبدى

تخليك فى حالك وما تشغل بالك بي ..

وعلى حين غرة .. جاءنا صوت أبيها آتيا من خلف البيت ..

ينادى على أحد العمال ..

- يامراجع .. يامراجع ..

فهرعت هويدا إلى داخل البيت خلسة .. وما كادت تختفى حتى

ظهر الشيخ قويا من خلف دغل النخيل وبصحبه حمدان ..

وقف الشيخ يحادث العامل ..

- طل على الناحية الغربية من الأرض .. أنظر المي يرويها ..

وقفت إحتراما إثر تقدم الشيخ نحوى .. مهللا ..

- مرحى بضيفنا ..

بينما رمقنى حمدان بنظرة ريبة قائلا ..

- إزاي خرجت من الأوضة ؟ ..

وطفق يترقب منافذ البيت وأبوابه .. وكأنه يبحث صراحة عن
هويدا .. كان هذا باديا بجلاء .. بينما قال الشيخ بنبرة حبيّة
متسامحة ..

- ما عليك شريا وليدى .. كيف حال ليلتك ؟ ..
وأخذ بساعدى وجلسنا معا .. قلت فى دماسة ..

- الحمد لله .. ده أنا كنت تعبان قوى ..
فنظرنى الشيخ يحدثنى فى رزانة ..

- إسمع يا وليدى .. لجل تقدر تعيش بيننا لزوم تحترم عاداتنا
وتقاليدنا .. ودوم إتذكر سولفتى هاذى .. ما بدى أكرر
حكيتى هاذ تانى ..

نظرت إليه ساهما ..

- أعيش ؟ !! ..

ثم تداركته .. قبل أن يبدأ فى جملة أخرى ..

- لا دى مجرد فترة بسيطة .. هقعدها بينكم بعدين هاروح
لحال سبيلى .. بس مش عارف إمتى بالظبط .. إدعيلى
يا شيخنا ربنا يسهلها لى ..

فقال الشيخ مشفقا بصوت مرصوف منمق ..

- على هونك يا وليدى .. ما فى خبر يتخفى على .. جاتنى
سولفتك من المقبرة الأولى لحين إنهزامك من الضابط
ممدوح ..

حملقت مندهشا .. فاغرافاهى ..

- وعرفت إزاي كل الحاجات دى ؟ ..

فبادرنى قائلًا ..

- لا تناطحنى الحكى وإنصت .. شغلتك كبيرة الحين إنت
مطلوب من أكثر من جهة .. عندهم المال والمناصب
والقوة .. بالعون ماتقدر عليهم لا ألف مثلك .. وما
يحميك بعد ربنا غيرنا .. نحنا الجهة الوحيدة الواقفة
قباهم هان .. هاذى أراضيا .. ونحن الأدرى بحمايتها
وحماية سكانها .. حتى اللاجئين ليها وقاصدين الأمان
عندنا .. ولجل هاذ مايجوز يخفى علينا شى من الى دايرة
هناك .. حوالينا ..

ثم قام الشيخ من خلسته وأعطانى ظهره .. مترجلا .. قائلًا فى
ترو وهدوء بنبرة حادة جادة ..

- إنت بنظر الحكومة .. ذابح .. وعليك من الشهود كثير ..
وبصريح العبارة .. الضابط ممدوح قام باللازم وضيق
الخناق حوالين رقبتك .. ونحن ما بنحميك لجل إنك
قاتل .. لا .. نحنا عارفين كل شي عنك من قبل لتلفى
أراضيا .. بلدك وهلك .. والى ما بتتخيل إنا ندرية عنك
.. وهتصدق لو حكيتك إنا كنا متوكدين إنك هتقصد
أرضنا .. ماهى الحكومة كدة تخلق من الراجل مجرم
وتجرى تدور عليه .. ما يلاقى الأمان غير هان .. وهان
من النشامى مثلك كثير .. داقو خبزنا وملحنا .. وصانوا
الجميل .. وصاروا قوتنا وعتادنا فى كل أرض لافوها ..
نحن يا وليدى إتوسمنا فيك الخير والشهامة .. بالعون
نشمى وقلبك ميت ، راجل بحق ، نحنا بنقدر الرجالة ..
أطرقت ناظرا إلى الأرض فى ترح وقلت قانطا ..
- بس أنا مش عارف هعمل إيه بالظبط ..
فرد الشيخ موضحا بصوت رخيم ..
- يا وليدى .. الشغلة مش إنك ذبحت .. الشغلة الحقيقية
إنك حاولت تخلق لنفسك طريق بين ناس هما اللى

بيحددوا مين معاهم ومين عليهم .. الحكاية ما هى مثل ما
إنت إنت ناضرها أو متخيلها .. ها دول مافيا من رجال
الداخلية .. عيونهم فى كل مكان .. وعيونهم لحقاك من
وقت ما إنهمزمت فى المرة الأولى .. ها الحان متمسكين
بالقبض عليك .. وهاذ لسبيين .. أولهم إنك خطفت من
بين أنيابهم الى ظانيه ورث الى خلفوهم .. والثانى إنه فى
عرفهم ما يجوز يبقى فى ملعبهم لاعب ما بيخضع
لأوامرهم وتوصياتهم .. تراها مقدسة ..

فنظرت إلية متعجبا من هذا الإقحام ..

- وإيه علاقة رجالة الداخلية بمهرين الآثار ؟ ..

فقطب الشيخ حاجبيه قائلا ..

- هاذول فى هاذول .. الإيد الى بتحرك الضابط ممدوح

واللواء طارق وغيرهم كثير .. هي آخر إسم ممكن يتخيله

عقلك إنه متورط فى هاذى التجارة المشبوهة ..

شردت بذهنى حائرا مندهشا ..

- وإزاي عرفت ياعم الشيخ كل الحاجات دى ؟ ..

نظر الشيخ إلى البراح أمام البيت ..

- الأثار اللى فى كل المناطق هاذى .. مدفونة بأرضينا .. لا تنضر النور إلا بتصرفنا وتحت عنيانا .. وما فى حداً عنده المقدرة إنه يوقف قصادنا ولا يناطحنا فيها .. وهاذ عهد بينا وبين رجال الداخلية .. لكن هسا خانوا العهد حين نقبوا فى أراضينا بدون علمنا .. " تحت البيت هاك بأرض أبويللو " .. وكنوز الأراضى هان خلاص .. إتحرمت عليهم

فواجهته أتساءل ..

- وهو إنتم عندكم القوة والعتاد عشان تقفوا قصادهم ؟ .. إبتسم الشيخ من فرط سذاجتى وجهلى المطبق ..
- إيش بتظن يا وليدى ؟ .. نحنا مجرد قبيلة أو قبيلتين ؟ .. تبقى مخطى .. نحنا فى كل بقعة بأرض مصر .. ونحن العرق العربى الوحيد اللى للحين محتفظ بأعرافه وتقاليده العصبية القبلية .. وهاذ سر قوتنا ..

ثم نظر الشيخ إلى الأفق البعيد وأشار بيده ضاماً سبابته والوسطى من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب قائلاً ..

- عصبتنا فى الأردن وفلسطين وسوريا والعراق والخليج

العربى .. وليبيا وتونس والجزائر وغيرهم كثير..

مشاركها ومغاربها .. نحنا على إتصال دايم وتعاون

مستمر .. قادرين على خلق أقوى جيش فى العالم ..

وعلى إثر جملة " أقوى جيش فى العالم " ..إمتعت شفتاى برفق

.. ودار فى ذهنى بغتة ما يحدث فى فلسطين على يد المغتصب

الصهيونى .. وخنوع وتخاذل القوى العربية .. إلا أن الفكرة

كانت كومضة مالبثت أن أطفئتها رياح الهموم .. فبادرته أقول ..

- كل الى بتمناه ياعم الشيخ إنى أبيع التماثيل الذهب الى

معايا .. ونصيبك محفوظ ..

فند الشيخ ضحكة وحيدة النبرة ثم أدار ظهره لى قائلا ..

- ياويلدى كل الأرض هاذى الى تحت رجلك .. بمدى

الشوف .. طافية على بحر من كنوز الفراعنة ..

وتلفت الشيخ بغتة إلى حيث يتقدم حمدان قائلا ..

- أطعمت الحلال ياحمدان ؟ ..

- عونك ياشيخ .. كل الحلال أكلت ..

فرمقته فى عجب ..

- والله أنا مستغرب لأمركم .. إيه لازمة التعب والشقى ده ..
وانتو قادرين تعيشوها أسياد على رقاب العباد من
ورى الثروة الضخمة دى ..

فواجهنى الشيخ ضاحكا ..

- الشباب دوم مستعجل .. الحياة يا وليدى بدون تعب تبقى
ماسخة ومايعة .. عديمة المعنى ومالها قيمة .. " لا طعم
للحلو فى فم تعود على مذاق العسل " .. لجل تنضر
جمال الدنيا هاذى وتتمتع بيه لزوم قبلها تشوف وشها
التانى .. ربنا جبل الليل لجل يكون للضوء معنى .. هيك
ماشية .. حلو ومر .. جمال وقبح .. ليل ونهار .. أبيض
وأسود .. خير وشر .. وهاذى سنة الحياة ..

تقدم حمدان إلينا .. يوجه حديثه لى ..

- ما شبت من رفقة عمك الشيخ ؟ .. إرخصلى يابوي ..
بدى ضيفنا فى جولة بالسيارة ..

فنظر الشيخ شطرى ..

- قوم يا وليدى .. وريح بالك ما عليك شر ..

فقمتم مستأذنا .. وركبنا السيارة التى مضت تتحرك .. حتى
غابت .. إبتلعتها البيوت والرمال ..

.....

ليلة مقمرة .. كنت أجلس وحيدا .. أفترش المصطبة أمام الدار
.. إذ فوجئت بهويدا تخرج من الدهليز الواسع .. تحمل صينية
الشاي .. وتعجبت أنى لا أراها إلا وهى تثقل ذراعيها بالطعام
أو الشاي ..

إبتسمت بمرآها إبتسامة خافتة .. ونظرتها وهى تضع ما تحمل
على المصطبة ثم جلست على مسافة منى تحدثنى
- ما ليك إخوات بنات ؟ ..

تعجبت من إستفهامها .. إلا أن السؤال أثار فى جأشى الكثير من
المشاهد .. والمشاعر الشجية .. وفتح الأبواب المواربة على
مصرعيها .. أسندت رأسى إلى الحائط .. شاردا أسرح فى
ذكريات الأيام الخوالى ..

قطع سرحتى القصيرة .. صوت قادم لفتاة ..
- هويدا .. يا هويدا ..

قدمت إلينا الفتاة تجرى إلا أنها توقفت بغتة عندما رأتنى

إقتربت من هويدا .. تهمهم بعبارات مطلسمة ثم جلست إلى
جوارها تتخفى خلف وشاحا البدوى المزركش .. وطفقت
تلكزها فى جانبها .. تستعلم عن كنهى .. فبادرتها هويدا قائلة ..

- زين إنك جيتى .. لجل تقعدى معانا .. هاذ مصطفى
ضيف أبوى ورفيق أخوى حمدان ..

إلا أن الفتاة لم تكف عن فعلها .. ظلت تهمهم وتتمتم وتلكز
بيدها .. نظرت إلى هويدا مستوضحا ..
- هيا قريبتك ؟ ..

فأجابتنى تعلوها إبتسامة خجل ..

- نعم .. هاذى صاحلة بنيت عمى .. وخطيبة حمدان أخوى
أطرقت للحظة ثم قلت لهويدا ..
- هى قريتكوا دى مفيهاش قهاوى ..

نظرا الفتاتان إلى بعضهما البعض .. مبتسمتين .. وفى صوت
واحد هتفتا مدهوشتين ..
- قهاوى ؟ ! ..

فطالعتنى هويدا ..

- القهاوى فى القرية القديمة .. هاك .. على الجهة الثانية من
الرياح .. أما هان .. ما فى وقت لقعدات القهاوى ..
الرجال بيشتغلوا طول النهار وبيلفوا النوم ..
فقلت حائرًا متململا ..

- ولما حد فيكم بيزهق .. بيعمل إيه ؟ .. ولا كمان مفيش
وقت للزهق ..
فذهبت إبتسامتها المعتادة وحدثنى جادة ..

- ما بعرف .. لكن هسا لما بزهق .. أروح أقعد هاك عند
شط البحيرة .. الجو هاك حلو وبيه ضلة وهوا .. والمنظر
جميل عند دغل النخل وشجر الكافور .. وفراخ السمان
والبط طايفين بوش المي .. شى يريح النفس .. وكاد
يضيع الزهق ..

نظرت بعيدا أرمق البحيرة وضوء القمر يتلألأ على أديمها .. ثم
أطرقت مرة أخرى صامتا .. فلا ثمة ما أقوله فى تلك الجلسة
المملة الرتيبة .. فبادرتنى هويدا ..

- شو .. هيك مليت من مجلسنا بسرعة ؟! ..
إغتمرنى الحرج ..

- لآ .. الموضوع مش كدة .. أنا بس دماغى مشغولة
ومهموم شوية .. وهى ده محرم عليا أقعد مستريح البال
نظرتنى متعجبة ..

- مهموم ؟!! ..

وطأطأت هامتها لبرهة .. ثم رفعتها تقول فى إبتسام ..

- وإيش تسوى باللى ينسبك هاذ الهموم هيك ؟ ..

نظرت إليها أتعجب جسارتها .. بينما لكزت هى جارتها بخفة
تقول ..

- ما بدك تعرف سولفة الذيب والثلاث نعجات والجمال
الى طلع النخلة ؟ ..

وظفقت تخرج من حكاية لتدخل إلى الأخرى تشاظرها صالحة
الحكى .. حتى أضحكاني بالفعل .. إلا أن ضحكى لم يكن على
حكايهما .. فقد كانت مملة وقديمة للغاية .. وإنما على سجيتهما
الطفولية التى تصغر عمريهما بأعوام .. وعلى عقولهما العذراء ..
البكر .. التى لم تدنسها أحقاد أو تدابير ..

ظلت جلستنا لما يعدو من الساعة والنصف .. تمكنا خلالها من
إنطاق لسانى وإسعاد سريرتى .. تجاذبنا فيها أطراف الحديث

الطلى .. تتخلله ضحكات بلا أصوات إلى أن أطرقت لبرهة ثم
قلت ..

- تصدقوا ؟ .. قريتكو دى من أجمل وأنقى الأماكن اللى
شوفتها لحد دلوقتى .. عاملة زى اللؤلؤة الغالية اللى
مدفونة فى وسط الطمى والطين .. بس فى الآخر هتفضل
لؤلؤة جميلة .. شفافه وناعمة ومنورة ..

فى صبيحة يوم مشمس .. كنت أجلس كعادتى خاويا .. أفترش
المصطبة أمام الدار .. إذ باغتتنى أصوات أعيرة نارية كثيفة تطن
فى جنبات القرية .. قمت منتفضا أتحرى الصوت ..

حينها كان حمدان قادما على مبعدة يهرول ويحشوا الثرى أمامه ..
وفى ذات الوقت خرج الشيخ قويا وهويدا فزعان .. كما نفر أحد
العمال من احدى الصوب .. هتف الشيخ فى ذعر ..

- إيش جرى يا وليدى ؟ ..

قال حمدان يلهث مكروبا ويلتقط أنفاسه بصعوبة ..

- جماعة حمدان وجماعة سلمان رجعوا يتقاتلوا من تانى ..

كل واحدة بدھا تحط يدھا على أرض الوادى الغربى

فرد الشيخ قويا حزينا ..

- يا حيف عليهم ..

فقلت وجلا ..

- أرض إيه دى ؟ ..

أرجأ الشيخ ينظر إلى أقصى القرية من بعيد ..

- هاذى أرض الحد الغربى للقرية .. إتشارك فيها أجدادهم .. وإتنازع عليها الأحفاد .. وهسا من وقت للتانى لعبوا القرية بصوت الرصاص .. لكن وكاد المرة هاذى القياد فك والعيار فل عن السيطرة .. ما سمعنا أصوات ضرب النار هاذى من قبل ..

وإستطرد حمدان ..

- حق يابوى .. الشغلة زادت عن الحد .. وضرب النار بقا للركب ..

أطرقت صامتا لبرهة ثم نطقت ..

- وهو مش ممكن ياعم الشيخ تشوف حل للنزاع الداير ده ؟

فقال الشيخ ضائقا ..

- ما يقدر حدا يتدخل الحان .. كفاك الله شر العربان وشر

قتاهم .. لزوم يوقفوا ضرب النار الأول ..

زاد دوى الطلقات وأصبح لها صدى خفيفا يتردد من مشرق

الفيفاء إلى مغربها .. مما جعل الشيخ يدعو الوقوف للدخول إلى

جوف المنزل .. إلقاء لخطر الطلقات الطائشة

ظل هذا التقرير بالنيران دائرا لعدة أيام .. إلى أن دعاها الشيخ
للإجتماع فى جلسة عرفية كبرى ..

وفى ظهيرة اليوم المحدد .. إجتمعت العائلتان فى مضيضة الشيخ
قويا .. فى حضور كبراء العربان بالأنحاء المجاورة .. ومن البقاع
الأقرب فى صلة الدم .. ومن بين الحضور كان رئيس مديرية أمن
الجيزة اللواء محسن .. بزيه الرسمى .. كانت المضيضة عامرة
بالحضور وبوسائل الضيافة اللائقة .. إذ توسط الغرفة موقدا
للفحم ملتهبا بناره الخافتة .. وثمة صوانى المشروبات الساخنة
والباردة أمام المجموعات المتتالية والمتقابلة ..

كانت جماعة سالمان على الجهة اليمنى من المجلس إلى ناحية الباب
بينما إتخذت جماعة حمدان الجهة اليسرى .. وكل يحضر بكبراه
وأعزاء قومه .. كنت أقف فى جوار الباب من الخارج أرمق
تداعيات الجلسة وإلى جانبى حمدان ويحوطنا الأفراد الباقية من
عوائل وأصاهر الجماعتان ..

ظل الجدال دائرا إلى أن حمى الوطيس وإشتد الحوار .. وكان
الحديث بين الشيخ قويا والشيخ سالمان .. قال أولهم ..

- وإيش الى جرى ياشيخ سالمان ؟ .. ما يجوز تفل وتسيب
الجلسة بالطريقة هاد ؟ .. شو ، مش عامل إعتبار لحدا ؟!
فقال الشيخ سالمان يستشيط غضبا ..

- هاد الى بيحصل مهزلة .. شو هاد الحكم ؟ كيف تلزموا
عشيرتنا وحدها بدفع الدية ؟ .. نحنا فقدنا من عزاز
شبابنا كثير مثل ما فقدوا ..

لمحت وأنا أرمقهم من وراء الباب الشيخ إمباوى جالسا إلى
الجوار من الشيخ قويا .. وكنت أعرفه حق المعرفة .. تابعته
يتحدث موجهها مقالته للشيخ سالمان ..

- هاد هو فصل القول .. العدل .. إنتم الى بدأتم بضرب
النار وجريتم المجزرة دى لساحة القرية .. وهاذ آخر
سولفة الجلسة ..

شدهنى بجسارته .. فأشرت إليه أحدث حمدان ..

- شاييف ؟ .. ده الشيخ إمباوى كبير العربان عندنا
فنظرني حمدان جادا ..

- بدرى .. المضيقة الواسعة هاد بيها كبارات العربان فى
البلاد الى حوالينا ..

وبينما كنت أرمق اللواء محسن .. أحسست بشيء من الريبة
والخوف فنظرني حمدان فى جدية قائلاً يطمئنى ..

- ما تخاف .. إنت هان بأكثر الأماكن أمان .. ما تنسى إنك
بحمايتنا ..

وإسترعى إلتفاتنا صوت اللواء محسن ..

- الأمور متستاهلش كل النزاعات دى حاولوا تشوفوا حل
لخلافاتكم الدائمة .. بدل ما تبقوا قوة واحدة تقريبا
بتخلصوا على شبابكم بإيديكم .. نزاعات الإستنزاف
دى هتضعفكم .. واللى إحنا مستنيين منكم أكبر من كده
.. إنتوا ضهرنا فى المناطق دى .. ونفسى مجيش هنا غير
زائر ..

فقال الشيخ قويا ..

- معاليك تنور الدنيا بأى وقت .. دوم يشرفنا حضورك
ياباشا ..

وفى جوهر الأمر أن اللواء كان محض ضيف شرفى .. لا يعتد
بحديثه .. إلا أن وجوده كان ضروريا لتمام قوام الجلسة .. ليشهد
بعينه صعوبة مراسهم وقوة شكيمتهم وكلمتهم التى لا ترد .. أما

عن الحلول الفعلية فكانت تصدر من رؤوس العربان منهم ولهم .. وما كانوا بحاجة لغريب يملأ عليهم ما يتوجب فعله ..

ظلت الجلسة على أشدها .. تزيد وتنقص في الحضور حتى إقتراب الليل .. لم يغادرها سوى اللواء محسن .. وإنتهت بالأحكام التي أفتق عليها وإرتضت الجماعتان بتتائجهما .. إلا أن أنفسهم وكعادتها إنطوت على تدبير آخر .. يصعب الإفصاح عنه وإلا لأصبحت الحرب كاسحة .. كان الشيخ قويا بفطنته وبصيرته الثاقبة يرى سويداء صدورهم .. ويعلم أن الأمر لم ينتهى عند هذا الحد .. ولكنه يوقن أيضا أن الهدنة أمر ضرورى من آن لآخر .. حتى لا تتفاقم الأمور فحروب العربان لا تبقى ولا تذر .. ولترسيخ مبدأ الإذعان للصالح العام .. وكأن هذه النزاعات تشتد من وقت لآخر .. للتكتل لا للتفريق .. بإعادة إحياء حمية النزعات القبلية .. وفى ذات الوقت تغليظ وحدة النسيج بينهم وذاك بإجبار الكل على الإنصياع وإحترام الأعراف التى تنجلى وتظهر من خلال تلك الجلسات العرفية ..

كان سلوكا غريبا إلا أنه يؤتى ثماره .. رغم ضحاياهم من القتلى والمصابين .. فنزعة واحدة تفتديها ألف نفس .. ودائما ما يخلق

أحدهم .. " مسمار جحا " .. لينشب النزاع وينتهي بإرضاء الأطراف المتقاتلة .. كانت الحياة تسير على هذا النحو لا إراديا .. ولكن المدقق فى حياتهم وقواعدهم وأعرافهم سيكتشف أن هذه الظاهرة صحية بالنسبة لأهدافهم .. تقوى شوكتهم ولا تكسرهما .. تبرز جبروتهم لرجال الداخلية الذين غالبا ما يشاركون تلك الجلسات برجل منهم ذو منزلة عليا لا يقل عن رتبة لواء

كانت أخبار تلك الجلسات ونتائجها سريعا ما تتسرب وتنتشر وتجوب الأعراق الأخرى كالفلاحين والصعايدة وسكان الحضر وغيرهم .. فيذاع صيت العربان ويعرف قوة شكيمتهم .. ليخشاهم كل من يحاول التصدى لهيمنتهم وجبروتهم .. إئتقاء لشر وغلظة برائتهم السمهرية المشحودة دوما ..

ولا يمكن إغفال رصيدهم الأقليمى والدولى النضالى ضد المعتدين والغزاة والذى أصل عندهم الحمية والعصبية والدفاع عن أعرافهم ومقدراتهم .. وبجولة بسيطة ستجلى مظاهر هذا النضال وتاريخه .. لنرى حميتهم فى فلسطين والأردن ولبنان وسوريا والعراق ضد المعتدى الصهيونى والأمريكى .. والإيطالى فى ليبيا والفرنسى فى الجزائر والإنجليزى فى أكثر من

دولة .. وغيرهم الكثيرين .. كانت ثوراتهم وإنفاضاتهم
ومقاومتهم الحثيثة أكبر دليل على أن هذا العرق لا يمل ولا يكل
ولا يرضخ مهما أذيع عنه من إشاعات مغرضة هي في الأصل
صنيعة ماسونية وصهيونية ..

.....

في إحدى الليالي وأثناء إفتراشي المصطبة أمام الدار .. إقتربت
صالحة من مجلسي يغرقها الحياء ويغتمرها الحرج .. كانت تواري
وجهها بوشاحها الصغير .. جلست على مبعدة منى ويبدو أن في
جوفها حديثا تود البوح به إلا أن خجلها الطفولي منعها من
النطق ..

كنت قد تنبهت لحضورها .. وإسترعى إلتفاتى للحظات زهيدة
إختلاسها النظر إلا أنى لم أكن مفيقا .. كنت مستغرقا في تفكير
عميق .. وما إن رأيت حالتى تلك حتى أثرت الصمت .. تنتظر
خروج هويدا من جوف الدار ..

لم أجادل نفسي كثيرا عن علاقتها .. فقد كان حديثى الداخلى
يتناهبنى .. أتأمل ما آل إليه حالى وما إنتهيت إليه .. ذاك الحال
الذى ما ينفك أن أتأساه حتى يطوف على أديم ذهنى وخلدى ..

كنت أتساءل حائرا .. إلى أين ستقودنى مقاديرى .. وتذكرت
أبى وأخى الصغير وسماح .. شعرت يقينا بأن خطرا ما لا مناص
قد داهمهم جريرة تورطى .. وبت مريجا .. ترى مالذى قد يكون
قد حدث لهم على وجه التحديد .. كان الألم يعتصرنى ويوغر
صدرى .. وثمة كابوسا شيطانيا لحوحا دواما يهاجمنى .. يضربنى
ويسلبنى مرائى .. يصور لى مشاهد مفزعة هم ضحاياها .. طاح
لبى لا أتخيل كيف لأبى القعيد أن يتحمل كل تلك النوازل ..
أخشى ما أخشاه أن يكون قد أصيب بمكروه .. وأنا هنا غارق
قسرا لأذنى فى أرض ليست بأرضى وبين أناس لا أعرفهم ولا
يعرفوننى ..

طفقت أؤنب نفسى وألومها وأغالى فى تعذيبها على إستخراطى
بين هؤلاء دون مبرر .. متناسيا ورطتى ومن هم فى رقبتى
.. وسيول الهم تدمدم فى عمقى كاسحة بيد أنى لم أجد سوى أن
أرتضى خمودى ورضوخى وإن كان على مضض .. فمازلت لا
أعلم مخرجا سوى الإنصياع لتدابير الشيخ قويا بالأصالة عنى ..
دون أن أعرف بماذا يفكر أو كيف سينقذنى من وحلتى ..

- والله العظيم ما عملت إشي .. إنت فهمان غلط ياخوى..
أواااه ... يامای .. يامای ..

كان حمدان قد إختلط عليه الأمر إلا أن علاته كانت وجيهة نسبيا .. فجلسة صالحة فى الجوار منى فى ذاك الوقت من الليل كانت موحية بأفكار تنافى أعرافهم .. وبلغ الزبد الربى أن رأها بغير غطاء رأسها .. هائمة فى أسارىرى .. إلا أنى لم أكن أدرى بما يعتمل فى ذهنها لحظتها .. كنت مستغرقا فى ترحى وهمى .. إقربت وحدثته مهدئا ..

- إهدى شوية وهتفهم كل حاجة ، إيه الى إنت بتعمله ده ؟
لم يكثرث بحديشى .. ومضى يسحبها متغالظا إلى جوف المنزل..
ينادى والده صارخا ..

- يابوى .. يابوى .. تعال إنضر الفضيحة الى لفانا بيها
ضيفك .. إنتهك حرمة بيتك يابوووى ..
خرجت هويدا ذاهلة مذعورة لما يفعله حمدان ..
- يامصيتتى .. يامصيتتى ..

بينما إستطرد حمدان فى صراخه العاثر .. النابع من نفس مريضة
- لزوم أذبها .. هذبح الفاجر والفاجرة ..

وأخيرا خرج الشيخ مفيقا من النوم .. ساخطا مستاءا .. وما إن
رآه حمدان حتى أفلت جدائل صالحة وطرحها على الأرض ..
فإحتاج الشيخ ..

- حمدان .. إيش فيه شو جراك ؟ .. علامك تصيح
يا وليدى ؟ ..

فركلها حمدان ركلة عنيفة .. فازعا في وجه أبيه ..
- ما ظنى تسيبه يابوى .. لقيته مع الفاجرة هاذى قبال الدار
.. هو سبب الفضيحة هاد الى وقعت فوق روسنا ..

رمقنى الشيخ بنظرة مستنكرة .. فتعثرت الكلمات على لسانى ..
- محصلش حاجة ياعم الشيخ .. والله العظيم ما حصل
حاجة ..

وقف الجميع صامت للحظات .. لا يسمع سوى عويل صالحة
ونذب هويدا .. بينما دخل حمدان إلى صحن البيت .. وخرج
يشهر بندقيته فى وجهى .. فناهضه الشيخ صائحا ..

- حمدان .. هات البندقية هاذى .. وإنهزم الحان ..
حاول حمدان أن يتفوه .. فصارعه الشيخ ..

- فل عن وجهى .. روح إنغدر ..

ألقى حمدان البندقية مهتاجا يردد منصرفا ..

- قولك أمر يابوى .. طايح فى داهية ..

ونطقت هويدا أخيرا ..

- والله العظيم يابوى ما حصل إشى .. صالحة كانت جىالى

مثل ما بتلفى كل ليلة .. وأنا كنت جوه الدار .. مصطفى

ما له ذنب .. كان قاعد بطروفها المصطبة ..

أطرق الشيخ ناظرا إلى .. نظرة مبهمة باهتة .. فأردفت أبرئ

ساحتى ..

- أقسم بالله العظيم يا شيخ ما حصل حاجة ..

رفع الشيخ رأسه صائحا فى هويدا وصالحة ..

- هويدا .. إلفى لجوه الدار .. وإنتى فلى لمكان ما جيتى ..

وتركنى الشيخ أمام البيت حائرا لما حاكت لى الأقدار .. لم أكن

أعلم هل إستوثق الشيخ من صدق حديثى ونياتى أم أن إتهامات

حمدان التعسفية قد وطنت برأسه وقلبه ..

كنت شديد الإستهاء لما أوقعت فيه قسرا .. ولم أحتاط لحدوثه ..

وظفقت أؤنب نفسى للمرة الثانية أنى قد تخطيت حدودى مع

هويدا وصالحة .. حقا .. ما كان يجب أن يحدث كل هذا .. ترى

ما الجديد الذى أوحلت قدماى به ؟ .. كنت أخشى ما أخشاه أن يتسلل المقت والبغض إلى سريرة الشيخ وأعلم أنه لن يهدأ نائر حمدان جراء ما حدث .. فراعنى أن تصب على رأسى جام لعناتهما وأن يكتسحنى غضبهما وسخطهما فى أشد أوقاتي حاجة لمساعدتهما .. كما أننى لن أستطيع فى الوقت الراهن بكل ما أوتيت من حنكة وبصيرة تضميد ذاك الشرح الذى أصاب علاقتى بالشيخ

لم أملك إلا الجلد والتأنى .. كررت إلى غرفتى متثاقلا .. أتهدج بالخبية والوجل والإنكسار .. لا أدرى ما قد يحاك من وراء ظهري .. ولكن على كل حال كان علىّ أن أتحسب لأى طارئ قد يحدث .. وأن أحتاط لطارق الشر .. فمنذ دقائق كانت ستذهق روحى .. لذا ولجت إلى الغرفة وأوصدت بابها وشرفاتها جيدا ..

.....

ظل الشيخ لعدة أيام بعدها يحادثنى قليلا متحفظا .. ولم يعد يضمنا مجلس كسابق عهده معى .. فإما أن يكون خارج الدار فى غرض ما أو فى جوفه لا يبرحه ولا يشارف ساحته إلا نادرا وفى غير وجودى .. ورغم هذا التغير المباغت .. لم يتغير شئى فى

حسن ضيافتهم .. كان الطعام يوافيني بانتظام فى غرفتى .. إلا أن
أحدا من العمال هو المنوط بجلبه ..

أما حمدان فلم يكن لسانه يحدثنى البتة .. يخرج ويدخل أمام
ناظرى ممتقعا .. يطوى فى نفسه نية لا يعلمها إلا الله .. ولقد
كشفت لى تلك الواقعة كم أن عقول تلك الفئة مغلقة تحركها
إعتقادات عمياء صماء .. كما تيقنت إستحالة أن ألتحم يوما ما
بعاداتهم وأعرافهم وأن أتعاش معها .. تلك التى أغرقت ألبابهم
وأسكتت بعضا من مرونة ومروءة ضمائرهم .. فباتت ردود
أفعالهم حمقاء ممزوجة بقلّة تبصر فى زمن رتع فيه الجهل والهراء ..
كانت تلك الأيام مقيّنة للغاية .. وشعور ما بالوحدة والإغتراب
قد بدأ يتسلل إلى نفسى .. ليزيد مثاقيلى ويضنّينى بها .. ويخيفنى
من مكر الأيام وغلبتها .. لم أكن أتفاعل فى تلك الأونة إلا مع
قليل من العمال والأهالى .. وبينى وبين أهل الدار شبه قطيعة
ترهقنى .. وتزيدنى إيلا ما .. كنت كلما ضاق بى الحال أذهب
لأجلس على ضفة البحيرة الصغيرة .. على مبعدة من الجهة
الشرقية حيث تطوقها أشجار النخيل والكافور والهيش .. علاوة
على إطلالة البيت المميزة عليها .. مما سمح لى بمتابعة ما يدور

هناك .. فلعل أمر ما يخلصني تدور رحاه بينهم ويتوجب مراقبته وترصده ..

كنت أمكث بالساعات هناك .. أنظر إلى أديم المياه الراكدة .. شاردا .. أحاول أن أفكر وأتدبر أمرى إذا ما ساءت بى الأحوال .. حتى أنه فى بعض الأيام لا يدخل جوفى لقمة واحدة .. إذ أن الطعام لا ينبغى أن يأتينى فى ذاك المكان .. بينما كانت هويدا تنظرنى من شرفات الدار حزينة يائسة .. وما إن ترى حمدان قادما حتى تتخفى إلى جوف الدار .. وفى بعض الأحيان كانت سيارة حمدان تمر بمجلسى هذا .. وإذا ما أشرفت بتحيته محاولا تلطيف هذا الإحتقان .. نظرنى بسخرية وعجرفة دون أن يحفل بى ..

وفى ظهيرة يوم ما .. كنت أجلس تحت ظلال النخيل وأطوق قدماى بذراعى .. شاردا وسارحا كعادتى .. رمقت عينائى هناك بعيدا فى الناحية البحرية .. من البيت والبحيرة .. قبالة بيوت جماعة سالمان .. تجمع من عصيته تحت سقيفة صغيرة .. يتحادثون .. بينما إقترب أحدهم من الشيخ سالمان .. يشير بينانه إلى حيث كنت أجلس .. هامسا إليه بأمر ما .. تعجبت من

أمرهم وما زاد إندهاشى أن إنتصب الشيخ سالمان يرمقنى
ضاحكا بشدة ..

ظننت فى بادئ الأمر أنه قد نبا إليه خبر تلك الليلة .. إلا أن الأمر
لم يبدو على هذه الشاكلة .. إذ بعث أحدا من جماعته يأتينى كل
يوم ليراقبنى ويتابعنى عن كثب .. يجلس على مبعدة قريبة منى
ولا يبرح مكانه إلا بعد مغادرتى .. أحسست بإرتياب شديد ..
وما زاد الطين بلة أن لاحظ حمدان تربصاتهم تلك .. وتضاحك
عصبة الشيخ سالمان وعلو أصواتهم فى كل مرة تمر سيارته
بمجلسهم .. فظن هو الآخر ما ظننته فى بادئ الأمر .. مما زاده
شياطا وغليانا تجاهى .. ولولا وجود الشيخ قويا حائلا بينه
وبينى لزهق روحى دون تردد..

وعندما وجد حمدان أن الأمر قد زاد عن حدة .. قرر أن يعرف
كنة الحقيقة .. حتى أتته الفرصة .. فبينما كان داخل إحدى
الصوب يتحرى حركة النماء لبعض زراعاته .. تسمع أحدهم
يحادث رفيق له .. كانا منتصبين بجوار دغل النخيل عند حافة
أرض الصوب .. كنت أرى ذلك بأم عيني .. رأيت ظلال شبحة
وهو يراقبهما من داخل غطاء الصوبة الشفيف .. كما رأيت

الأخران أثناء تهامسهما .. إلا أنى لم أعلم على وجه التحديد ما دار بين الرجلين من حديث .. وما راعنى فى الأمر وأدخل إلى صدرى الريبة والتوجس أن حمدان خرج من الصوبة ينظرنى والإبتسام الساخر والمتشفى يملأ أساريره .. بقيت حائرا .. لا أعلم ماذا يحدث .. إلا أن يقينى أن ما يجرى لا يخص ما حدث بينى وبين حمدان سالفا .. وإلا لكان غضبه عارما .. لا إبتساما وسخرية ..

كانت حيرتى وشتاتى فى تلك الأيام الخانقة قد وصلا إلى حد من الغموض يستحيل وصفه أو تحمله .. حتى أنى كثيرا ما كنت أقرر فى قرارة نفسى أن أذهب إلى حال سبيلى .. وليحدث ما يحدث .. إلا أن خوفى ووجلّى أن تتفاقم الأمور كان يركعنى لأرضى بالوضع الراهن .. وأن أغالبه وأتحمله مهما كان قاسيا وغامضا .. فلا أحلك من تلك الساعات التى قد أمضيها هاربا مطاردا ..

.....

فى غرفة رئيس المباحث .. كان والدى أمام مكتب الضابط على مقعده المتحرك .. وفى الجوار منه سماح .. وتبدو عليهما آثار تعذيب شديد .. إذ كانت ملابسهما مهلهلة وممزقة ذات أهداب

كثيفة .. وتنجلي أجسادهما تغمرها آثار الجروح والسحجات
والكدمات الدموية ..

كانت الأيام السالفة من أصعبها وأقساها عليهما .. قضياها بين
قبضتي الضابط يشفى غليله وحقده فيهما .. ظانا أن ما يفعله
سيؤتى جدواه .. ويؤتيني عنوة إلى ساحته .. إلا أنى ولتلك
اللحظة لم أكن أعلم بما جرى لهم وهذا من حسن طالعى وإلا
لكان قد حقق مايربو إليه .. فقط كنت أتكهن ما قد يكون حاق
بهم دون أن ينبولى خبر أكيد ..

رمقهم الضابط يكظم غيظه ..

- مش عارف إيه اللي لازم أعمله معاكو ؟ .. شرذمة من

الحثالة زيكم خلونى عبرة على صفحات الجرايد وهرى

البرامج السخيفة .. خلتونى مسخة بين رجالة الداخلية ..

نظرت إليه سماح فى سخرية .. تتألم من وفرة الجروح وتباريحها

بجسدها ووجهها .. بينما رمقه والدى بغضا وحنقا مريجا

بالإعياء وغلظة الضرب والتعذيب مما أبداه كرفات حرب طاغية

طالعهم الضابط بسحنة مقيبة مكفهرة ..

- بصوا بقا أنا مبزهقش وما بملش .. أنا هنا عشان أغلس
على اللى زيكم .. شغلتي بقا .. فإرحموا نفسكوا وقولولى
هو فين ..

فلم ينبس أحدهما بكلمة ..

- متفكروش إن عنادكم ده هينجيه أو ينجيكم .. بالعكس
.. إنتو الخسرانين طول ما الصايح ده بعيد عن إيدى
وتصرفى .. هوريكم النجوم فى عز الضهر .. وورونى بقا
الغالى هينفعكم بإيه .. وبرضه بيكم من غيركم هجيبه
هجيبه .. فياريت متضيعوش وقتى وتوفروا على نفسكم
رحلة عذاب منتوش قدها ..

ظلا صامتين يشرفانه ساخطين ممتنعين مما جعل الضابط يغتاظ ..
نافذا صبره ..

- مش هتتكلموا ؟ .. إنتو الجانبيين عليه وعلى نفسكوا ..
ثم كبس زر الاستدعاء .. فدخل أحد العساكر ..
- نزل الحثالة دول التخشية .. وطبقوا عليهم أذبل دروس
الداخلية ..

أخذهما العسكرى .. بينما تنهد الضابط غيظا وضيقا .. وأشعل
سيجارة .. ينفث دخانها عبر النافذة .. معطيا ظهره للباب يفكر
.. مكث لبرهة على حالته تلك ثم ند عن صدره تنهيدة نفاذ صبر
.. وقلة حيلة .. وإستدار ضاغطا زر الإستدعاء تارة أخرى ..
فدخل أحد العساكر

- تمام سيادتك ..
- إبقى خرجهم يابنى آخر اليوم .. مفيش فايده منهم .. زى
قلتهم ..

.....

وفى نهاية ذاك اليوم وتحت حمرة شمس الأصيل الغاربة .. كانت
سماح تدفع والدى بمقعده المتحرك وفى الجوار منها يسير أخى
الصغير .. يجذب أطراف ثيابها المهلهلة .. وحينما إشتدت قبضة
الطفل على ثيابها .. نظرت إليه .. فقال ملتاعا يتضور جوعا
أطيطا ..

- عايز أكل ياخالتي سماح ..
- تاكل ؟! .. ماشى يا حبيبي ..

أنعمت النظر حولها فلمحت كشك صغير على الرصيف الآخر ..
فتركته بصحبة أبى القعيد فى الجوار من الرصيف .. وجسرت
الشارع إلى حيث الكشك .. على مبعده من القسم .. إبتاعت
ثلاث قرص مسكرة .. ثم عبرت إلى حيث يقفان .. أعطت
إحداها لأخى الصغير .. بينما أمدت الأخرى لأبى .. الذى خمد
على مقعده مطرقا .. يرمق الأرض بنظرات جاسية تتحسر
أساريه .. هتفت إليه تمد يدها بالقرصة إلا أن الرجل لا يبدى
حراكا .. كان ساكنا لا تحتلج فيه جارحة أو عقلة أصبع ..
إنخفضت إليه تحاول إفاقة وتنبهة من شروده .. بيد أن الوقت
قد فات .. لقد صرعه موت الفجاءة كمدا وحسرة .. مكثت تهزة
برجات عنيفة عليها عبثا تنطق فيه ساكنا .. دون جدوى ..
فإنطلقت من جوفها صرخة مرعبة

- يالهوى !! .. عم محمد .. ياعم محمد رد عليا .. يامصيتى
يامصيتى .. يالاهوى ..

كان أبى قد فارق الدنيا قبل أن أودعه .. الوداع الأخير .. داهمته
السكتة فبرح الدنيا الزائلة .. مات غريبا دون مودعين .. لم يمت
على يدى .. بل مات حزين الشارع والأرصفة .. ذاك الذى

عاش عمره يعطينى وردا لأسقيه حنظلا .. مكافحا .. صيامه
كصيام داود .. يحاول أن يبنى لنا مستقبلا لكنى دهمته فوق
رأسه حتى أزهرت روحه .. فغابت شمس أيامه .. المغيب
الأخير ..

ولا أدري على من البكاء .. على من أضعته بعنادى وتعنتى ..
وغرورى وحلم الثراء الفاحش السريع .. أم على حالى .. اذ
تركنى مستباح الفؤاد للنوازل وخطوب الأيام .. وكراييجها
المترصدة لتمزق أديمى ..

فى غداة أحد الأيام .. وأثناء تواجدى بقبيلة الشيخ قويا .. حدث شيئاً لم أكن أفهم مغزاه إلى حينها .. إذ نادى حمدان أحد عمال الصوب .. وقد كان أقربهم إلى قلبى حديثاً ومجلساً .. لذا إنتقاه حمدان من بين الجميع .. وأوكل إليه أمراً يخصنى .. إذ طلب منه أن يصطحبنى إلى ساحة السمر خارج القرية بهدف الترفيه والتخفيف عنى .. وقد كان موقف حمدان هذا مبهماً غير مفهوم أو مبرر .. حتى العامل ذاته ورغم أنه لم يتأبى لمراده إلا أنه كان مريحاً حيال هذا الموقف المنافى والغير لائق لما حدث منذ زهاء شهر أمام ساحة الدار وعلى مرأى منه ومن بقية العمال ..

والأغرب من هذا أن أعطاه حمدان هاتفاً محمولاً .. وقصده بأن يجرى إتصالاً بهاتفه .. وأن يبقى الهاتف على وضعية الإتصال بمجرد خروجنا من القرية .. قاصداً التنصت على ما سيدور بينى وبين العامل من حديث .. وبالفعل دعانى العامل إلى صحبته للتنزه عند ساحة السمر دون أن يعلن لى بأنها رغبة حمدان .. وعندما سألته عن كنة تلك الساحة أخبرنى بأنها أرض تتوطن على مبعدة من القرية بقرابة الكيلومتر .. يجتمع عندها شباب

القرية للتسامر واللهو وممارسة بعض الأنشطة كنوع من الترفيه يكسر حدة وخشونة حياة القبيلة .. وقد أختير مكانها بعيدا عن بيوت القرية فى منأى من شكاية الأهالى وتأففهم المتكرر التى أثّرت مرارا عندما كانت تلك الساحة تتوطن بجوف القرية ..

وافقت مرغما .. ففى ذات النهار كان حمدان والشيخ ماكثين بالدار لأمر وقيلة خاصة .. ولا مجال لأية مواجهات .. كما أنى كنت بحاجة لأن أرى شيئا مغايرا .. عن تلك الوجوه والمعالم والأماكن التى لم أرى غيرها منذ زهاء الثلاثة أشهر ..

غادرنا القبيلة من الناحية الشرقية عبر ممشى ضيق جدا تحوطه التلال .. لا يتسع إلا للمترجلين فقط .. ودهشنى أنى لم أره من قبل طوال مدة إقامتى .. وبمجرد أن بدأنا المسير أبرز العامل الهاتف وأجرى إتصالا بحمدان وأبقى الهاتف على وضع الإتصال كما أمره ..

ظللنا سائرين حتى ألهبت الشمس ظهورنا .. وتعجبت لتلك البقعة المتوطنة فى الفيفاء بين الرمال الجذباء وتحت ألسنة الشمس الحارقة .. وشعرت بشيء من الندم أنى وافقت على المضى فى هذا المسير .. إلا أن ما رأيته عندما شارفنا الساحة كان مغايرا لكل

تصوراتي وما كونه عن معالنه بمخيلالى .. فقد كانت الساحة
بحق جنة فيحاء محاطة بأشجار النخيل الواطئة .. المتقاربة بشكل
منتظم .. وبأشجار التوت والجميز والكافور والجزورين الوارفة
.. يتوسطها بساطا أخضر من النجيل كما لو كانت ملعبا للكرة ..
وفى الجوار ثمة مورد مياه صناعى يجلب المياه الجوفية الصافية
النقية من أعماق الأرض ..

إنكبت مستلقيا أسفل شجرة توت عتيقة ذات فروع مدلاة
وأوراق كثيفة .. كنت مجهدا للغاية بعدما أصابنى الكلال من
طول ومشقة الطريق فى هذا النهار شديد القيظ ..

إنطرح العامل فى الجوار منى .. بينما كنت أستغرق فى شرودى
المعتاد الذى تبنيه عادة .. فى الأونة الأخيرة .. جذب العامل
عودا من تكتل الحلفا بجواره حتى إنتزعه .. ومضى يجليه ويخليه
من إهابه طبقة تلو الأخرى .. ينظرلى فى ترقب .. يريد أن يستهل
حوار معى .. برهة وألقى العود بعد أن جرده تماما من دثرته
وغطاءه .. ناظرا إلى البساط الأخضر محاكيا جلستى وهيتتى قائلا
..

- لهاد الدرجة ما بتقدر على فراقها ؟ ، بتعشقها يامصطفى ؟

ظننت أنه قد تكهن جازما أنى أفكر فى حبيتى المكلمة ..
الرابضة هناك .. فى منأى عنى ..بينما أنا هنا منفيا عنها .. إذ دار
بينى وبينه سالفا حديث بخصوصها .. فأخبرته بأمرها .. إنطلق
لسانى دون تفكير وأنا أرى طيف سماح يتمثل أمام مرأى ..

- أنا خسرت أجمل أيام عمرى علشان خاطرها ..

ومن مفارقات القدر أن سألتنى الرجل عن إسمها ولأول مرة مذ
حدثته عنها فى حين كان حمدان على الطرف الآخر يقترب
بمسامعه من مسماع هاتفه الذى يوصله حديثنا خلصة .. حتى
يستبين ما يقال بجلاء ووضوح .. فقلت مجيبا أغفل ذاك المترصد
عبر الأثير ..

- سماح .. إسمها سماح .. كانت جارتنا .. عمرها ما غابت

يوم عن عيني .. دى أول مرة أغيب عنها كل المدة دى ..

وحشتنى .. ووحشنى أبويا وأخويا .. البلد كلها

وحشتنى ..

وما إن سمع حمدان الإسم حتى غرق لأذنيه جازعا مشتتا ..
ثاقل بجسده إلى جذع نخلة مبهوتا يتقهقر بالندم .. وبدا أن ذنبا
ما قد إقترفه بحقى لم أكن أتبينه حتى تلك اللحظة .. ظل حمدان

على حالته إلى أن رفع هاتفه الذى تثاقل هو الآخر فهوى واقعا ..
وظل يهتف ..

- ألو .. ألو .. يامراجع .. يامراجع شو صارلك يا مخبل ..
ألو .. ألو

إلا أن العامل لم يرد .. فقد تناسى حمدان أنه طلب من العامل كتم
صوت المتصل .. حتى لا تنبو إلى مسامعى أية أصوات عبر
الهاتف المندس فى جيب العامل العلوى .. فأصوات الماشية هناك
.. بربوع القبيلة .. كفيلة بإفتضاح الأمر .. ففعل الرجل كما طلب
منه ..

ظل حمدان مطرقا للحظات يتسمع أصواتنا .. إلى أن إنتصب
واقفا .. ثم هرع إلى سيارته وركبها متجها صوب أقصى الحد
الشرقى .. وأنا كالأعمى .. تحاك لى التدابير أمام مرآى دون أن
أراها ..

توقف الحديث بينى وبين العامل .. بينما رمقته مريحا يترقب
الطريق خلفه يضرب بناظره فى أرجاء الساحة بشيىء من الريبة ..
وهذا ما إسترعى إلتفاتى وخالجنى بالرهبة والوجل .. وإستفقت

بغثة إلى أن ساحة السمر تلك خالية عن آخرها .. ساحة سمر بلا
متسامرين ..

ظل العامل لبرهة مطرقا لا ينبس بكلمة واحدة إلى أن طالعنى
برغبته فى قضاء حاجته فى الجوار .. وإنصرف وتركنى وحدى
أتلفت حولى شاردا .. كان المدق الرئيسى المؤدى إلى القرية على
مرأى منى بزهاء النصف كيلو متر .. ساعدت حدة الانحدارات
به أن أرى قمته دون أن يرنى مرتاديه ..

وفى غمرة إنشغالى بهواجسى .. والتي زادت عندما تغيب عنى
العامل لما يعدو الربع ساعة .. لمحت بعيدا عند بطحاء الطريق
سيارة شرطة .. بدا لى أنها تتقدم صوب الساحة .. فهجعت من
مضجعى منتصبا .. وهرعت أتحفى خلف كومة رمال على بعد
قراءة العشرون مترا ..

إقتربت السيارة شيئا فشيئا حتى كانت على رأس الساحة ..
وكانت الصدمة عندما لمحت الضابط ممدوح يهبط منها شاهرا
سلاحه وبصحبته إثنان من العساكر .. ظهر العامل أخيرا بعد
قضاء حاجته فبوغت بمرآى الضابط .. الذى رعد فيه دون
سابق إنذار يسأله ..

- هو فين ؟ ..
 - على من تسولف حضرتك ؟ ..
 - إنت هتستعبط ؟ .. مصطفى ..
 - مصطفى من ياباشا ؟ .. ما في حدا هان غيرى ..
- مما أثار حفيظة الضابط فثار ثأثره وصفع العامل على وجهه ..
- حينها علمت بالمكيدة التي حيكت لى .. رغب أحدهم وخالجنى ظن أكيد أنه حمدان فى تسليمى يد بيد للشرطة .. بعيدا عن القبيلة .. وبعيدا عن أعين الشيخ قويا .. مناهضهم الأوحاد فى تلك المنطقة .. حتى يتم الأمر فى خارج ساحته وأراضيه .. بدعوى أنه تم الإمساك بى أثناء هروبى من قبضة الشيخ وحمايته .. حتى لا يوقع الضابط فى شرك التحدى على الشيخ فى حصونه وأراضيه إستدرت بجسدى لأطلق قدماى للريح متجها صوب القرية لأحتمى بحماها .. وهنا فقط تيقنت قيمة ذاك الكهل العجوز ..
- الشيخ قويا .. بيد أنى ما كدت أن ألقى عنقى حتى بوغت بحمدان ينتزعنى من أطراف ثيابى عند كتفى .. هاربا بى إلى خارج الساحة .. كانت سيارته بالقرب تتوطن بأحد المدقات الخبيئة .. انكبنا بها .. وانطلقنا صوب القبيلة ..

.....

وفى قرية الشيخ قويا .. قبيل الظهرية بدقائق .. كانت سيارة الضابط ممدوح تقترب من ساحة البيت .. من الجهة الشرقية .. بينما يظهر جليا الشيخ سلمان .. يطل من بقعة السقيفة وتعتلى أساريه ضحكة سافرة ساخرة .. حينها كان حمدان فى الجوار القريب على غير حاله .. سادم نادم .. الغيظ والإحتقان يغمران ملامحه ..

وما إن تجمعت أمام مرآى المشاهد الثلاث حتى بطل عجبى وتيقن حدسى حول المكيدة التى حيكت لى .. لقد أبرم حمدان إتفاقا مسبقا مع الشيخ سالمان .. أن ينصبا لى فخ للإيقاع بى .. ولكل كانت مصالحة وأغراضه الخاصة .. فحمدان أراد الإنتقام منى .. عندما ظن أن ثمة علاقة مربية تربطنى بخطيئته صالحة سرا كما أيقن أن وجود شاب أعزب فى دارهم يمثل خطرا على أخته هويدا البكر العذراء جسدا وقلبا وعقلا .. قليلة الخبرة والتجارب فى التعامل مع الرجال .. وفى الواقع كان ظنا أحمقا إذ أن المكيدة الحقيقية قد نصبت لوالده الشيخ قويا من جانب الشيخ سالمان الحاقد الكاره .. فأوشيا بى عند الضابط ممدوح

وأعطياته خبرى كاملا .. كما دبرا لإقتيادى إلى خارج القرية ..
حتى تكون عملية الإيقاع بى يسيرة ونظيفة دون عقبات أو
حقوق ..

وما إن علم حمدان بحقيقة أمرى حيال صالحة .. وأن قلبى معلق
بفتاة أخرى خلفتها بموطنى .. كان قياد الأمر قد إنفلت من بين
يديه .. إلا أنه وباللحظة الأخيرة تمكن من إنتزاعى من هذا
الشارك قبل أن تغلق مزاليجه .. وتيقن بالنهاية أن المكيدة فى
جوهرها كانت مرسومة ومديرة لوالده .. فالشيخ سالمان لن
يتورع أو يفوت فرصة لإيذاء أبيه .. وذاك لمواقفه المناهضة
لعصبته ورعونتها وأفعالها الهوجاء ..

ورغم أن حمدان قد أنقذ الموقف بالنهاية وأعلم أبيه بما جرى إلا
أن رياح الندم إكتسحته وبات غريق الحسرة والكمند عند رؤيته
لسيارة الضابط تتقدم رويدا من داره .. فالشيخ سالمان ضيع عليه
زهوة نجاحه فى انقاذى من مكيدته فوجه الضابط رأسا إلى بيت
الشيخ قويا .. ورغم أن خطوة كتلك لن تؤتى جدواها إلا أن
الشيخ سالمان فعل والضابط إستجاب ..

.....

فى مضيفة البيت الوثيرة جلس الشيخ قويا وولده يستقبلان الضابط ممدوح .. بينما مكثت أنا قابعا فى أحد الأركان البعيدة المقابلة لهم .. وقد أشار لى الشيخ مسبقا بألا أنفوه بكلمة فى حضوره .. فبقيت خامدا .. لا ينبولى لفظ ..

إستهل الضابط المقالة فى حزم وصرامة ..

- ياشيخ قويا .. أنا جيت لحد بيتك .. إحتراما لأعرافكم وتقاليدكم .. مصطفى هارب من العدالة .. وبتمنى من الله تستوعب ضرورة تسليمه ..

فنظر إليه الشيخ وقورا .. إلا أنه ناهضه فى شبهة صيحة ..

- لا .. أضبط الكلام .. الأعراف والتقاليد هاد إنت إنخطيتها بالفعل حين دهست بقدمك أراضينا من غير إذن .. لا تشدق بلسانك وتقول أنا جيت إحتراما لها .. إنت لفيت لهان لجل تتقى شرنا .. ولولا إننا ما بنخون ضيفنا ولا بنقتل عدونا فى دارنا .. كان هيبقى لينا معاك شأن تانى ..

فبين الضابط قائلا ..

- أنا ما قصدتش الإهانة .. بالعكس .. ده أنا فضلت
أصطاده بعيد عن دياركم عشان ميتقالش إني دهست
أراضيكم زى ما بتقول .. ولعلمك مصطفى قاتل ..
إيديه متلطخة بدم اللوا طارق .. ده لو مكانش قالك ع
الحكاية دى ..

فأردفه الشيخ موضحا ومصحصحا جوهر الأمر الخافى بين
عبارات الضابط التعسفية ..

- يا حضرة الضابط .. مصطفى مش قاتل مثل ما بتدعى ..
ويديه ما تلطخت بدم لأنه ما كان عنده نية القتل فى
الأساس .. إنما القاتل الحقيقى هاذ اللى فضل يحاصره لما
إضطره يعمل هيك .. وبعدين نحنا ما بنسلم ضيفنا حتى
لو كان قاتل .. مثل ماليك تار ليه تار .. وتاره أكبر ..
والحق فى كفته ..

فطأطأ الضابط رأسه يهزها ..

- كنت عارف إنك هتقول كده ..

ووجه الضابط حديثه لى .. متجاهلا حضور الشيخ فى جسارة
وجرأة متغاية ..

- عايزك تعرف كويس إن خلاصك فى إيدى .. وإنى أنا
الوحيد الى قادر أهربك برة مصر .. والشيخ يعرف كده
كويس .. فهمه ياشيخ ..
فنظرت إليه متفرسا .. عجباً ..
- وإيه المقابل بقا للخدمة الجلية دى ؟ ..
رمقنى الضابط مبتسماً بخبث ..
- ربنا ينورك بصيرتك ويفتحلك دماغك .. تعجبنى
نباهتك .. ماهو الى فى ظروفك لازم يعرف مصلحته فى
ويشتغل عليها .. أنا ليا عندك أمانة .. والأمانة دى تخص
ناس كبار .. كبار قوى .. مش هتقدر على شرهم ..
نظرت إليه مستنكراً ..
- وأفهم إيه بقا من الكلام ده ؟ .. إنت بتتفاوض ولا جاي
تهددنى ؟ ..
فواجهنى قائلاً ..
- شوفها زى ما إنت عايز .. إنت حر ..
كان الشيخ أنها مطرقاً يرمق الأرض بنظرات باهتة لا يفهم
مغزاها .. قلت للضابط متكهنا يحدونى يقينى ..

- أكيد طبعا تقصد تماثيل الذهب ..

فإبتدري قائلا ..

- هما مش عايزين غير تماثيل واحد .. والباقي ربنا يباركلك

فيهم ويمتلك بخيرهم .. وده طبعا مقابل حريتك ..

بالذمة دى مش صفقة منصفة .. نفع وإستفنع .. فكر فيها

كويس وإنك تعرف إننا بنعمل معاك صح الصح كمان ..

فتساءلت مندهشا ..

- وده تماثيل إيه ده اللى هيموتوا عليه كده ؟ ..

رمقنى ثاقبا .. تنبعث من عينيه إشارات لؤم وخبث ..

- تماثيل صغير لطائر إسمه طائر اللقلق .. يشبه الطيور اللى

بتبقى على شط البحر .. ومتفكرش تتذاكى معايا عشان

تستدرجنى .. التماثيل ده هيخدوه هيخدوه .. دول

مبيهزروش .. أى مراوغة منك هتطير فيها روس كثير ..

وهتلاقى نفسك قدامهم لوحداك وش فى وش فى بحر من

الدم ..

نظرت إلى الشيخ قويا الذى إمتقع وجهه وتغير لونه .. ولا ينبو له لفظ .. وكأننا إتفقنا على تبادل الأدوار .. فتكلمت أنا بينما مكث هو صامتا ..

- إيه رأيك يا عم الشيخ ؟ .. مبتتكلمش ليه ؟ ..
فنظرني الشيخ ضائقا ..

- بنضر .. هاذى مهزلة مضحكة ..
فسألته مريجا ..

- قصدك إيه ؟ ..

فإبتسم الشيخ ممتععا غير راضيا يقول ..
- كمل سجالك إمعاه .. بدى أنضر آخر المكلمة الفارغة
هاذ ..

نظرت إلى الشيخ حائرا .. إذ لم يعطنى الفرصة لمشورته .. ثم رمقت الضابط .. أحاول أن أحافظ على رزانتى وثباتى
- وإيه سر التمسك الغريب بالتمثال ده تحديددا ؟ .. وده
شرطى عشان أتمم الصفقة ، أعرف الأول قيمته وأهميته ..
فأسند الضابط ظهره إلى الحائط تغمره الثقة قائلا ..

- مع إن ده مش شغلك .. ومع إنك مجبر على الموافقة .. بس
مفيش مشكلة هقولك .. أنا متأكد إن إنت معدوم الحيلة
وسكت الضابط هنيهة ثم قال ..

- على المسطرة اللي فى ظهر التمثال ده نقوش وكتابة ..
بتحدد بالضبط مكان المقبرة الملكية وإتجاه بابها بدقة
متناهية .. والناس دى على إستعداد تام إنهم يدفعوا كتير
ويعملوا أكثر عشان يوصلوا للمقبرة دى تحديدا ..

حينها إسترجعت بذهنى إلى الوراء .. وللمرة الثانية .. حيث دار
الصراع الأخير هناك فى جوار المقبرة .. وتذكرت تلك الصخرة
الجرانيتية المعبدة التى إصطدم بها كاحل قدمى إثر مقتل اللواء
طارق .. فقلت ..

- طب إيه رأيك أنا ممكن أبقي دليلكم لباب المقبرة دى من
غير لا تعب ولا شقى ..

واجهنى الضابط بكامل جسده تلتحم عيناه بعينى فى شبه ندية
وتحدى ..

- برضه مفيش مشكلة .. بس ناخذ التمثال الأول .. وعازب
أعرفك دى فرصتك الأخيرة معانا .. الفرص الباقية مع
عزرائيل ..

فنظرت للشيخ أستجديه أن ينطق بكلمة واحدة .. لأطلب
مشورته وعونه .. إلى أن جرت الكلمات على لسانه أخيرا بعد
صمت مريب .. إثر سماعه الجملة الأخيرة للضابط والتي أثارت
حفيظته .. فإعتدل فى جلسته مما إسترعى إلتفاتنا .. وعرفنا أن
حديثا ما بدأ يعتمل داخله .. فسكت كلانا ننتظر ردة فعله .. نظر
الشيخ إلى الضابط يطوى سخطا كاسحا .. قائلا ..

- أشوفك تلفى أراضينا تهدد وترعد فينا .. وتحمرلنا عينك
.. بعد ما إتخطيتها ودهستها بقدمك .. والى مثلك ما
يدرى جزاء إنتهاك حرمتنا ..

وترانى إتغاضيت عن تجرؤك علينا فى عقر دارنا ..
وخرست لسانى .. ولقمت فمى حجر وأنا سامع حكيك
الصبيانى السخيف ..

إسمع إنت وهادول اللى وراك .. لو إجتمع كبرات
كبراتكم .. بعسكركم وعتادكم .. بالعون ما تهزوا فينا

شعرة .. دى أراضيا وده ضيفنا .. وعزرائيل هاد الى
بتلعب بسيرته لجل ترعبنا .. عمرنا فى يوم ماخفنا من
زيارته .. دوم كان ضيف عزيز .. بنقدر جيته وبنحترمها
.. ونضحى بألف راجل قبال كرمتنا وهيتنا .

ما تعمل فيها عنتر تانى وتجعرف فى وشوشنا .. وإلا
مسخناك بعوضة تلحس الوسخ من أقدام بهايمننا ..

نظرت الضابط وقد تغيرت ملامحه .. وإغتمر الشحوب
والإصفرار سحته .. يرمق الشيخ فى وجل .. ترتعد أواصله من
ذاك التقريع الضارب فوق رأسه .. وقد هوى من أوج عجرفته
وكبره إلى درك الإذعان قسرا يبتلع إهانته ويركع لذه ..

قال للشيخ فى خنوع وخضوع ..

- يا شيخ قويا .. مقامكم محفوظ .. وبعدين أنا مجرد وسيط
.. مقصدتش أتحدأك....

فصاح الشيخ فى وجهه ..

- وتحيك من وين الشجاعة والرجولة هاد ؟ .. إنت مثل
أرانب الوادى الى بتهرب من صوت الغنم .. قول للى

بعثوك .. صبرنا ليه حدود .. وللهين ما نضرتوا منا

الوش التانى ..

نظر إليه الضابط مستسما ..

- يا شيخنا ..

فناهضه الشيخ ضائقا ضجرا ..

- لا تكثر .. كفاك بغبة خاوية .. خبرهم إن معادنا بعد

باكر عند المقبرة .. وعرفهم الى يعرفونه حق .. ما فى مجال

للخيانة .. هاد فرصتكم الأخيرة لجل تجددوا عهدنا

معاكم .. وتؤكد إنت وقيادك إن مصطفى قبل ما يكون

ضيفنا وفى حمايتنا إحسبناه ولدنا .. ونقطة دم واحدة منه

أو من هله بألف رجل منكم .. وإنتم تدرون نحنا قادرين

.. إتقوا حرب ما تلاقوا لصدھا طريق ..

فقال الضابط مبھوتا ..

- تمام يا شيخ قويا .. هبلغهم ..

وإستقام بجسده متثاقلا .. يتقهقر بظهره .. مطأطأ الرأس .. ثم

استدار خزيانا يجر أذيال الخيبة والإنكسار .. مغادرا ساحتنا ..

بينما وقفت أنا واجما أنظر شبحه الغارب وقد مسحت بكرامته
وكبره رمال الفيفاء .. وتأملت كيف أنه لا تبدى جواهر الرجال
وجسارتهم إلا وقت الشدائد والخطر .. إذ كشفت هذه المحادثة
عن تلك النفس الجبانة المغلفة بأديم من العجرفة والعنجهية
الخاوية ..

كنت مذهولا من هول حديث الشيخ وجرأته وصلابته .. فلم
أعهد مثل ذاك من قبل .. فمن ذا القادر على التلفظ بقبيلة كتلك
في وجه رجال الداخلية بجبروتهم وسلطانهم .. وكانت من جملة
أشياء كثر أجهلها .. كما يجهلها عموم الأهالي ..

إنصرف الضابط تصطك قدماه .. يتلفت يمنة ويسرة .. خوفا
من رصاصة طائشة من هنا أو هناك .. يتنفس الصعداء ويبتلع
ريقا في فم ضحضاح .. إلتقط أنفاسه أخيرا يحمد الله أن أنجاه
من براسن هؤلاء القوم الشرسة المتوحشين ..

بعد تلك المقابلة كانت الأمور قد بدأت تتضح في ذهني تباعا ..
فذاك العهد الذى حدثنى الشيخ بشأنه سالفا .. مع رجال
الداخلية .. لم يكن مع المؤسسة ذاتها والكيان نفسه .. وإنما مع

هؤلاء حفنة الرجال الفسدة الفجرة منهم .. وللأسف فهم كثر .. وهم المقصودين بالتهديد والوعيد ..

فى الحقيقة كانت الغيرة تعتمل فى صدرى .. فمهما خاضت بى قدماى الأوحال ورغم رفضى للواقع ومقتضياته وقوانينه الجاسية الصلغة .. والأوضاع المزرية التى ماجت بها البلاد .. فهذا لا يعنى أن أتصل من قوميتى .. ومن ظننت سالفا أنهم المقصودين إنما هم جزءا هاما من هذه القومية .. رغم أن إيمانى بها كان منقوصا .. مجزءا ممسوخا ومشوها .. يؤمن بشيئ ويكفر بجزء منه .. لعن الله الفاقة والعود التى تمسخ نفوسنا وتبدى أديمنا على وجه مناف لحقيقته ..

شعرت بإرتباك وتخبط شديد تجاه تلك المسألة .. بيد أنى لم أمكث عند محطها كثيرا .. فلتذهب المبادئ إلى الجحيم .. ماذا فعلت لى وأنا ألعق الثرى بحثا عن لقمة العيش ؟ .. بماذا أفادتنى وأنا غارق لأذنى فى أتراح الماضى .. أهدر زهرة عمرى الحاضر .. وأرى مستقبلى يذهب قسرا أدراج الرياح أمام عينائى .. بماذا أفادتنى تلك المبادئ الواهية .. التى لا تمتلك حتى أن تتصر لذاتها فى زمن الجهل والهراء .. فلتذهب المبادئ إلى الجحيم ..

ولتذهب القومية إلى الجحيم .. قبالة أن أعيش حراً طليقاً ..
لقمتمى من فأسى وصوتى من رأسى .. أملك قرارى وزادى ..

فى صبيحة اليوم المقصود .. كنت أقف عند البحيرة .. أتأمل محط
 قدماى .. والخطوة التالية المرجوة .. رغم أن نزاعا داخليا محتدما
 فى جوفى .. حول البقاء والتريث أوالمضى .. إلا أن هديرا مدمدما
 يحدونى لأن أنهى تلك الحال العثرة .. وذاك المسعى المشئوم ..
 فكفانى تطيرا ووجلا .. فلا سبيل إلا المواجهة .. ولولا أحبتى
 لكان الهروب خير سبيل ..

وجأ إستغراقى بغتة صوت الشيخ ينادينى .. فأدرت وجهى قائلا
 - خلاص ياعم الشيخ .. جهزتم ؟ ..

فأمسك الشيخ بكتفى مطمئنا ..

- زين .. توكل يا ولدى .. الحان نمضى لشغلتنا .. إلعاد ما
 فى وقت ..

إقتربت منه أسر له بحديث ذا أهمية ..

- خليك جنبى ياعم الشيخ .. ممدوح ده خاين وملوش
 عهد .. والأمانة اللى عندك دى أقل حاجة ممكن أهديها
 ليك .. قصدى حق الرجالة اللى معاك ..

نظرنى الشيخ مبتسما بحبيّة ..

- يا وليدى مساعدتنا لك ما تكفيها كنوز الدنيا .. قلت لك
قبل الحين إنت رجل بحق ونحن نعرز ونقدر النشامى ..
هازيك اللعبة اللى لفيت روحك فيها خطيرة جدا ..
ونحن ندرى وندرى قواعدها .. ما تخاف .. توكل
ويفرجها الله .. وبالله تلاقينا فى ضهرك ..

تمتت بعبارات خافتة بينى وبين ربى أطلب المدد والعون .. ثم
تحركت بإتجاه سيارة خاصة فى الجوار .. وركبت بصحبة الشيخ
جنباً إلى جنب .. يشاركننا حمدان المسير .. وتحركت السيارة تتقدم
خمس سيارات نصف نقل مثقلة بالرجال المسلحين ..

.....

قبل أن نصل إلى منطقة أبو بيللو بأقل من الثلاثة كيلو متر ..
همست إلى الشيخ أرجوه ..

- معلىش ياعم الشيخ .. لازم أشوف أبويا الأول .. قبل ما
نروح مشوارنا

فسكت الشيخ لبرهة .. فطن لما يدور فى رأسى .. فلعله اللقاء
الأخير لذا أذعن لإرادتى ..

إقترح الشيخ أن يصطحبني في تلك الروحة .. وقد كان .. عبرت
السيارة المجرى المائى خلال " معدية " صغيرة قرب منطقة
الخطاطبة .. وخلفتها إحدى السيارات الخمس .. بينما مكثت
بقية السيارات على الجانب الغربى من التربة الوسطية تنتظر
إشارة التحرك .. وإنطلقت السيارتان تجسر طريق الجانب
الشرقى تتجه رأسا صوب بلدتى .. كفر داود القديمة ..

وفي أقل من نصف الساعة كنا قد شارفنا مدخل البلدة .. عندها
توقفتا السيارتان .. وأبدت رغبتي فى الذهاب منفردا حتى لا
نثير الرعب فى نفس والدى .. إلا أن الشيخ كان قد كلف إثنان
من رجاله ليتبعانى دون أن يلفتا ناظرى .. تحسبا لأى خطر ..

أزمعت المرور بيت سماح أولا .. فقد كان الأقرب فى البلدة
القديمة وإنطويت بعدها التوجه رأسا إلى منطقة التجارة التى تبعد
ما يناظر الكيلو متر حيث يستقر منزلى

سرت مترجلا على قدميَّ عبر أزقة البلدة حتى وافيت ناصية
الحارة التى تقطن بها سماح .. وقد كانت خالية إلا من الأطفال
اللاهين .. تحركت إلى بيتها فى حرص شديد حتى لا يتنبه أحدهم
لى .. عل أحدهم يترقبني فى الأصل .. طرقت الباب عدة

طرقات خفيفة كعادتي .. وعندما فتح الباب أصابني فزع شديد
مريج بجذع وذهول لتلك الهيئة التي رأيت عليها سماح .. كانت
الجروح تغطي أديم وجهها .. لن أنسى ما حييت تلك الطلة
والنظرة التي طالعتني بها ..

ما زاد ذهولي أن إندفع أخى الصغير فى جوارها مرتما بين
ذراعى .. باكيا فى نشيج مستمر وهو يردد .. أبى مات .. كانت
الصدمة قاتلة .. شلت عقلى تماما .. وأقفته عاجزا .. أتساءل ..
كيف حدث هذا ؟ .. إلا أن الشك كان جاثما فى عمقى بأن لذاك
الوغد يدا فيما جرى

جست الكلمات على منطقتى .. أتصبب عرقا باردا .. ورقا الدمع
فى عيني .. أرمق أسارير سماح الممزقة .. محملا ذاهلا فى وجوم
.. لم أستطع أن أتكهن ما قد حدث .. فسألت سماح تتحشرج
الحروف فى حلقى ..

- إزاي ده حصل ؟ .. وإيه الجروح اللى فى وشك دى ؟ ..
فقصت لى سماح بصوت نائح متهدج .. ما حدث لها ولوالدى
بالقسم على يد الضابط عديم الضمير .. مما كان سببا فى موت
أبى كمدا وحسرة ..

كان وقع كلماتها مؤلماً .. موجعا وجعا أجهد فؤادى .. وتناوبت
عليه قبضة عتية .. جعلته يختلج مثقلا .. ذاك الشعور القديم
الذى لازمنى لسنوات طوال ..

إقتربت سماح منى تحاول مواساة قلبى المطعون غدرا .. هوت إلى
الجوار منى ترسو راحتها على صدرى المختلج إحتضارا ..
ومازلت أردد ..

- إزاي ده حصل ؟ ..

أهذه النهاية ؟ .. سؤال ظل يتكرر فى ذهنى وعلى منطقى ..
توقعت الكثير مما يحتمل أن يكون قد حدث لهم .. إلا أنى لم
أتوقع ألا أرى أبى إلى الأبد .. طفقت ألعن وأسب ذاك المسير
الملعون الذى أفقدنى صديقى وأبى جملة واحدة .. سكنت مثقلا
بهمومى ومثاقيل العظام .. لا أستطيع الحركة إلا أنه سريعا ما
إعتملت بقلبى نار الثار ..

لم تمض لحظات حتى تسمعت طرقات الباب .. فتحت سماح
لأجد أن أحد رجال الشيخ جاء ليستدعينى إثر مكالمة أته من
الشيخ قويا .. تحاملت على مصابى الجسيم .. وخرجت مسرعا
تدفعنى رغبة الانتقام .. يأتينى صوت سماح مناديا ..

- رايح فين المرة دى ؟ .. مش مكفيك الى حصل ؟ ..

مستنى تفقد مين المرة الجاية ؟ ..

سرت قدما ولم أكثرث بنداءاتها المنتحبة .. إلا أنى لم ألبث أن
قطعت نصف الحارة .. حتى اشتعل بصدري وجع مؤلم .. خوفا
من فراقهم .. عدت أدراجى مسرعا متلهفا .. يحدونى شعور
موحش مخيف .. أسقطت سماح بين أحضانى .. أستشعر دفئ
قلبها .. كنت أسمع دقاته ونحيبه ..

طفرت عيناي دموعا حارة .. أغمضتهما أريد إسكات فيضهما ..
أطلقت ذراعى لأقبض أخى الصغير بين دفتيه .. ذاك الصغير
الذى ذاق أجاج اليتيم قبل أن يتذوق للدنيا حلاوة .. مع كل
لحظة كانت تتبادر إلى ذهنى .. أنى قد لا أعود .. فأحكم قبضتى
عليه خوفا ورعبا مما ينتظره .. ففعل القدر قد يحكم عليه أن
يقضى الباقي من عمره وحيدا ..

كان الوقت بخيلا ضئيلا لم يسع لأن أبدى أسفى لما جلبته عليهم
.. أسمعونى كثيرا .. إلا أنى لم أصغى إلا لصوت نفسى .. بقدر
ما أفرز ذاك الوداع الأليم من إشتياق وخوف من المجهول القادم

.. بقدر ما تضاحكت داخلى رغبة الإنتقام دون الإكتراث بالتبعات
.. لا مناص من أخذ حق فقداى ..

وسريعا كما أطبقتهم بين ذراعى .. أطلقتهم نافرا إلى حيث
جرت تدابيرى ..

كررت راجعا فى صحبة رجال الشيخ إلى حيث تركنا السيارة ..
ومذ أن ركبت لم أنطق بكلمة مما أثار حفيظة الشيخ ، فبادرنى
يسأل ..

- أشوفك مُغتَم .. هو فيه شى جرى ؟ ..

نظرت إليه نظرة طويلة تحمل من الأسى أسيان .. ثم أطلقتها عبر
النافذة الزجاجية .. دون أن أخبره بما جرى .. إلا أن الشيخ
ببصيرته الثاقبة قد فطن أن حدثا جلل قد وقع وإكتنف ذوى ..
فلم يثقل قلبى بكلماته ..

أجرى الشيخ إتصالا هاتفيا .. لأحد رجاله بالسيارات الخمس
لتسبقنا إلى منطقة أبو ييللو .. على مبعده من البقعة المقصودة ..
ريثما نقابلها من الناحية الأخرى بمحاذاة الرياح الناصرى ..

.....

وعند موقع ما بالقرب من المقبرة .. وقفت السيارات .. بينما نزل
الشيخ قويا وحمدان والسائق .. وأطلقاني لأقود السيارة بمفردى
.. حينها وقفت فى الجوار منها أحدث الشيخ وقد بح صوتى ..

- أكثر حاجة مخوفانى .. إنكو تيجوا بعد فوات الأوان ..
بوصيك ياعم الشيخ متستناش لما تطلع أول طلقة
رصاص .. ممكن تكون فى صدرى ..

ربت الشيخ على كتفى يربط جأشى ..

- ما عليك شر ياضيف الله .. نحنا حواليك وقدامك ..
إنشوفك حتى لو إنت ما تشوفنا .. إعقلها وتوكل ..
وسوى حكيك لسان شجاعتك وكرامتك ..

وخلى سبيلى لألج المدق الضيق المؤدى إلى المنزل وحدى .. بينما
هجع الشيخ بالسيارات إلى جهة مقصودة ..

.....

شارفت بسيارتى ساحة المنزل .. أوقفتها منفردة بالقرب على
الناحية الأخرى من السيارات المترابطة بحيث تكون فى مأمن
للولوج والمغادرة السريعة .. تناظر الممر مباشرة .. وجعلت
مقدمتها إلى الخارج من المنزل فى وضعية المغادرة اليسيرة ..

كان الهدوء يغمر المكان إلا همهمة خافتة .. دنوت أترجل حذرا حتى كانت الساحة في مرآى بالكامل .. لأجد الشيخ مرسى وصاحب المنزل والضابط ممدوح ورجلان آخران .. الحضور المعتاد .. للمرة الثالثة إلا أن المختلف هذه المرة أنهم كانوا جميعا وقوف في إستقبالي .. تأهبوا منتصبين عندما سمعوا أزيز عجلات السيارة .. نظرت إليهم جادا شبه متجهم .. وتقدم الضابط مباشرة نحوى يطالعنى بعبارته المصطنعة المرائية ..

- حمد الله ع السلامة ..

نظرت إليه شذرا .. ولم أعير كلماته إلتفاتا .. وبدوره لم يأبه بتجاهلى له .. فقال مباشرة ودون أية ديباجات ..

- فين التمثال ؟ ..

أعطيته حقيبة صغيرة كانت بيدي .. ففتحها وتحرى عنه بنفسه .. وبينما هو فى غمرة إنشغاله .. ترجلت عدة خطوات دائرا حول سيارته قائلا

- رجع عربيتك ورا .. الفتحة تحتها ..

أوما الضابط إلى أحد رجاله .. إقترب فأعطاه الحقيبة .. وأودعها
الرجل داخل السيارة بينما إقتادها متقهقرا إلى الخلف .. ثم
أشرت بإصبعي إلى العاملين المنتصبين على مبعدة قريبة ..
- إنتم .. قلعوا كل الحشيش والهيش ده .. نصفوا المربع ده
بالكامل ..

وجرت الأحداث بعدها سريعا إذ أنها العاملان ما أمرتهما به ..
فإنجلت أمامهما صخرة حجرية معبدة السطح والخواف ..
فإلتقطت عتلة حديدية وأطلقتها لأحد الرجلان قائلا ..
- حركوا البلاطة الحجر دى وإرفعوها .. دى باب القبر ..
أمسك كل رجل بالألة المناسبة .. وطفقا فى إنجاز العمل

.....

فى ذات الحين كان الشيخ قويا وبصحبه الشيخ إمباوى كبير
عربان بلدتنا جالسين أمام أحد المنازل .. يطوقهما رجالهما
المسلحين ..

وثمة حديث دائر بينهما بخصوص ما يحدث هناك حيث المقبرة ..
وبدا أن الشيخ قويا قد أزمع الإستعانة برؤوس العربان المحيطة
بتلك المنطقة ورجالهم ..

كان الشيخ قويا ما بين الحين والآخر يرفع ساعده ناظرا إلى ساعة يده .. يتحين لحظة الحسم وتبدو على أساريره علائم التوتر والقلق ..

.....

أما في ساحة المقبرة ..

فقد تمكن الرجال بمساعدة الشيخ مرسى وصاحب البيت من زحزحة الباب الحجري عن فوهة القبر .. في حين كنت أقف مناظرا للضابط محتذرا .. الند للند .. نطوقهم على الجانبين .. إلا أنه ما إن زحزح الباب لمسافة صغيرة لا تعدو بضع سنتيمترات .. حتى نفر الجميع .. على حين غرة .. مبتعدين عن الفوهة وكنت من بينهم .. إثر إنبعاث دخان أبيض كثيف .. نافذ الرائحة من العمق .. وكأنه سدل ثوب شف .. ليأتينا صوت الشيخ صائحا ..

- إبعدوا عن الفتحة .. خدوا بالكو الدخان مميت ..

ثم هرع إلى حقيته القماشية البدائية .. يجلب نوعا من البخور المعتق وطفق ينثره عند الأركان الأربعة للفتحة الصغيرة .. مقدار

زحزحة الباب .. إلا أن الدخان تكتل وزادت كثافته بشكل ملحوظ ومرعب ..

أتذكر أن الدخان كان قد أصابني بحرقه شديدة في مقلتي .. فطفقت أفركهما براحتي بعنف مكروب .. وما لبث أن نفذ الدخان الكريه إلى عمق صدرى .. فتطوح جسدى رغما عنى يتدافع عشوائيا .. إذ شعرت بدوار شديد يعتمل فى رأسى .. ولم أدر يمينى من يسارى .. وكأن الأرض تميد تحت قدمائى ..

ظللت على حالتى تلك لعدة دقائق .. إلا أنى ما إن تماكنت قواى وزمام إترانى حتى مضيت أحاول كشف أغطية الدخان عن مرأى .. وكنت مدفوعا برغبة حثيثة للإستفاقة من غياهب الأدخنة البيضاء .. خوفا من أن أكون قد أوقعت فى شرك تم تدبيره لى مسبقا .. فى بادئ الأمر ظننت أنها حيلة مقصودة للإيقاع بى وتركيعى .. بيد أنه ما إن خمد الإلتهاب الحارق من ناظرى وإتضححت الرؤية .. حتى رمقت جل من حولى وقد أصابهم ما أصابنى .. إلا الشيخ مرسى .. وذاك أغرب ما فى الأمر ..

أفاق الجميع من غمرة الدخان .. كان كل فرد ملقى فى جانب
وكأن ريح عاتية هبت علينا فأغرقتنا وثرثرت جماعتنا .. ويبدو
أن هذا الدخان يحدث نوعا من الصدمة المؤقتة .. تصيب المخ
رأسا .. يختل بعدها إتران الحواس والأطراف .. كان كل منا قد
أحس ذات الألم .. هياجا بجنبات الرأس .. ووجعا فى عظامها ..
نظر كل منا الآخر .. يظن ذات الظن .. ويحتسب لذات الخطر ..
ولم يكن هذا غريبا فطبيعة وظروف تلك المرة توحى بأن خطبا ما
سيصيب أحدا قد دبر له من قبل .. فطلات الوجوه مختلفة ..
والأسارير تبعث نوعا من الريبة المرعبة وتكهن يقبض القلوب
وقف الشيخ فى الأمام من الفوهة مباشرة يمسك بمخطوطة
قديمة .. ويتمتم بعبارات وطلاسم ملغزة .. بينما للمم الحضور
أشلاء المتناثرة فى حالة ذهول مشتت .. لم ينبس أحدا بينت شفة
حتى أنهى الشيخ طلاسمة .. كان مجال الرؤية ضبابيا ومازال
متأثرا بأطياف الدخان الأشيب ..

وبغته .. وقبل أن يتمالك أحدا نفسه أو يزعن قياد أجزائه ..
سمعنا صوت فحيح مرعب .. مدوى يصم الأذان .. يخرج من
جوف المقبرة ليردد صدهاء فى أرجاء الفيفاء .. وكأن ثعبانا ضخما

أو تنينا خرافيا سينجلى من العمق ليلتقم الوقوف المصروعين
رهبة ورعبا .. وما أثار إندهاشنا أنه على إثر إنبعاث هذا الفحيح
الغريب إنكشفت الرؤية .. وتجلى وضوحها .. وكأن هبوبا صافية
نفخت فأزالت ألسنة الدخان السامة وحزمها الضبابية ..
وجالت فى تصوراتنا خيالات لنوع من الزواحف الأسطورية
العملاقة .. قد سعد نافثا من حشاه ريحا نقية لتزيح عن مرآنا
تلك السدل الرفرافة البيضاء بياضا مرضيا كثيفا ..
نظر الضابط إلى الشيخ مرسى ساخطا ..

- إتمعنا .. إيه اللى بيحصل بالظبط ياشيخ قرد ؟ ..

فلم يحبه الشيخ .. كان مستغرقا فى طلاسمة .. تارة يغمض عينيه
كمن يبغ نائما وتارة أخرى يحملق كالمصعوق .. ظل يتمتم
وينثر البخور حول جنبات الفوهة إلى أن إنتفض إنتفاضا عنيفا
جعله يشب هاويا على الأرض .. أصاب صداه أجسادنا
بقشعريرة مرعبة .. فحاكى الجميع لا إراديا ذات ردة الفعل ..
إنتصب الشيخ واقفا مفيقا .. وكأن شيئا لم يحدث .. وإقترب من
الباب بهدوء يتبعه الجميع مبهوتين .. وأشار إلى العاملين

بزحزحة الصخرة كاملا .. وإبعادها لتكشف الفتحة عن آخرها
، وقد كان ..

أمسك الشيخ بمصباح يعمل بنوع من البطاريات .. وهبط إلى
الدرج الحجري .. يتبعه الضابط وخلفتهم بينما مضى ورائي
صاحب المنزل على التتالي .. ومكث العاملان بالخارج يتأهبان
للتحرك بإشارة منه ..

أنهينا الدرج واحدا تلو الآخر .. يضيئ المصباح طريقنا .. كان
الضوء يزداد خفوتا كلما إستخرطنا في العمق .. وبدأ الظلام
يتسرب إلى مرآنا رويدا رويدا .. فأخرج الضابط هاتفه المحمول
وأضاء كشافه .. ونحونا ذات مسلكه فزالت الظلمة بعض
الشيء ..

وفي الواقع كان القبر من الداخل مختلفا عن سابقيه في الجوار ..
فقد إنجلت الجدران المزدانة بالألوان الزاهية وكأنها مخطوطة منذ
زهاء أيام زهيدة .. وبدى الارتسام بأبجديات الفراعين معبرا
عن قيمة وعظمة القبر وجلال قاطنه ..

طفقنا مترجلين وبعد قرابة العشرة أمتار من الدرج الحجري ..
وجدنا أنفسنا غارقين داخل طريقة طويلة خانقة .. شاهقة

الإرتفاع .. فصاح الضابط ضجرا .. إذ لم يعهد أن تبدأ مقبرة
بطريقة بهذا الطول ..

- إيه ده ؟ .. دى مش مقبرة ياشيخ مرسى ..

مضى الشيخ فى الممر الضيق .. رادا على عبارة الضابط ..

- الله أعلم إحنا داخلين على إيه ..

وبعد عدة خطوات داخل الممر بعدما قطعنا ما يقارب الخمسة
عشر مترا .. بدأ الجو فى الإختناق .. كان الهواء ينسحب من
الفراغ شيئاً فشيئاً .. مما أثار حفيظة الضابط .. فصاح ضائقا
بصوت أبح أجش يشهق ويزفر فى سرعة متلاحقة مكروبة ..

- هو الممر ده ملوش نهاية ؟ .. أنا بتخنق ..

فأجابه الشيخ بصوت رخيم معدنى بارد ..

- إهدى شوية .. الصبر يا حضرة الظابط ..

كان جميعنا قد ضاق بهذه العتمة التى كادت أن تخطف
أبصارنا .. والإختناق الذى أوشك أن يزهدق أرواحنا .. إلا
الشيخ .. وكأنه داخل هذا العمق المظلم يتنفس بإسطوانة هوائية
.. ويضاء طريقه بمصابيح لا نراها ..

وفجأة .. إنطفأ المصباح .. وتلته جميع الهواتف فى شبه إتفاق مسبق .. فتدثرنا بغياهب دامسة حالكة .. وتكاثف السواد أمام مرآنا .. فبتنا كمن أصيب بالعمى التام .. مما جعل الضابط .. هذا الأرعن كثير الثورة قليل الصبر .. يستشيط غضبا ..

- صبر إيه ياراجل يا مجنون ؟ .. قربت أموت من الخنقة ..

وتحسس هاتفه حتى تمكن من إضاءته .. وكر يتخطانا خارجا من المقبرة .. حينها اشتعلت داخل مشاعر مريجة ما بين رغبة الإنتقام .. والخوف أن أخلى سبيله ليحط على رأسنا خارج المقبرة بينما نحن بالعمق .. فإنتويت الإمساك بساعده قبل أن يتخطانى ودفعه بقوة إلى الداخل .. إلا أنه ما كادت الفكرة أن تحتمر فى رأسى .. وبت على وشك التنفيذ .. حتى إنبعث ضوءا من هاتف صاحب المنزل خلفى واكبه صياح الشيخ مباغتاً ..

- الباب أهوه .. لقيت الباب ياممدوح باشا ..

فتراجعت .. بينما تلمست هاتفى حتى أضاء وكذلك فعل الشيخ مع المصباح ذو البطارية .. فإنقشع الظلام شيئا ما .. وإستبان الباب .. إستدار الضابط ليجد أن هناك بابا بالفعل قد تكشف

على بعد ما يناظر الثلاثة أمتار .. فترجلنا نلج من الباب واحدا
تلو الآخر ..

إنكشفت أمام أعيننا على الجانب الآخر معالم المكان .. وما زاد
من وضوحها إلتماع القطع الذهبية والنفائس الأخرى المعدنية
تحت وضوح الأضواء الساقطة ..

ولن أنسى ما حييت ما رأيته داخل تلك القاعة الفسيحة .. كنز
رهيب مهيب .. ذو وفرة مفرطة من أثار وخبايا الفراعين .. ثمة
تماثيل ضخمة من الأحجار الكريمة تحمل تيجان أزهار اللوتس
يقع على عاتقها سقف المقبرة .. موزعة على الحواف وفي أنصاف
الأجناب .. وما يعدو العشرة تواييت .. مصنوعة من الذهب
الصراح المزخرف والمطعم بالأحجار الكريمة والفسفورية ..
ومئات القطع والأغراض الذهبية والحجرية بشتى الأشكال
والأنواع والأحجام .. بدت بالفعل وكأنها مقبرة لعظيم من
أعظم الفراعين ..

وثب الشيخ مهللا ..

- الله أكبر .. الله أكبر .. إليه الخير ده كله .. بسم الله ماشاء

الله .. إظهار ربنا راضى علينا المرة دى ..

بينما طفق الضابط يقلب القطع بنهم وشراسة فجأة ..

- إيه ده .. معقولة كل الكنوز دى مدفونة تحت الأرض !!

ووقفت أنا وصاحب البيت مشدوهين بجلال ما نرى .. لم أكن

أصدق أننى فى يوم ما سأمتع عينى بمشهد مثل ذاك

لمح الشيخ مساحة قائمة مستطيلة الشكل بشكل رأسى .. بحجم

إنسان مرة ونصف إلى الجوار من أحد التماثيل .. فترجل عدة

خطوات يقترب منها .. ليجدها بابا محفورا فى الجدار .. ولج منه

مستعينا بضوء مصباحه .. لينفرج أمامه فراغا فسيحا آخر

يتشعب منه فراغات جانبية لحجرات فى الجوار ملأى بالنفائس

والكنوز .. فعاد أدراجه يثب مبشرا ..

- الله أكبر .. دى فيها أوض تانية .. صدق اللى سماكى مقبرة

ملكية ..

ردد الضابط عبارته مدهوشا ساهما .. وكأنه لا يدري بما يلفظ ..

- مقبرة ملكية ..

وطفق يرمقنا ثاقبا .. وكأنها شيئا ما يعتمل برأسه أو إستفاق إليه

وفى غمرة إنشغالنا وبينما نحن غارقين فى النظر والتدقيق

والتحرى .. تراجع الضابط لعدة خطوات محسوبة مدروسة

للخلف .. ليصبح بالقرب من باب المدخل المطل على الطريقة
مباشرة .. ثم دس يده فى الجراب الخبيئ الناشب فى جانب
خصره .. وأبرز مسدسا عامرا بالطلقات .. يشهره فى وجوه
الحضور .. بغتة .. ناكثا لعهوده .. غادرا بمن رافقوه مغامرين إلى
العمق ..

باغتهم وناهزهم سافرا يقول ..

- يا لله يا حلو إنت وهو .. ضموا جنب بعض .. وكل
واحد يحط تليفونه على الأرض بهدوء .. بعدين يشبك
إيده ورا دماغه .. ومش عايز أسمع صوت حيوان فيكم
لم أندesh كثيرا لما يحدث .. فقد كنت أشعر بأن شيئا ما من هذا
القبيل لا مناص وأن الضابط يكنه فى نفسه ويتتويه .. إلا أنى لم
أتخيل شاكلة وكيفية حدوثه ..

ترجل الشيخ شطر الضابط .. محاولا الانضمام لحزبه .. إلا أنه
رعد فيه مناهضا قبل أن يخطو بضع خطوات ..

- إرجع مكانك وحط الكشاف على الأرض .. وإعمل زى
زمايلك ده لو مش مستغنى عن روحك ..

وضع الشيخ المصباح مجبرا في خزي وخنوع .. وإنضم إلى جماعتنا
خائبا .. وأشار الضابط إلينا ..

- يا لله إتحركوا قدامى ..

ورمقني شذرا بنظرة تشفى .. مقية .. قائلا يقصد الشيخ قويا ..

- وإبقى ورينى المهكع الخرفان بتاعك ده هينفعك بإيه ..

ظل الضابط يقلقلنا ويحركنا بإتجاه المدخل حيث كان
منتصبا .. بينما ترجل حذرا إلى الداخل صوب المصباح .. ومال
بجسده حريصا يلتقطه ..

إقتادنا أمامه على مبعدة زهيدة إلى خارج المقبرة .. سرت معهم
أفكر في سبيل للخروج من هذا المأزق المباغت .. شارفنا سفح
الدرج الحجري .. ولم توحى لى قريحى بفكرة ما .. بدأنا فى
الصعود واحدا تلو الآخر .. كان فى المقدمة صاحب البيت
وخلفته أنا .. بينما مضى وراءنا الشيخ مرسى مطرقا يترقب
ويترصد الضابط فى خلسة ..

إرتقى صاحب البيت وأنا أخلفه .. وما إن شارف فوهة القبر
وقبل أن يتم خروجه .. هويت عنوة بقدمى عند حافة إحدى
الدرجات .. أدعى التعثر .. وفى غفلة من الشيخ وإنشغاله بالنظر

إلى محط قدمى المتعثرة .. إستدرت مباغتاً ودفعته خلسة بباطن
قدمى دفعة عنيفة .. حتى سقط متدحرجاً دافعاً الضابط أمامه ..
فإنكبا طريحين عند درك السلم .. وتكوم الجسدان فوق بعضهما
البعض .. وإنفلت قياد المصباح من يد الضابط .. بينما إندفع
المسدس لعدة أمتار إلى جانب جار الطرقة ..

قمت منتصباً .. أنتهب الدرجات أمامى نهبا حتى إشرئب
جسدى برأسه من فوهة القبر .. فأكملت ظهورى إلى الخارج
أزج صاحب البيت بيدى فى قوة وغلظة .. والذى كان قد إلتفت
إلى الفوهة إثر ما حدث بالأسفل .. فسقط هاويا دافعاً أحد
الحارسين أرضاً فى سرعة خاطفة .. أفردت جسدى وإنحنيت
لاهثاً ألتقط سلاح الحارس الهاوى .. إلا أن سلاحاً آخر كان
مصبوباً إلى رأسى مباشرة .. إذ ناهضنى الحارس الثانى هو الآخر
بدوره فى ذات السرعة الخاطفة ..

قام الحارس الأول ولكزنى بقدمه ملتقطاً سلاحه .. وتمكنا
الإثنين من إخضاعى قسراً .. بينما صعد الضابط من جوف القبر
يتساند على أركانه .. مهتاجاً وقد أصيب إثر الركلة وإصطداماته
بالدرج الحجرى بجروح موزعة كاللمم بأجزاء جسده إلا أن

أكثرها وجعا كان فى رأسه وبراحته اليسرى .. توجه صوبى مباشرة يتألم يتطوح جسده ويترنح حتى أنه كاد يسقط طريقا .. وبأقصى قوته ظل يركلنى بعنف وغلظة .. وما إن إستقمت أمامه أرد عن جسدى ضرباته حتى لكمنى فى وجهى .. فتلوّحت عظام مسحتى وإلتقط سلاح أحد الحارسين ودق رأسى بظاهره حتى بغ الدم منها بغا .. فسقطت طريقا ..

أشهر السلاح صوبى مباشرة .. يتأهب لقتلى .. إلا أنه إلتفت خلفه بغتة إثر سماعه صوت الشيخ مرسى .. يصعد من الفوهة متأوها يجر أذيال عباءته .. فإندفع شطره وزجه بقدمه زجة عنيفة حتى هوى على مقربة منى يسيل الدم من أنحاه .. يلتاع من شدة السحجات برجله وكتفه وظهره وجرح غائر بجانب رأسه ..

نظرنى الضابط يهيج ثأره .. يهددنى ..

- هدفك فى مكانك حى .. أقسم بالله لأدفنك بإيدى ..

قام الحراس بحجزى وتركيعى عنوة .. أنا وصاحب البيت والشيخ مرسى .. إلى الجوار لأحد جدران المنزل الخارجية .. وتم توثيق كل منا .. وإحكام وثاقنا .. بينما ظل الضابط يتشنج

متحركا أمامنا جيئةً وذهابا .. مكث يردد فينا مدمدما لبرهة من الوقت .. إلى أن تمالك شيئاً ما من تأثيره فتوقف بغتة يناظرني مباشرة .. ويرمقني ساخراً ..

- يا حبيبي .. إنت لسة عيل بريالة .. أخرك تستخبي زى الفران ..

طالعه الشيخ القابع فى أسره .. يحمر عيناه مهددا ..

- هنزل عليك لعنات الفراعة ..

رمقه الضابط بلحاظ عينه صامتا لبرهة ثم انفجر يضحك ويكركر كالمخدورين .. إلى أن تجهم بغتة يهزأ به ساخراً ..

- لعنة ؟! .. لعنة إيه ياراجل يامعتوه ؟ .. إنت مصدق إن

إحنا مأمنين بيك أصلاً .. الكل عارف إنك مجرد دجال

ونصاب كمان .. ومفيش فايدة من الخزعبلات اللى

بتعملها دى .. بس عادى مفيش مشكلة من وجود

أمثالك عشان يكملوا الديكور .. إنتو جزء تافه من لعبة

كبيرة .. وبالخرافات اللى بتروجوها بتسهلوا شغلنا

وتزودا هيبتنا .. زى تقليعة لعنة الفراعة دى ..

وضحك ضحكة هستيرية هوسية .. أغلقها بحديثه المتعالى
المتعجرف ..

- إنت عارف .. هعلمك أنا بقا لعبة الفراعنة .. دى إحنا
الى بنحط قوانينها .. ونحدد مين يدخل فيها ومين يخرج
حاولت أن أقتاده إلى جدال عبثى .. لكسب المزيد من الوقت
ريثما يأتينى الشيخ قويا الذى لم أعلم علة تأخره حتى حينها ..
فطالعتة أحدثه هاذئا ..

- بس الحكاية لسة مانتهتش ياباشا .. مستعجل ليه النهاية ؟
نظرنى والإبتسام يملأ فيه ..

- إيه ده ؟! .. مين بيتكلم ؟ .. مصطفى بيه !.. والله
وطلعلك صوت يابرص تتكلم !.. إنت لسه فيك نفس
ترغى ؟! .. يابنى إنت ميت ميت .. معدش فيه مكان
ليكم بعد النهاردة .. لو بإيدى كنت طبقت عليكم قانون
البحر .. عارفه ؟ .. لما السفن بتغرق .. القادة بس هما الى
عارفين سر النجاة .. وأمثالك بياكلوه السمك .. زى
زميلك الى راح فطيس بسبب غباوتك .. زمان السمك
شرب عليه بقين ميه ..

وإنطلق ضاحكا في سماجة ..

- حلوة دى .. سمك فى مية شرب بقين مية .. والنبي حلوة ..
والنبي غسل ..

إشتعلت النار بصدرى لسخريته من صديقى المسفوح غدرا ..
بينما نظرت إليه حاذقا أستخف بتنظيره الساذج عن البحر
وقانونه ..

- بس البحر مايفرقش بين خادم وقائد .. لحظة الغرق كله
بيغرق سعادتك ..

رمقنى متجهما ضجرا ..

- إنت مش هتبطل تتفلسف ياعم الفيلسوف الغبى .. مش
مكفيك المصايب الى نزلت على راسك وراس أهلك ..
بطل لعب معايا .. متتعشمش فى جولة تانية .. أفهمك
إزاي ؟ .. ياحمار اللعبة خلصت وأمرك إنتهى ..

فقلت متجاسرا ..

- ياريتنى أعرف مين جايب الثقة الهبلة دى ؟ .. بسهولة
كدة بتنهينا ؟ .. إنت فاكر نفسك مين ؟ .. أقسم بالله إنت
صعبان عليا .. إنت المخدوع المضحوك عليه .. بالبلدى

كده مديينك على قفاك .. بيقولولك إقتله .. وفاكر
الحكاية إنتهت .. وبمناسبة اللعب إحنا لسة فى الملعب ..
وأفهمك أنا أكثر ياعم الفيلسوف الذكى .. الزهر لسه ع
الطاولة .. وقدامى جولة وإثنين وتلاتة .. تعرف تعد ..
رمقنى متعاليا ..

- ماهو ده يا حيلتها الوقت بدل الضايع .. خلصنا خلاص
.. إنت عارف عجبانى شجاعتك .. وكانت قدامك
الفرصة تبقى حاجة .. بس إنت للأسف متهور وغبى ..
وغباءك ده ساقك لحتتنا .. الى مافيهاش هزار ..
نظرت إليه متعجبا ..

- حتكم ! .. البلد فى النهاية بقت حتكم ؟ .. إنت عارف
زى ما أنا عارف إنكم مجرد حفنة من الفسدة والمرتشين ..
بس دوام الحال من المحال .. بكرة البلد الى متعتكم
بخيرها سنين .. ترفضكم .. تتبرأ منكم ومن أمثالكم ..
فضحك الضابط عابثا ..

- البلد الى بتكلم عنها دى بتتنفس فساد وظلم .. وهو ده
نظامها وشرعها .. بجهلك عايز تغيرها بين يوم وليلة ..

قلت أسفا ..

- الله يلعن اللى فهمك إنه لما يبقى فيه فاسد واحد .. يبقى
الفساد شرع .. ولما يكثر الفساد .. يبقى حكمها مشيخة
الفاسين .. كفياكم ظلم .. خنقونا بفحشكم ..

فقال ساخرا ..

- فساد إيه وظلم إيه اللى بتكلمنى عنهم ؟ .. إنت تعرف
حتى واحدة من الآثار المدفونة دى توزن ألف راجل من
عينتك .. بكرة البلد دى هتفرز أجيال ملهاش لازمة ..
زيك كده .. هتطمم التاريخ وتبيع البلد .. هتمحى
ذكرها وتتاجر بكنوزها .. وبنفسها إذا لزم الأمر .. طب
قولى بالذمة مش إحنا الأولى ؟ .. حتى نعيشلنا يومين ..
إحنا اللى عايشين على الأرض .. وخلي بكرة لبكرة ..

ضحكت ضحكة يأس فاترة خافتة ..

- إنت " ريب أرض مجهولة .. ورحم عاهرة " ..
فأقرب منى مغتاظا .. ولكزنى بمقدمة مسدسه فى جبهتى

- أنا مش هستحمل وقاحتك وسفالتك دى كثير .. لولا
إنهم عايزينك كنت صفيتك من بدرى .. مش عارف أنا
إيه قيمة واحد زيك عشان يتمسكوا بيه بالشكل ده ..
ثم إقترب منى منحنيا وأمسك بتلابيبى ينظرنى بخبث ..
- بس عايزك تعرف إنه فى كل الأحوال نهايتك مش هتكون
غير على إيدى ..
فنظرتة حزينا أتقهر بالندم ..
- تصدق .. بسببكم ندمت على كل لحظة قضيتها أتعلم فى
مدارسكم وجامعاتكم .. لو كنت أعرف من البداية إن
حكومتى هيا الى بتسرق قوتى .. كنت بقيت أول
الحرامية .. أقله كنت لقيت مكان دلوقتى بينكم .. مش
فيه بينكم حرامية من الشعب ياباشا برضه .. ولا إنتو
واخدين اللقب حصرى ..
- فحررنى وطفق يتحرك جيئة وذهابا أمامى .. وكأنها يلقننى
محاضرة ..
- أزمك الحقيقية إنك لسة مصدق إن سجالنا مع أمثالك ..
ياحمار إنتو مجرد عرايس تافهة على مسرحنا .. إحنا الى

بنحدد الأدوار .. ومساحة كل دور .. أما إنت بقا ..
فالممثل الفاشل الى خرج عن دوره .. إرتجل .. فالناس
صقفت .. والنتيجة إن المخرج طرده فى الآخر .. ولسه
فاهم إنه لسة على المسرح ..

تلصصت حولى أحاول أن أترقب أية بادرة أمل .. ولا أدرى ماذا
دهاهم .. وماذا ينتظرون .. فلا ريب أن ذاك الخائن لن يمهلنى
كثيرا .. سريعا ما سيمل الحديث وينهينى .. نظرت إليه حتى لا
يرتاب فى أمرى ..

- عارف إن ساعة الحساب قربت .. بس قولى حاجة أخيرة
.. إيه كان ذنب فتحنى وأبويا عشان تنتهى حياتهم
بالطريقة البشعة دى ؟ .. عشان بس ترضى غرورك
وعنجهيتك الفارغة .. إيه ذنبهم ؟ .. ليه بتدمروا حياتنا
وتقولوا ظروف .. وليه إحنا بس الى لازم ندفع فاتورة
الظروف دى ..

ليه خليتوا شعبنا مريض بالجزام .. ومش دارى بنفسه
وهو بينهش فى جلده بضوافره ويمزعه .. ليه ؟ ! ..

عارف ياباشا .. إنتوا الجزام ده .. هلكتونا وفقرتونا
وشردتونا .. بعثوا أرضنا وسرقتوا قوتنا وقوت عيالنا ..
فنظرني ضاحكا ..

- إنت بتكلمنى عن الأرض والقوت بلسان المناضل ..
متشوف نفسك يابنى إنت فين .. إنت بينا .. واحد من
شوية الحرامية اللى عمال تسلقهم شتيمة من بدرى .. إنت
مش واخذ بالك ولا بتتغابى ولا دماغك شيعت .. ولا
بتحاول تنط على أى كفة راجحة وخلص ..
كفاية تتدعى الشرف .. إنت مش منزه عن اللى إحنا
موحولين فيه ..

وكأنه قذفنى بحجر من شاهق .. حاولت إلهائه لتمرير الوقت
ريثما يلحق بى الشيخ قويا بحديث عبثى " لا معنى له " .. إلا
أنى لم أحسن إختيار الموضوع .. فصدمنى فى نهاية قيلته بالحقيقة
الصادمة .. " لست منزه عن جريمتهم " .. دوما كنت أغالب
تلك العبارة " المائجة الثائرة " فى عمقى .. أحاول وأدها مع
سنوات الفقر والعوز .. بيد أنها الحقيقة .. حقا .. كيف أناضل
من أجل وطن أسرق تاريخه .. كيف تجرأت وتحايلت على

ضميرى ؟ .. كيف علت نعرتى الكاذبة كفاحا من أجل شعب
وأنا أتسابق مع لصوصه فى سرقة ثروته ومقدراته ؟ .. كيف ؟ ..
أردت أن أكون ثريا فقط .. وبأى شكل .. حتى ولو كان عن
طريق التنقيب وتجارة الآثار .. دونما أن أوصم بالخيانة والسرقة
.. حاولت تحقيق معادلة لن تتحقق أبدا ..

سريعا ما تململ الضابط من هذا الحديث العبثى ..
- أنا مش عارف أنا واجع راسى بهريك ده ليه ؟ ..
ثم ترجل الضابط عدة خطوات مبتعدا .. وأخرج هاتفه المندس
فى سترته ليجرى مكالمة ما ..

- أيوة سعادتك .. كل شىء تمام ..
وإنتظر قليلا يتسمع حديثا ما .. إلى أن أنهى مكالمته ..
- زى ما تشوف سعادتك .. مستنى مكالمة معاليك
وأغلق الهاتف .. ثم تلفت إلى أحد الرجال المسلحين قائلا
- طلعوا كل اللى فى القبر دلوقتى ..

"الأخيرة"

كان الشيخ قويا مازال في إجتماعه مع الشيخ إمباوى .. وإنضم إليهما بعض شيوخ القبائل بالمناطق المحيطة .. برجالاتهم وعتادهم .. وإمتلأت الساحة بالرجال المسلحين ..

وما زال القلق يغرق أسارير الشيخ قويا .. ينظر ساعته من تارة لأخرى .. إلى أن نظرها أخيرا يقول ..

- وإيش خبر مصطفى ؟ .. إتأخر .. لله الأمر من قبل ومن بعد .. نتوكل يا رجال ..

تحرك الشيوخ بإتجاه سياراتهم الخاصة .. بينما تحركت جموع الرجال المسلحين صوب سيارات النصف نقل .. كان الحشد بحق كثيف .. فكل شيخ إصطحب معه ما لا يقل عن المائة رجل .. مشهدا مهيبا .. تخشى أن تراه لا أن تسير بجانبه ..

ساروا متتابعين كالسيل العرم .. متخذين مسالك ومدقات لا يعلم آخرها إلا عرقهم .. مدفونة بين أكوام الرمال وتلاها .. بحيث إن مرت شاحنة كبيرة خلالها .. لا يراها الناظر من بعيد وكان لزاما عليهم إتخاذ تلك الطرق للتخفى حتى لا يعلم بأمر تدبيراتهم .. علاوة على أن الطريق الرئيسى المؤدى لمنطقة أبو

يللو بمحاذاة الرياح الناصرى .. لابد وأنه سيشغل بسيارات الضابط ورجاله .. ولا ريب أن السير عليه سيفسد سرية الأمر .. وتمثل كل خطوة فيه مجازفة وخطورة بالغة على حياة مصطفى الواقع بين أيديهم .. إذ أنه ما إن يذاع نبأ تدبيراتهم لن يتورع هؤلاء الغادرين في تصفيته وإنهاء حياته ..

شغلت السيارات المدقات الفرعية عن آخرها .. بما يقرب من الثلاث كيلو متر في طريق ملتو .. بينما أصل المسافة على إستقامتها لا تتعدى الكيلو متر الواحد ..

تم التدبير لمعركة الهجوم والمحاصرة .. تدبيرا حكيما .. وكأنه صادر من قائد عسكري .. وفي الحقيقة كانت كلها من ثمار قريحة الشيخ قويا .. ذاك العجوز الداهية

وقد تم التنبيه على جميع السيارات بعدم إرسال أية نداءات أو تنبيهات بأبواقها .. كما يحذر إطلاق طلقة واحدة ولو بسبيل الخطأ .. تحريا للهدوء والخفية ..

تم التأهب .. تحسبا .. بكافة العتاد والأسلحة اللازمة .. فلا يعرف بالضبط ما هم قادمون عليه .. وما كان يتقص زحفهم سوى الطائرات والدبابات ليصبح جيش عسكري كامل القوام

.....

فى ذات الوقت .. وعند ساحة المقبرة قام ما يقارب العشرة رجال بإستخراج الكنوز من العمق .. وتحميلها إلى سيارات نقل وشاحنات تم جلبها لهذا الغرض .. بينما إنتصب رجلان بأسلحتهما قبالتنا .. وجلس الضابط يتابع التحركات وعمليات النقل ويأشرها عن كئب ..

كان قد مر من الوقت ما يعدو الساعة من الزمن .. ولم ينته الرجال من أعمالهم .. وقد تم التدبير لعملية النقل بحرص وحكمة .. إذ تم رفع القطع الذهبية الصغيرة أولا فى صناديق خشبية مدهونة بالقار الأسود الجاف تماما .. تلاها الأكبر فالأكبر .. ثم تناوب العمال على رفع باقى النفائس المعدنية والحجرية .. إلا أن الكتل الكبيرة كالتوابيت والتماثيل فى طول الإنسان الطبيعى وما يزيد طوله عن ذلك .. فتم الترتيب لنقلها فيما بعد .. إذ تتطلب عمليات إزالة جزئية لسقف المقبرة لتوسعة الفوهة .. كما تتطلب معدات خاصة مجهزة لهذا الغرض ..

وبغته .. وقبل أن ينتهى العمال من رفع كافة القطع الصغيرة ومتناهية الصغر .. وعلى حين غرة .. ظهرت أمامنا ثلاث

سيارات للأمن المركزى على مقربة من مقدمة المنزل .. غافلتنا أصوات النقل والتحميل عن التنبه لمقدمها .. وسريعا ما حاصرت الساحة من الجهات الثلاثة الرئيسية والتي يمكن لأى من السيارات الخاصة أو سيارات النقل المحملة العبور من خلالها فهي الجهات الوحيدة التى تتفرع من ساحة المنزل بمدقات وممرات شبه معبدة ..

جاءتنا أصوات قضقضة عنيفة ناتجة عن تكسر فروع الأشجار الجافة وإنفجارات تكتلات الصخور والرمال الصلدة عند مرور سيارات الأمن من خلال المسافات البينية الوعرة للمدقات .. وفى غضون لحظات تناثرت حشود قوات الأمن المسلحة تطوق المنطقة بالكامل محدثة جلجلة ودبابة مدوية تتردد فى الأنحاء المحيطة ..

أصيب الجميع بحالة من الذهول الرهيبة .. حتى العمال توقفوا عن عمليات الرفع .. بينما هب الضابط ممدوح واقفا مذعورا .. يتنفض رعبا .. ظل يحمق .. يدور بجسده ورأسه .. ظانا أنهم أسقطوا فى قبضة الشرطة عنوة .. بعد تسرب نبأ الحفر .. كان المشهد داعيا للريبة والتشكك .. إلا أن سيارة خاصة تقدمت

شيئاً فشيئاً إلى الداخل من ساحة المنزل والمقبرة .. رمقها الضابط مرتاباً .. إلا أنه إسترد جأشه شيئاً ما عندما إستوثق أنها سيارة اللواء صبرى .. وذاك أنه الموجه الرئيسى والمباشر لعمليات التنقيب والحفر وأحد الشركاء فى عملية إستخراج كنوز المقبرة الملكية ..

كان الضابط مازال مريجاً تتلاعب الريبة والظنون بلبه وفؤاده .. لكنه حاول أن يتماسك عندما تقدم اللواء صبرى مترجلاً نحوه .. إلى أن توقف أمام أحد الصناديق الملأى .. وطفق يتحرى عينة من القطع الذهبية ويقلبها فى رزانة وهدوء .. ولتلك اللحظة لم يكن الضابط قد فهم كنه الأمر وعلة وجود قوات الأمن المركزى .. ومازالت تقلبه التوقعات السيئة .. إلا أنه حاول إسكات ذاك الهاجس الثائر داخله بوازع أنه لا مناص أن تدبيرا ما سرىا قد تم ترتيبه مسبقاً لعملية النقل دون علم منه .. ولقد تأكد حدسه شيئاً ما عندما سأله اللواء ..

- إيه الأخبار ؟ .. خلصتم ؟ ..

رد الضابط بنبرة متهدجة ..

- كل حاجة زى ما أمرت معاليك ..

رمقه اللواء بنظرة مبهوتة دونية .. لما يبدو عليه من حال مزرية
من أثار الجروح بوجهه .. والأتربة والأوساخ العالقة بهندامه ..
أحضر الضابط مقعدا وأعد له مجلسا خاصا في الجوار .. جلس
اللواء يمسك نوعا من السيجار الفاخر .. بينما أخرج الضابط
مشعلة وقربها من اللواء .. فأشعل الثانى سيجاره نافثا دخانه
الكثيف فى وجه الضابط .. فإنزاح ليقف على مقربة منه .. يجادل
حديثا داخله محاولا فك طلاسم ما يرى .. يتكهن ما سيتأتى من
أمر ..

بينما كنت بدورى مريجا .. أتساءل فى نفسى عما إذا كنا قد أوقعنا
فعلا فى يد الشرطة .. كان البديل لذاك الإحتمال تصورا يصعب
تعقله .. أو حتى تخيله .. إستنكرت فى خلدى مندهشا .. "هل
ناهزت قوة هؤلاء الفسدة لتركيع إمكانات الداخلية لأغراضهم
الدنيئة ؟ .. أيعقل أن تصبح السرقات هكذا علنا ؟ .. وتحت
حماية من هم منوطين بحمايتنا .. " .. " ولا تقول لى بعد الآن أن
هناك ثوابت .. حتى القيم الراسخة تتمسخ .. وبعد الآن ..
أفجر .. ولا حرج "

ظللت مترقبا لما يحدث .. لا أصدق ما تراه عيناي ..

بينما كان اللواء يرمق العمال وهم يشربون من الفوهة واحدا تلو الآخر حاملين الصناديق البطينة بالكنوز .. كان العمال قد أصابهم ذات الإختلال .. يتناوبون إختلاس النظر إلى اللواء وأفراد الأمن المنتشرين فى كل مكان فى وجل وريبة .. حتى أن أحدهم كاد أن يسقط بصندوقه عندما تعلق عيناه بمشهد الجنود الرابضين ..

ظل الضابط منتصبا على مقربة .. يشرد لبه توجسا .. تتقاذفه الأفكار السيئة والمخاوف المقيتة .. يتابع اللواء بنظرات خرساء بلهاء .. بينما أبرز اللواء هاتفه المحمول ليجرى إتصالا إلا أنه لم يلفظ سوى جملة واحدة عبر الأثير ..

- كل شئ تمام سيادتك ..

ثم أنهى محادثته بجملة جعلت قدمى الضابط تصطك رعبا ..

- تمام .. إحنا على إستعداد لإستقبالكم ..

فإنفجرت الظنون المربعة تفتك برأسه .. لا يدرى من هؤلاء القادمين .. وجأ سرحته الصغيرة صياح اللواء فى وجهه متعاليا مما جعله يثب منتفضا ..

- خلص الشغل ده .. وهات صناديق التماثيل الذهب دى
هنا ..

وأشار إلى بقعة خاوية إلى الأمام من تتالى السيارات ..

.....

فى ذاك الوقت .. ودون سابق إنذار .. كانت سماح على مبعده من
البيت .. تقترب شيئاً فشيئاً .. تتسلل بتؤدة عبر تلال الرمال
القزمية .. كانت قد إقتفت أثارى بعدما تركتها مباشرة .. فلقد
إلتهمها شعور بالفرقة والوحشة .. وإغتمرها إحساس بأن لقائى
ذاك هو اللقاء الأخير .. إذ كانت دموعى وأحضانى تنطق
صارخة بهذا المعنى ..

هرعت وراءى متلهفة .. عليها تستطيع أن تفعل ما قد ينقذنى من
أوحالى .. وما زادها شكا وتوجسا .. هذان الرجلان اللذان
صحبانى من البلدة إلى جسر الطريق .. وتلكم السيارة التى
ركبتها بصحبة رجال من البدو .. وما أهاج ربيتها السيارة
الأخرى المלאى بالرجال المسلحين ..

كل الأمور كانت داعية للريبة .. مما دفعها دفعا للتحري ورائى ..
تسللت تتابع ما يدور هناك .. وترجلت متعثرة بمحاذاة المجرى
المائى .. عند سفح الجرف الذى يحد ضفته من الناحية الغربية ..
حاولت أن ترمق ما يجرى هناك .. حيث كان مستقرى لما يعدو
من الساعة والنصف .. وما إن رأت عساكر الأمن المركزى
يتناثرون حول البيت حتى طفقت بدورها تحدث نفسها بأنه لا
مناص بأن أمرا ما سيئا قد حدث .. والرائى للمشهد من بعيد
يظن للوهلة الأولى ذات الظن . أننا قد أوقعنا فى شرك الشرطة
.. فأثرت المكوث .. لتتقرب ما سيستجد من أحداث .. ولأنها
إلى ذاك الحين لم تكن عيناها قد رأتنى بين هؤلاء المعتملين هناك
على مرماها .. فربضت عند المنحدر تتخفى خلف تبة خفيضة
تتحري عنى بين هؤلاء المجتمعين ..

.....

أما حول القبر .. فمزال العمال يتناوبون العمل .. بعضهم يخرج
محتويات المقبرة .. أما البعض الآخر فيستغرق فى إفراغ سيارات
النقل من حمولة الصناديق الحاوية للقطع الذهبية الصغيرة ..

وجلبها إلى حيث أمر اللواء صبرى .. وفى الواقع كان لديهم الكثير منها .. ما يفوق الثمانين صندوقا ..

وبينما كان العمل مستمرا على أوجه .. تراءى فى كبد السماء شبعا لطائرة مروحية تحلق فى الأفق البعيد .. كلما إقتربت يكبر حجمها رويدا رويدا .. وتتضح ملامحها أكثر وأكثر ..

فى البداية لم يعيرها أحدا إلتفاتا رغم أنها كانت تقترب فوق سماءنا بشكل ملحوظ .. إلا أن عينيّ اللواء صبرى تعلقتا بها .. ظل يرمقها متابعا .. مما إنتهب إلتفات الجميع .. من أحقرهم لأعزهم .. بدى اللواء وكأنها ينتظر أحدا ما قادما بها .. كان هذا الظن خرافيا بالنسبة لأغلبنا .. لذا لم تستحوذ المروحية ذاتها على أنظارنا بقدر ما راعنا مشهد اللواء المراقب لها ..

خالجنى ظن ما بأنه لا مناص وأن اللواء يخشى شيئا ما .. لربما توجس خيفة بأنها قد تكون مروحية عسكرية غير مرحب بمرورها فوق سماء تلك البقعة بالتحديد .. وكان هذا أقصى ما يمكن أن يتخيله عقلى حول هذا المشهد .. إلا أن ظنى لم يكن صائبا .. فقد إتضحت ملامحها وإنجلي أنها طائرة خاصة ..

ظلت المروحية تقترب وتقترب ويتضاحم حجمها .. تصدر هديرا مدويا إلى أن أصبحت فوق رؤوسنا بحجم منزل كامل .. إهتاجت الزراعات والأشجار وتمايلت أعواد النخيل .. وتطايرت تكورات الهيش اليبس على البعد .. وثارت فورة هوائية جعلت ملابسنا تختلج إختلاجا عنيفا تكاد أن تحيلنا إلى عرايا بالكامل ..

تعلقت أبصارنا إلى حيث كانت تحلق .. حتى جنود الأمن المركزى .. كان المشهد العام مهيبا وداعيا للإضحاك فى ذات الآن .. بدأت الطائرة تهدر وترعد بقوة ويتفاقم هديرها وفحيح مروحياتها متفاقما بسرعة لاهثة مباغته .. وذاك عندما بدأت فى الهبوط بتؤدة فى ساحة خاوية على الجانب الجنوبى من البيت .. كانت ملأى بالجنود المتناثرين الذين ما لبثوا أن هجعوا من مستقراتهم مبتعدين فى خطو عسكرى حثيث .. ليفسحوا لها مجالا للهبوط الآمن .. وكأنها مراسيم رسمية لأحد المسؤولين فائقى الأهمية ..

ظللت مشدوها يشاركنى الحضور ذات إنفعالاتى وخطوط أسارىرى .. وأنا أرى الطائرة الضخمة تهبط إلى أن إستقرت فوق

أديم الأرض فى بقعة رملية يبدو أنه تم تعبيدها مسبقا لهذا الغرض .. ولا أعرف كيف غفلت عن هذا التبدل فى هيئتها أثناء مقدمى ..

لم يكن المشهد غائبا عن أعين الشيخ قويا .. إذ قدم بسياراته وإستقروا على مبعدة من أفراد الأمن .. وخالجه ذات الظن حينها أنه جرت التدابير لضبط الحضور متلبسين بفعلتهم .. وجلبت تلك المروحية لرفع الكنوز وتوزيعها على متاحف الدولة فيما بعد وما إن إستقرت الطائرة حتى فتح الباب الخلفى أسفل الذيل الممتد .. وتلاه بابا صغيرا نسبيا فى جانب مقدمة الرأس .. تم إنزال درج حديدى أسفل الباب الصغير يكافئ إرتفاع جسم المروحية عن الأرض .. وهبط عليه رجلين شديدى الضخامة .. وإنتصبا بجوار الدرج .. بدى من هيئتهما أنهما حارسان خاصان وبعد برهة تجلّى رجلا من ذات الباب .. بدأ فى التكشف بتؤدة .. طويلا وسيما .. تبدو عليه علامات الفخامة واليسر .. إلتمعت صلعته النصفية المميزة تحت وضح الشمس .. ووارت عيناه نظارة سوداء عريضة المساحة تتقدم وجه طويل .. أبيض البشرة .. ذو أسارير وتقاطيع منحوتة بإستطالة ..

لم أتعرف عليه .. للوهلة الأولى .. ولكن ما هى إلا هنيهة .. خلع الرجل نظارته فتجلى وجهه وضحا .. جحظت عيناى .. إنه هو ؟! .. لم أصدق ما رأيته .. كان الرجل من رؤوس القوم التى يستحيل حتى النطق بإسمها أو نعتها .. أو حتى التوجس فى تورطها فى هذا العمل المشبوه ..

كاد عقلى أن يقف تماما عن التفكير .. كنت مريجا متخبطا .. أعجز عن تفسير ما أرى أو ربط الأحداث وترقيها .. أو قل إنحذارها إلى هذا المستوى .. وكان هذا الرجل هو النهاية التى ما بعدها نهاية .. والتى إستحال تصورها

هبط الرجل الدرج الحديدى .. وكان فى إستقباله اللواء صبرى .. بينما بقى الضابط متأخرا كجراثومة عالقة فى نعل أحدهما .. يشاركنى ذات الإندهاش والبلاهة ..

نظر الرجل إلى اللواء بسمو وعجرفة وإستعلاء يحادثه الثانى قائلا ..

- الصناديق زى أمرت .. معاليك ..

وأشار اللواء إلى حيث الصناديق المرصوفة .. قرابة الثمانين صندوقا .. تحرك الرجل إلى حيث محطها .. يخلفه اللواء .. الذى

تقدمه مسرعا يفتح أحدها مطرقا فى خضوع .. تحرى الرجل
القطع النفيسة أمامه فى زهو وخيلاء متبسما .. إبتسامة ذات
مغزى .. وذاك أيضا فى جملة ما رأيته ولن أنساه طيلة ما عشت ..
من أعاجيب ذاك اليوم الغرائبى ..

أوماً الرجل إلى اللواء بطرف بنانه لرفع الصناديق .. والذى
بدوره أصدر أوامره للعمال بالتنفيذ ورفعها إلى مؤخرة المروحية
تم إنزال مستو حديدى مائل من أسفل الفتحة الخلفية للطائرة ..
بينما ظهر رجلان ضخام البنية ليستقبلا الصناديق ورصها
وتنظيمها فى الداخل ..

وما هى إلا دقائق .. كانت الصناديق قد نقلت بالكامل .. وكان
ذاك الرجل الوسيم قد سبقها إلى المروحية .. ورفع الدرج
الحديدى وأغلق الباب .. بينما ظلا الحارسان منتصبين حوله ..
يشهران نوعا من الأسلحة الآلية فائقة التطور .. ريثما تغادر
الطائرة ساحة المكان تماما ..

إرتفعت الطائرة رويدا رويدا تتمايل إلى الجانبين .. وجميع
الحضور ينظرونها مشدوها ..

بدى وكأن ما حدث .. حلما .. كان القدوم فيه سريعا والمغادرة
أسرع .. وما زالت الأعين فى سكرتها تتعلق بالطائرة .. حتى
الضابط لم يكن مفيقا من الحدث .. وقف محملا ببلاهة يكاد
الخبال أن يضرب رأسه ..

وعلى حين غرة .. صعقنى صوت سماح يتآزف صارخا من بعيد
، كصخرة تهوى من شاهق ..

- مصطفى .. يامصطفى ..

جن جنونها عندما لمحتنى على البعد أسيرا لرجاهم وأصابها حالة
هياج وثورة عارمة .. فهرعت صوبى تخترق صفوف جنود
الأمن الرابضين فازعة صارخة .. تسللت إلى وسط ساحة المقبرة
لم أكن أصدق أن قدماها قد ساقتها إلى هنا لأجلى .. كان الذعر
قد بلغ من كل مبلغ .. إنتفضت من مستقرى أحاول تحرير وثاقى
.. إستجمعت كل ما أوتيت من قوة أقاوم إحكامه .. كادت
خشونته أن تبتز معصمى وتنحره .. إلى أن إنفلتت إحدى يداى
.. بيد أنى لم أكد أن أحرر اليد الأخرى حتى هويت مقبوضا ..
تكاد الصدمة أن تذهب عقلى .. وأنا أشهد الجنود يرشقونها
بوابل من الطلقات العشوائية من كل الأرجاء المحيطة ..

فزعت من محطى أزأر زئير ضيغم مصعوق .. لقد إخرقت
الرصاصات جسدها النحيل .. فإهترأ كفرخ هش من الورق ..
وإندفعت هاوية تبك الدماء من عروقها بكا .. غريقة فى بحر من
ثجيج الدم المحموم ..

حمى الشد والجذب داخلى .. أتناهض ثقيلًا منهوكًا أقاوم رأسًا
مخدورا وعينا تفح لهيبا مستعرا .. ألفظ زفيرا وسعالا أبح أجش
.. وإندفعت الدماء الكاسحة فى عروقى تركض مكروبة كسرب
من الجمال الهاجعة النافرة .. أصرخ ممزقا .. يتصاعد صوتى
المذبوح بدمدمات تشل القلب .. ويتردد هادرا فى أعماق الفيفاء
بوقع يصم الجبال ..

- سماء الاح ..

نفرت إلى أحدهم أصدمه براحتى صدمة كسرت عنقه فأردته
قتيلا .. فإلتقطت سلاحه كالمجنون .. وطفقت أرش الطلقات
رشا غليلا .. أينما ذهب النيران ذهب .. صوبتها تجاه كل من
وقعت عليه عيناى .. الضابط واللواء والشيخ وصاحب المنزل
ورجالهم .. بغتتهم الرشقات فأسقطتهم صرعى عن آخرهم ..

تآزف صراخى وتلاحق مجلجلا .. أتأوه بحرقة جاسية قاسية ..
نابضة من القلب المقبوض جزعا والمكلوم فزعا ..
رفعت السلاح بيدى أصوبه شطر المروحية المغادرة بعيدا ..
أدفعها بطلقات واهنة واهية .. عاجزة خائبة .. كوخذ الإبر فى
جسد تنين عجوز سميك الجلد .. فإستدرت ملهوفاً أصوبها تجاه
عساكر الأمن .. إلا أنى وجدتهم رقادا صرعى عن آخرهم ..
كان الشيخ قويا ورجاله قد برزوا من كل الأنحاء كالجراد المنتشر
الكاسح فأجهزوا عليهم وأردوهم قتلى .. وحاولوا إسقاط ذاك
المغادر محلقا بحصونه .. ناهبا ما جلبناه من كنوز .. إلا أن
المروحية كانت قد غادرت سماء المكان .. وتضاءل شبحتها شيئا
فشيئا حتى إبتلعته المزن بالأفق البعيد .. مخلقة حربا ظالمة ..
المنتصر فيها قائدا جبانا .. نهب غنائم جيش من القتلى هاربا ..
والخاسر جيشا جسورا كسره سوء طالعهِ والتقدم المتأخر .. إلا
أنه بالنهاية لم يذروا إلا صوت النيران ورائحة الموت ..
ألقيت سلاحى أرضا .. وهجعت أتعثر فى الرمال إلى حيث جثة
سماح المسجاه .. أحاول تحريكها علىّ أتحسس نبضها .. ولكن
دون جدوى .. فلا حراك لها .. لقد جست الدماء وماتت

العروق وإستكان الجسد وخمد .. لفظت آخر أنفاسها وهى
تناديني .. تستصرخنى أن أكف عما أنا ماض فيه .. دون أن
أسمعها .. أو قل صممت آذانى عنها .. كما صممتها عن صديق
عمرى وأبى .. أسكت صراخهم داخلى .. كابرت وعاندت ..
سرت يقودنى عقلى .. وها هو الآن يتنصل منى ومن قراراتى ..
إرتميت على جسدها .. أصرخ .. أتأوه .. أجيب نداءاتها .. ولكن
فى اثر النزاع الأخير بعد فوات الأوان .. لم أكن أصدق أنها ماتت
.. خايلنى شعور أن قلبها سينبض .. ستقوم وتعاتبنى مثلما كانت
تفعل دواما معى .. كانت راقدة .. ساكنة .. تنظرنى بأعين
زجاجية .. إلا أنى أسمع عتابها ونشيجها ..

لقد خبا آخر خيط تعلقت به بالحياة .. طوال الرحلة وأنا أعلم أن
مسيرى هذا سيفقدنى شيئا ما عزيز على قلبى .. ظننته تطيرا .. لم
أكن أعلم أن فاتورتى باهظة لهذا الحد .. لم أكن أعلم أن هذه
الثروة التى سعت ورائها ستفقدنى أعز الناس وأغلاهم ..
وسؤالا يطن فى نفسى .. ما ذنب القطيع أن يتحمل أخطاء راعيه
، ما ذنبه ؟! ..

لقد إنتهى الأمر .. إنتهت الرحلة .. مغامرة اليأس لا العقل
والحساب .. ولا صوت إلا صوت الفراق الجاثم على المشهد ..
ساعة زمن مؤلمة تكلل رحلة خاسرة .. وخطو عاثر .. ووعى
غائب خائب ..

قبعحت أحتضن جثمانها .. وهمهمات الحضور نواح فى أذنى ..
القلب يضرب فى رهبة وينزف ألما ورعبا ينهش الحشا .. والخوف
جبل ثقيل راسخ يحثم عليه .. الذاكرة تنفجر بمشاهدها الموجعة
لتغرقنى فى تشنجات مرتعشة منهكة .. ومخالب تنشب خناجرها
فى عمق نفسى لتمزقها

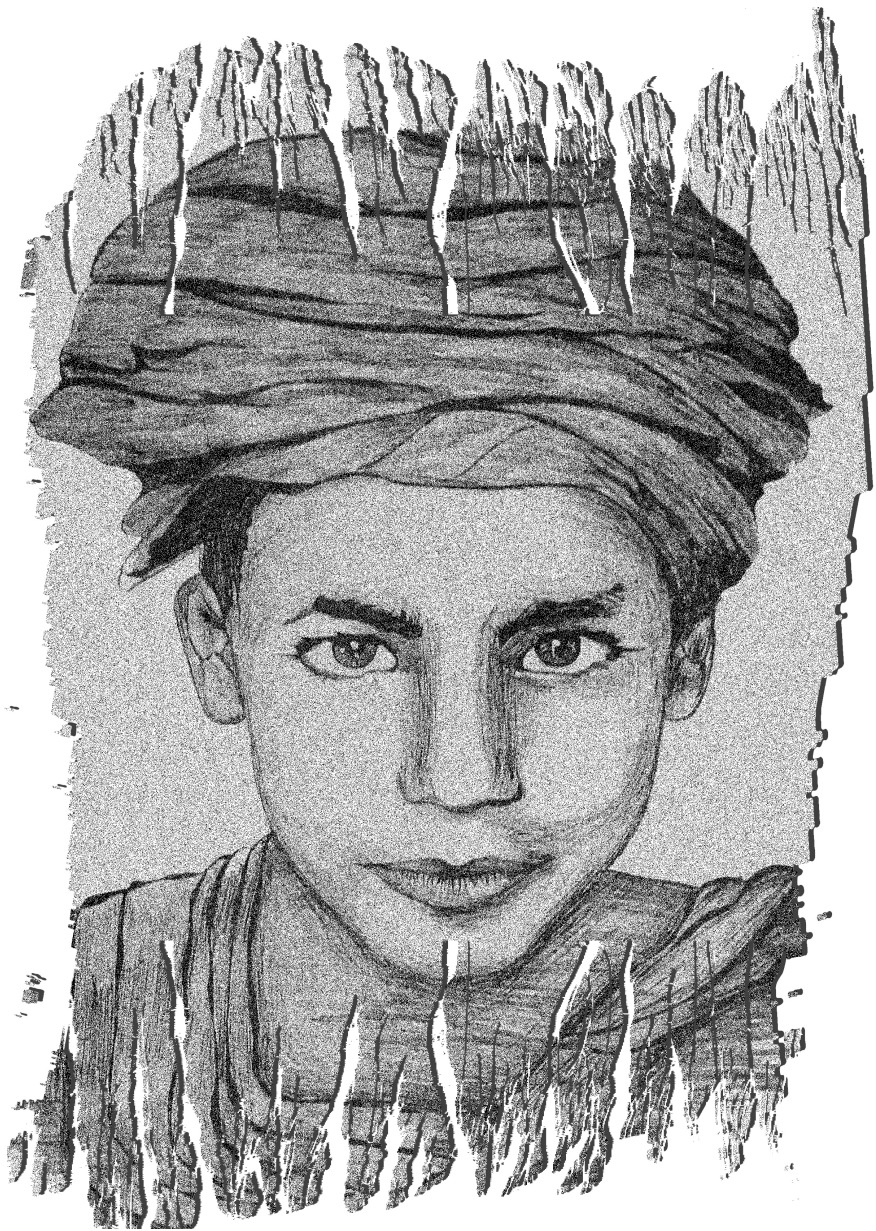
إقترب الشيخ قويا منى .. ووقف إلى جوارى أسيانا .. ترسو يده
على كتفى .. يحاول أن يهون على نفسى مصابها .. لم يكن يعلم أن
قلبى لن يكف عن الصراخ إلى أن يقبض الله أنفاسى ..
رفعت جثة سماح بيدي .. وترجلت أحملها بين القتلى الكثر إلا أن
أعزهم وأغلاهم بين ذراعى .. لم يخطر ببالى أبدا أنى أنا ..
وبيدى .. سأوارىها التراب الى مثواها الأخير ..

.....

تعاقت الأحوال وتداولت الأيام .. ومرقت الأعوام المديدة ..
ولم يغيبوا أو يرحلوا عن ذاكرتى .. أبى وحبيبتى وصديق عمرى
.. أفتقدهم دوماً وأتوق شوقاً للقاءهم .. وما إن تقاومنى عقبات
الطريق حتى أسترجع حديثهم وعتابهم .. بفضلهم بت أفعل كل
شيء على نحو آخر .. ودوماً تسوقنى قدماى إلى حيث مثواهم ..
أقف بين رفات الموتى .. أرفع يداى أذكرهم فى دعائى .. وإلى
الجوار منى .. أخى الصغير .. وعلى الجانب الآخر إبنة سماح ..
وخلفى تقف هويدا .. تربت على كتفى وتعضد أزرى ..
عشت مع ثلاثة .. وأمضيت النصف الباقي من عمرى .. مع
ثلاثة .. وبقيت أنا المكلوم ..
أحمل فى فؤادى نار من عشت معهم وفقدتهم ، وبقعة أمل لمن
تشبوا بى وتعلقت أحلامهم بعقال محبتي ومعيتي ..

* * *

تمت بحمد الله ...



مُؤَسَّسَةُ أَلَمَةِ الْعَرَبِيَّةِ
لِلنَّشْرِ وَالتَّوْزِيْعِ

مُؤَيَّنَاتُ الْأَمَةِ الْعَرَبِيَّةِ
لِلنَّشْرِ وَالتَّوْزِيعِ

أَبُو بِلَلُ

مَجْزَرَةُ الْمُقَابِرِ

أَبُو بِلَلُ

مَجْزَرَةُ الْمُقَابِرِ

بَيْتِل مَرْعَى

رواية

الحكايات عنها تضارع الأساطير .. قيل أنها قديما كانت مدينة
فرعونية عظيمة .. عقد لها كهنتها رصدًا مهيبًا منذ أزمان
سحيقة .. فحُفِّس بها .. ومنذ ذاك الحين ما تنفك أن
تنغرس قرية على أطالها حتى يصيبها ذلك الرصد المخيف
.. فتبتلعها الأرض في جوفها وكأنها لم تكن .. وكلما حاول
أحدهم التحري داخلها عن كنوز الفراعين إختلاسا .. يذهب
في غياها دونما عودة ..

وكثيرا من الإرهابات والأضغاث تلك .. تميوج على السنة
الناس وفي عمق أدمغتهم .. بيد أن تلك الأرض المرصودة
.. ستظل شاهد عيان على ما حدث في تلك الفترة .. يتحاكون
به الأهالي مرارا ولسنوات طوال بعدها .. سيورثونه أولادهم
وأحفادهم وستظل الحكاية الأكثر ذيوعا وشيوعا على السنتهم .